قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

النهضة

وهو يروي تاريخ الحضارة في إيطاليا من مولد بترارك
حتى ممات تيشيان - من ١٣٠٤ إلى ١٥٧٦

ترجمة
محمد بدران

الجزء الثالث من المجلد الخامس

٢٠

تونس
بيروت

الكتاب الرابع

النهضة في رومة

١٣٧٨ - ١٥٢١

الباب الرابع عشر

أزمة الكنيسة

١٣٧٨ – ١٤٤٧

الفصل الأول

الانشقاق البابوى ١٣٧٨ – ١٤١٧

أعاد جريجورى الحادى عشر البـــابوية إلى رومة ؛ ولكن هل تستطيع البابوية البقاء فيها ؟ وكان المجمع الذى انعقد لاختيار من يخلفه مؤلفاً من ستة عشر كردنالا ، لم يكن منهم إيطاليين غير أربعة ، وقدم إليهم ولاة الأمور فى المدينة معروضاً يطلبون إليهم فيه أن يختاروا رجلا من أهل رومة ، فإن لم يكن فلا أقل من أن يكون إيطاليا ؛ وأرادوا أن يؤيدوا هذا المطلب فاجتمعت طائفة منهم خارج الفاتيكان ، وأنذرت المجتمعين بأنها ستقتل جميع الكرادلة غير الإيطاليين إذا لم ينتخب للبابوية أحد أبناء رومة ؛ وارتاع لذلك المجمع المقدس ، فأسرع باختيار بارتولميو پرنيانو Bartolommao Prignano (١٣٧٨) كبير أساقفة بارى وتسمى باسم إربان السادس ، ثم ولوا هاربين طلباً للنجاة ، ولكن رومة قبلت هذه الترضية[1] .

وحكم إربان السادس المدينة والكنيسة بنشاط استبدادى عنيف ، فعين هو أعضاء مجلس الشيوخ وكبار موظفى البلدية ، وأخضع العاصمة الثائرة المضطربة للطاعة والنظام ، وروع الكرادلة بأن أعلن عزمه على إصلاح

الكنيسة ، وأنه سيبدأ هذا الإصلاح من أعلى؛ وبعد أسبوعين من هذا الإعلان ألقى عظة عامة حضرها الكرادلة أنفسهم ندد فيها بفساد أخلاقهم وأخلاق كبار رجال الدين ، ولم يترك نقيصة إلا رماهم بها . وقد أمرهم فيها ألا يقبلوا معاشاً ، وأن يقوموا بجميع الأعمال التى تحال إلى المحكمة البابوية دون أجور أو هدايا أيا كان نوعها . ولما تذمر الكرادلة وأخذوا يتهامسون مستائين قال لهم : « إياكم وهذا اللغو » ، فلما احتج عليه الكردنال أرسينى Orsini قال له البابا إنه أبله لا يعقل ، ولما اعترض عليه كردنال ليموج Limoges هجم عليه إربان يريد أن يضربه . وسمعت القديسة كترين بهذا فبعثت إلى البابا الثائر تحذره وتقول له : « افعل ما تريد أن تفعله باعتدال . . . وحسن نية ، وقلب مسالم ، لأن التطرف يدمر ولا يبنى ؛ وإنى أستحلفك بحق الرب المصلوب أن تكبح بعض الشيء جماح هذه الحركات السريعة التى تدفعك إليها طبيعتك »(٢) . وأصم إربان أذنه عن سماع هذا النداء ، وأعلن عزمه على تعيين عدد من الكرادلة الإيطاليين يكفى لأن يجعل لإيطاليا أغلبية فى مجلس الكرادلة .

واجتمع الكرادلة الفرنسيون فى أنانيي ، ودبروا الثورة ، فلما كان اليوم التاسع من أغسطس عام ١٣٧٩ أصدروا منشوراً يعلنون فيه أن انتخاب إربان باطل لأنه تم تحت ضغط غوغاء رومة ، وانضم إليهم جميع الكرادلة الطليان ، وأعلن المجمع على بكرة أبيه فى يوم ٢٠ سبتمبر أن ربرت الجنيفى هو البابا الحق . واتخذ ربرت مقامه فى أفنيون وتسمى باسم كلمنت السابع ، أما إربان فقد تمسك بمنصبه الدينى الأعلى وظل مقيما فى رومة . وكان الانقسام البابوى الذى بدأ على هذه الصورة نتيجة أخرى من النتائج التى أسفر عنها قي... رلة القومية ، فقد كان فى واقع الأمر محاولة من جانب فرنسا للاحتفاظ بعون البابوية الذى لا غنى لها عنه فى حربها مع إنجلترا وفى كل نزاع مقبل مع ألمانيا أو إيطاليا . وحذت نابلى ، وأسبانيا ،

واسكتلندة حذو فرنسا ، ولكن إنجلترا ، وفلاندرز ، وألمانيا ، وبولندة ، وبوهيميا ، وهنغاريا ، والبرتغال رضيت بإربان ، وأضحت الكنيسة ألعوبة فى أيدى المعسكرين المتنافسين . وبلغ هذا الاضطراب غايته ، وأثار ضحك الإسلام الآخذ فى الانتشار وسخريته ؛ فقد كان نصف العالم المسيحى يرى أن النصف الآخر زنادقة مجدفون ، خارجون على الدين . ونددت القديسة كترين بكلمنت السابع وقالت إنه هو يهوذا ؛ وأطلق القديس ڤنسنت فرر St. Vincent Ferrer الاسم عينه على إربان السادس[٢] . وادعت كلتا الطائفتين أن القربان المقدس الذى تقدمه الطائفة الأخرى باطل ، وأن الأطفال الذين تعمدهم ، والتائبين الذين تتلقى اعترافهم ، والموتى الذين تمسحهم ، يبقون فى حالة من الخطيئة الأخلاقية ، ملقين فى الجحيم أو فى الأعراف إذا عاجلهم الموت . وبلغت العداوة بين الطائفتين درجة لا تعادلها إلا العداوة فى أشد الحروب مرارة وعنفاً ، ولما أن ائتمر كثيرون من كرادلة إربان الجدد عليه ليقتلوه لأنه عاجز شديد الخطورة أمر بالقبض على سبعة منهم ، وعذبهم ، ثم أعدمهم (١٣٨٥) .

ولم يحسم موته (١٣٨٩) هذا النزاع ، ذلك أن الأربعة عشر من الكرادلة الذين بقوا فى معسكره اختاروا پيرو توماتشيلى Piero Tomacelli لمنصب البابوية . وتسمى بعد اختياره بونيفاس التاسع ، وأطالت الأمم المنقسمة انفسام البابوية هذا ، ولما مات كلمنت السابع (١٣٩٤) رشح كرادلة أڤنيون پيرو ده لونا Piero de Luna ليكون هو بندكت الثالث عشر ، واقترح شارل السادس ملك فرنسا أن يستقيل البابوان كلاهما ، ولكن بندكت لم يقبل هذا الاقتراح . فلما كان عام ١٣٩٩ أعلن بونيفاس التاسع إقامة عيد عام فى السنة التالية ؛ وإذ كان يعلم أن كثيرين ممن ينتظر منهم أن يقدموا للاشتراك فى هذا العيد سيبقون فى أوطانهم بسبب ما يسود تلك الأيام من فوضى وأخطار ، خول وكلاءه فى

الأقاليم — أن يمنحوا كل ما يترتب على الحج للاحتفال بالعيد من غفران للذنوب وامتيازات لكل مسيحى يعترف بذنوبه ، ويتوب ، ثم يهب الكنيسة الرومانية المال الذى يتطلبه السفر إلى رومة : ولم يكن جباة هذه الأموال رجال دين ذوى ضمائر حية نزيهة ، فقد كان كثيرون منهم يعرضون الغفران دون أن يتلقوا اعترافا ما ؛ ولامهم بونيفاس على فعلتهم ، ولكنه كان يحس بأنه ما من أحد غيره يستطيع أن يفيد من المال الذى جمع بهذه الطريقة أحسن مما يفيده هو منه ، ولم « يرو بونيفاس تعطشه إلى الذهب »(٤) كما يقول أمين سره وسط ما كان يعانيه من آلام الحصوة المبرحة . ولما أراد بعض الجباة أن يختالوا بعض هذا المال أمر بتعذيبهم حتى يردوه إليه . ومزقت جماهير رومة الغاضبة غيرهم من الجباة لأنهم سمحوا لبعض المسيحيين أن ينالوا الغفران دون أن يأتوا إلى رومة لينفقوا فيها نقودهم(٥) . وبينا كانت الاحتفالات قائمةً على قدم وساق حرضت أسرة كولنا الشعب على أن يطالب بعودة الحكم الجمهورى ، فلما رفض بونيفاس الطلب ، قادت هذه الأسرة جيشا مؤلفا من ثمانية آلاف محارب هجمت بهم عليه ؛ وقاوم البابا الطاعن فى السن الحصار بعزيمة ماضية فى سانتا أنچيلو ، وانقلب الشعب على آل كولنا ، وتفرق جيش المتمردين ، وزج بواحد وثلاثين من زعماء الفتنة فى غيابة السجون . ووعد واحد منهم بالعفو عنه والإبقاء على حياته إذا رضى بأن يكون جلاد الباقين ؛ فرضى بهذا العمل وشنق الثلاثين الباقين ومنهم أبوه وأخوه(٦) .

وشبت نار الفتنة من جديد لما مات بونيفاس واختير إنوسنت السابع لمنصب البابوية (١٤٠٤) وفر إنوسنت إلى ڤتربو Viterbo وهجم الغوغاء من أهل رومة بقيادة چيوڤنى كولنا على قصر الفاتيكان ، وأعملوا فيه السلب والنهب ، ولطخوا شارات إنوسنت بالوحل ، وبعثروا السجلات

البابوية والقرارات التاريخية فى شوارع المدينة (١٤٠٥)[1] ثم تراءى للشعب أن رومة إذا خلت من البابوات حل بها الخراب والدمار ، فعقد صلحاً مع إنوسنت ، فعاد إلى رومة ظافرا ومات فيها بعد أيام قليلة من عودته (١٤٠٦) .

ودعا خلفه جريجورى الثانى عشر بندكت الثالث عشر إلى الاجتماع به فى مؤتمر . وعرض بندكت أن يستقيل إذا رضى جريجورى أن يقوم هو أيضاً بنفس العمل ، ولكن أهل جريجورى أشاروا عليه بألا يوافق على هذا الاقتراح ؛ فما كان من بعض الكرادلة إلا أن انسحبوا إلى پيزا ، ودعوا إلى عقد مجلس عام يختار بابا يرتضيه العالم المسيحى قاطبة . وحث ملك فرنسا مرة أخرى بندكت على أن يستقيل ، فلما رفض ذلك للمرة الثانية أعلنت فرنسا عدم ولائها له ، واتخذت موقف الحياد بين الطرفين المتنازعين . ولما تخلى كرادلة بندكت عنه فر إلى أسپانيا ، وانضم هؤلاء الكرادلة إلى الذين تخلوا عن جريجورى ، وأصدروا جميعاً دعوة إلى مؤتمر يعقد فى پيزا فى الخامس والعشرين من شهر مارس عام ١٤٠٩ .

الفصل الثانى

المجالس والبابوات ١٤٠٩ – ١٤١٨

كان الفلاسفة الثائرون قد وضعوا منذ قرن أو يكاد أساس « الحركة المجلسية » . ذلك أن وليم الأكامى William of Occam قد احتج على القول بأن الكنيسة هى رجال الدين ؛ وقال إن الكنيسة فى اعتقاده هى جماعة المؤمنين ، وإن الكل ذو سلطان على أى جزء من أجزائه ؛ وإن فى مقدور هذا الكل أن يعهد بسلطانه إلى مجلس عام يجب أن يكون له حق اختيار البابا ، أو تعذيره ، أو خلعه(٨) . وقال مرسليوس Marsilius أحد رجال الدين فى پدوا إن المجلس العام هو عقل العالم المسيحى مجتمعاً ؛ ومنذا الذى يجرؤ بمفرده على أن يضع عقله وحده فوق هذا العقل العالمى ؟ وأضاف أن هذا المجلس العام يجب ألا يؤلف من رجال الدين وحدهم ، بل يجب أن يضم إليهم غير رجال الدين يختارهم الشعب نفسه ؛ ويجب أن تكون مناقشاته متحررة من سيطرة البابوات(٩) . وطبق هنريخ ڤن لانجنشتين Heinrich von Langenstein أحد علماء اللاهوت فى جامعة باريس هـــذه الآراء على الانشقاق البابوى فى رسالة له عنوانها **مجالس السلام** (١٣٨١) : وقال هنريخ فى هذه الرسالة إنه مهما يكن من قوة المنطق فى حجج البابوات الذين يؤيدون بها سلطتهم العليا المستمدة من الله نفسه ، فإن أزمة قد نشأت لم يجد المنطق نفسه سبيلا للنجاة منها ، وليس ثمة وسيلة لإنقاذ الكنيسة من الفوضى التى أخذت تدك قواعدها إلا قيام سلطة غير البابوات ، تعلو على سلطان الكرادلة ، وليست هذه السلطة إلا سلطة المجلس العام . وقال چان جيرسن Jean Gerson مدير جامعة باريس فى موعظة له ألقاها فى ترسكون Tarascon أمام بندكت الثالث عشر نفسه إنه وقد عجزت قوة البابا وحده-

عن عقد مجلس عام يقضى على انشقاق البابوية ، فإن هذه القاعدة يجب إلغاؤها فى هذه الأزمة الحاضرة ، وأن يعقد مجلس عام بغير هذه الطريقة ، يعهد إليه بالسلطة التى يستطيع بها القضاء على هذه الأزمة(١٠) .

وعقد مجلس پيزا بالنظام الذى وضع له . فقد اجتمع فى الكنيسة الفخمة ستة وعشرون من الكرادلة ، وأربعة من البطارقة ، واثنا عشر من رؤساء الأساقفة ، وثمانون أسقفاً ، وسبعة وثمانون من رؤساء الأديرة ، ورؤساء جميع طوائف الرهبان الكبرى ، ومندبون عن جميع الجامعات الكبيرة ، وثلثمائة من رجال القانون الكنسى ، وسفراء من قبل جميع الحكومات الأوربية ما عدا حكومات هنغاريا ، ونابلى ، وأسبانيا ، واسكنديناوة ، واسكتلندة . وأعلن المجلس أنه كنسى (مشروع حسب قانون الكنيسة) ومسكونى عالمى (أى أنه يمثل العالم المسيحى على بكرة أبيه) — وهى دعوى أغفلت الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية والروسية . ودعا هذا المجلس بندكت وجريجورى إلى المثول أمامه ، فلما لم يلب كلاهما الدعوة ، وأعلن المجلس خلعهما ، ونادى بكردنال ميلان بابا باسم اسكندر الخامس (١٤٠٩) . وطلب هذا المجلس إلى البابا الجديد أن يدعو إلى الانعقاد مجلساً عاماً آخر قبل شهر مايو من عام ١٤١٢ ثم أعلن تأجيل جلساته .

وكان هذا المجلس يرجو أن يقضى على الانشقاق البابوى ، ولكن بندكت وجريجورى كلاهما رفضا أن يعترفا بسلطانه ، فإن النتيجة لم تسفر إلا عن وجود ثلاثة بابوات بدلا من اثنين . ولم يساعد موت اسكندر الخامس (١٤١٠) على إصلاح ذات البين ، فقد اختار كرادلته خلفاً له يوحنا الثالث والعشرين ، أسلس الرجال قياداً ، منذ أيام سلفه وسميه للجلوس على عرش البابوية . وكان بونيفاس التاسع قد عين بلدساری الكوسائى Baldassare of Cossa مندوباً بابوياً على بولونيا ؛ فحكمها ، كما يحكم رؤساء الجنـــد المغامرون ، حكماً مطلقاً لم يراع فيه ذمة

ولا ضميراً ، فرض فيه الضرائب على كل شىء ، بما فى ذلك العهر ، والميسر ، والربا ، ويتهمه أمين سره الخاص بأنه أغوى مائتى عذراء ، وامرأة متزوجة ، وأرملة ، وراهبة(١١) . ولكنه كان ذا مواهب عالية فى شئون السياسة والحرب ، جمع أموالا طائلة ، وقاد بنفسه قوة من الجند تدين له هو نفسه بالولاء . ولعله كان يستطيع أن يستولى على الولايات البابوية من جريجورى . وأن يرغم جريجورى نفسه على الخضوع لسلطانه خضوع المفلس الذليل .

وتباطأ يوحنا الثالث والعشرون فى دعوة المجلس العام إلى الانعقاد فى پيزا أكثر ما يستطيع . ولكن سجسمند أصبح فى عام ١٤١١ ملكاً على الرومان والرئيس غير المتوج ، ولكنه الرئيس المعترف به ، للدولة الرومانية المقدسة ، وقد أرغم يوحنا على أن يدعو مجلساً عاماً إلى الانعقاد ، واختار مدينة كنستانس مكاناً لانعقاده لتحررها من الإرهاب الإيطالى وقابليتها للتأثر بالنفوذ الإمبراطورى . واتخذ سجسمند الكنيسة سنداً له ودعامة كما فعل قسطنطين آخر من قبله ، فدعا جميع الأحبار ، والأمراء ، واللوردة ، ورجال القانون فى العالم المسيحى إلى حضور المؤتمر . وأجاب الدعوة كل من كان منهم فى أوربا عدا البابوات الثلاثة وأتباعهم . وبلغ عدد من لبوا الدعوة وجاءوا حين سمحت لهم بذلك مراكزهم العالية ، من الكثرة مبلغاً اقتضى جمعهم نصف عام . ولما رضى يوحنا الثالث والعشرون آخر الأمر أن يفتتح المجلس فى اليوم الخامس من نوفمبر عام ١٤١٤ ، لم يكن قد قدم إلا جزء صغير من البطارقة الثلاثة ؛ والتسعة والعشرين كردنالا ، والثلاثة والثلاثين من رؤساء الأساقفة ، والمائة والخمسين أسقفاً ، والمائة من رؤساء الأديرة ، والثلثمائة من علماء اللاهوت ، والأربعين من مندوبى الجامعات ، والستة والعشرين من الأمراء ، والمائة والأربعين من النبلاء ، والأربعة الآلاف من رجال الدين ، نقول إنه لم يكن قد قدم إلا عدد صغير من هؤلاء . ولو أنهم

حضروا جميعاً لكان هذا المجلس أكبر المجالس فى التاريخ المسيحى ، ولكان أعظمها شأناً بعد مجلس نيقية (٣٢٥) الذى قرر عقيدة الكنيسة المسيحية : وبينا كان سكان كنستانس فى الأوقات العادية حوالى ستة آلاف نسمة ، فقد أفلحت وقتئذ فى أن تأوى وتطعم خمسة آلاف مندوب حضروا المجلس وأن تمدهم فوق ذلك بحاجاتهم ، وبجيش من الخدم ، والأمناء ، والأطباء ، والبائعين الجائلين ، والدجالين ، والشعراء المداحين ، وبألف وخمسمائة من العاهرات(١٢) .

وما كاد المجلس يضع جدول أعماله حتى فوجئ بانسحاب البابا الذى دعاه إلى الانعقاد انسحاباً أشبه ما يكون بالأعمال المسرحية . ذلك أن البابا يوحنا الثالث والعشرين قد هاله أن يعلم أن أعداءه كانوا يتأهبون لأن يعرضوا على المجلس سجلا يحوى تاريخ حياته ، وجرائمه ، وتبذله . وأشارت عليه إحدى اللجان بأنه يستطيع النجاة من هذه الفضيحة إذا وافق على الانضمام إلى جريجورى وبندكت وأن ينزل الثلاثة عن عرش البابوية فى وقت واحد(١٣) ، ووافق يوحنا على ذلك ، ولكنه فر على حين غفلة من كنستانس متخفياً فى زى سائس (٢٠ مارس عام ١٤١٥) ووجد له ملجأ فى قصر فى شافهوزن مع فردريك أرشدوق النمسا وعدو سجسمند . ثم أعلن فى التاسع والعشرين من شهر مارس أن جميع الوعود التى قطعها على نفسه فى مدينة كنستانس قد أرغم عليها إرغاماً بالقوة الجبرية ، رأنها ليست لها من القوة ما يلزمه بالوفاء بها . وفى اليوم السادس من إبريل أصدر المجلس قراراً مقدساً وصفه أحد المؤرخين بأنه « أشد الوثائق الرسمية ثورية فى تاريخ العالم »(١٤) :

« إن مجلس كنستانس المقدس ، الذى هو مجلس عام ، والمنعقد انعقاداً قانونياً فى الروح المقدس ، لحمد الله ، وللقضاء على الانشقاق القائم الآن ولتوحيد كنيسة الله وإصلاحها بما ذلك رأسها وأعضاؤها — إن هذا المجلس يأمر ؛ ويعلن ، ويقرر ما يأتى : أولا ، يعلن أن هذا المجلس

المقدس . . . يمثل الكنيسة المجاهدة ، ويستمد معونته من المسيح رأساً ؛ وعلى جميع الناس مهما تكن طبقتهم ومنزلتهم بما فيهم البابوات أيضاً ، أن يطيعوا هذا المجلس فى كل ما له صلة بشئون الدين ، وفى القضاء على هذا الانشقاق ، ولإصلاح الكنيسة إصلاحاً شاملا فى رياستها وأعضائها . وهو يعلن كذلك أن أى إنسان مهما تكن مرتبته ، أو صفته ، أو منزلته بما فى ذلك البابا أيضاً ، يأبى أن يطيع الأوامر ، والقوانين ، والفروض ، والقواعد التى يقرها هذا المجلس المقدس، أو أى مجلس مقدس آخر ينعقد انعقاداً صحيحاً بقصد القضاء على الانشقاق أو إصلاح الكنيسة ، يضع نفسه تحت طائلة العقاب الحق . . . وستتخذ إذا اقتضى الأمر وسائل أخرى للاستعانة بها فى تطبيق العدالة(١٥) » ؛

واحتج كثيرون من الكرادلة على هذا القرار ، فقد خشوا أن يكون فيه قضاء على حق مجتمع الكرادلة فى انتخاب البابا ؛ ولكن المجلس تغلب على معارضتهم ، ولم يكن لهم بعد ذلك إلا شأن صغير فى نشاطه .

وأوفد المجلس وقتئذ لجنة إلى يوحنا الثالث والعشرين تدعوه إلى النزول عن عرش البابوية ، فلما لم تتلق منه جواباً صريحاً قيلت (فى ٢٥ مايو) ما عرض عليها من التهم الأربع والخمسين التى وجهت إليه والتى تنص على أنه كافر ، كاذب ، متجر بالمقدسات والمناصب الكهنوتية ، خائن ، غادر ، فاسق ، لص(١٦) ؛ وكانت هناك ست عشرة تهمة أخرى استبعدت لشدة قسوتها(١٧) . وفى اليوم التاسع والعشرين من مايو قرر المجلس خلع يوحنا الثالث والعشرين ، وقبل هو القرار بعد أن تحطمت آخر الأمر جميع آماله . وأمر سجسمند بأن يُسجن فى قلعة هيدلبرج طوال فترة انعقاد المجلس ، وأفرج عنه فى عام ١٤١٨ ، ووجد فى شيخوخته ملجأ ومقاماً عند كوزيمو ده ميديتشى .

واحتفل المجلس بانتصاره باستعراض طاف جميع أنحاء مدينة كنستانس ،

فلما عاد إلى العمل وجد نفسه فى مأزق حرج ؛ ذلك أنه إذا اختار بابا آخر عاد إلى ماكان فى العالم المسيحى من انقسام ثلاثى ، لأن كثيراً من أقاليمه كانت لا تزال تطيع بندكت أو جريجورى . وأنقذ جريجورى المجلس من ورطته بعمل دل على دهائه وشهامته معا : فقد وافق على أن يستقيل بشرط أن يسمح له بأن يدعو المجلس مرة أخرى ويخلع عليه الصفة الشرعيـــه بما له من سلطة بابوية . ودعى المجلس إلى الانعقاد بهذه الصفة الجديدة ، وقبل استقالة جريجورى فى الرابع من شهر يوليه سنة ١٤١٥ ؛ وأيد صحة من عينهم فى مناصبهم . واختاره حاكماً من قبل للبابا على أنكونا حيث عاش فى هدوء طيلة السنتين الباقيتين من حياته .

أما بندكت فقد أصر على المقاومة ، ولكن كرادلته تخلوا عنه وتصالحوا مع المجلس ، ولما حل اليوم السادس والعشرون من يولية خلعه المجلس ، فآوى إلى القصر الحصين الذى تقيم فيه أسرته فى بلنسية ، حيث مات فى سن التسعين ، وهو لا يزال يعـــد نفسه بابا بحق . وأصدر المجلس فى شهر اكتوبر قراراً يحتم دعوة مجلس عام آخر إلى الانعقاد فى خلال خمس سنين ؛ وفى اليوم السابع عشر من نوفمبر اختارت لجنة المجلس الانتخابية الكردنال أودنى كولنا Oddone Colonna لمنصب البابوية ، وتسمى باسم البابا مارتن الخامس Martin V ؛ وارتضاه العالم المسيحى بأجمعه ، وبذلك انقضى عهد الانشقاق الأعظم بعد فوضى دامت تسعاً وثلاثين سنة .

وهكذا وصل المجلس إلى غرضه الأول ؛ ولكن نجاحه فى هذه النقطة حال بينه وبين تحقيق غرضه الآخر وهو إصلاح المسيحية . ذلك أنه لما جلس مارتن الخامس على عرش البابوية استمسك بكل ما لها من سلطان وامتيازات ، فأغضب بذلك سجسمند الذى هو الرئيس الأعلى للمجلس ، ثم لجأ إلى المجاملة والدهاء فأخذ يخاطب كل طائفة من الجماعات القومية الممثلة فى المجلس ويفاوضها فى عقد معاهدة معها على حدة خاصة بإصلاح الكنيسة

وعمل على إثارة المنافسة بين كل طائفة والأخرى حتى أقنع كل واحدة منها بقبول أقل قدر من الإصلاح ، صاغه فى عبارة عامة يستطيع كل حزب أن يفسرها تفسيراً يدعى فيه أنه هو الفائز ، وأنه صاحب الفضل فى كل إصلاح. واستسلم المجلس له لأنه مل النزاع ، فقد ظل يكدح ثلاث سنين ، حن أعضاؤه بعدها إلى أوطانهم ، وشعروا بأن مجلساً مقدساً يعقد فيما بعد يستطيع أن يحل مشكلة الإصلاح بتفاصيل أوفى وأكثر دقة من هذا المجلس .

وفى الثانى والعشرين من شهر إبريل عام ١٤١٨ أعلن المجلس فض جلساته .

الفصل الثالث

انتصار البابوية : ١٤١٨ – ١٤٤٧

لم يستطع مارتن الخامس أن يعود إلى رومة بعد انتخابه مباشرة وإن كان هو من أهل رومة . ذلك أن الطرق الموصلة إليهـــا كانت فى قبضة براتشيو دا منتونى Braccic da Montone الأفاق المغامر ، ولهذا رأى مارتن أن بقاءه فى چنيف ؛ ثم فى مانتوا ، وفلورنس آمن له وأسلم . ولما وصل أخيراً إلى رومة (١٤٢٠) روعته حال المدينة ، وما حاق بمبانيها من خراب وبأهلها من بؤس وشقاء ، فقد كانت عاصمة العالم المسيحى أقل بلاد أوربا حضارة .

وإذا كان مارتن قد جرى على السنة السيئة التى جرى عليها أسلافه فعين فى المناصب ذات المرتب الضخم والسلطان الكبير أقاربه من آل كولنا ، فما كان ذلك إلا ليقوى أسرته ليضمن لنفسه السلامة فى قصر الفاتيكان : ولم يكن لديه جيش ، ولكن الولايات البابوية كانت تحيط بها من كل جانب جيوش نابلى ، وفلورنس ، والبندقية ، وميلان . وكانت هذه الولايات قد وقع معظمها مرة أخرى فى أيدى طائفة من الطغاة الصغار ، يسمون أنفسهم نواب البابا ولكنهم كادوا فى أثناء الانشقاق البابوى يكونون سادة مستقلين فى ولاياتهم . وقد ظل رجال الدين فى لمباردى قروناً طوالا يناصبون أساقفة رومة العداء . وكان فيما وراء جبال الألب عالم مسيحى مضطرب أضاعت البابوية فيه معظم ما كان لها من احترام ، وكان يأبى أن يمدها بشىء من العون المالى .

وواجه مارتن هذه الصعاب كلها وتغلب عليها بشجاعته وقوة عزيمته ،

فقد اعتمد بعض المال لبناء أجزاء من عاصمته . وإن كان قد ورث خزانة تكاد تكون خاوية ، وأفلح بما اتخذه من إجراءات قوية فى طرد قطاع الطرق من رومة والطرق المؤدية إليها ، وهدم حصناً للصوص فى منتيليبو Monteipo ، وأمر بقطع رءوس زعمائهم(١٥) ، وأعاد النظام إلى رومة ، وجمع فى كتاب واحد قوانينها البلدية ، وعين رجلا من أوائل الكتاب الإنسانيين هو بجيو برتشيوليني poggioi Barcciolin أميناً لسره ، وعهد إلى چنتيل دا فبريانو ، وأنطونيو پيزنيلو ، ومساتشيو أن ينقشوا المظلمات التى فى كنيستى سانتا ماريا مجيورى والقديس يوحنا فى اللاتران ؛ واختار رجالا من ذوى المواهب والأخلاق الكريمة أمثال جوليانو تشيزاريني Guiliano Cesarini ، ولويس ألماند Louis Allemand ، ودمينيكو كبرانيكا Domenico Capranica وپرسپيرو كولنا prospero Colonna أعضاء فى مجمع الكرادلة . وأعاد تنظيم أداة الحكم القانونية حتى تؤدى مهمتها على أحسن وجه ، ولكنه لم يجد طريقة يحصل بها على ما يلزمه من المال إلا بيع المناصب والخدمات الدينية . ولما كانت الكنيسة قد عاشت قرناً كاملا بغير إصلاح ، ولكنها لا تستطيع البقاء أسبوعاً واحداً بغير مال ؛ فقد حكم مارتن بأن المال ألزم للكنيسة من الإصلاح . ومن أجل هذا تذرع بمرسوم كنستانس فدعا مجلساً عاماً ينعقد فى باڤيا عام ١٤٢٣ . ولم يلب الدعوة إلى هذا المجلس إلا عدد قليل . وحتم انتشار الطاعون نقله إلى سينا ، ولما عرض أن تكون له السلطة المطلقة أمره مارتن بأن ينفض . وأطاع الأساقفة أمره لخوفهم أن يفقدوا كراسيهم . وأراد مارتن أن يترضى نزعة الإصلاح فأصدر فى عام ١٤٢٢ قراراً بابوياً . فصل فيه بعض التغيرات الرائعة فى إجراءات أداة الحكم البابوية وطريقة تمويلها ؛ ولكن قامت فى سبيل ذلك الإصلاح مئات من العقبات والاعتراضات . وما لبثت هذه الاقتراحات أن عفا عليها الزمان وجر عليها النسيان ذيوله . وفى عام ١٤٣٠

يبعث مندوب ألمانى فى رومة إلى أميره برسالة تكاد تكون نذيراً بالإصلاح الدينى الذى جاء فيما بعد :

« أصبح الشره صاحب السلطان الأعلى فى البلاط البابوى ، وهو يبتكر فى كل يوم لنفسه أساليب جديدة . . . لابتزاز المال من ألمانيا بدعوى أداء أجور رجال الدين . وهذا هو سبب الأصوات التى ترتفع بالتذمر والألم . . . وستثار كذلك أسئلة خاصة بالبابوية ، وإلا فإن الناس سينفضون يدهم آخر الأمر من طاعة البابا فرارا من هذا الابتزاز الظالم للأموال ؛ واعتقادى أن هذا المسلك الأخير سترتضيه كثير من البلاد[١٩] .

وواجه البابا الذى خلف مارتن ما تجمع لدى البابوية من مشاكل مواجهة الراهب الفرنسيسى التقى الخاشع الذى لم يعد نفسه لتصريف الشئون السياسة ؛ ذلك أن البابوية كانت حكومة أكثر مما كانت دينا ؛ وكان لابد أن يكون البابوات رجال حكم ، ومحاربين فى بعض الأحيان ، وقلما كان فى مقدورهم أن يكونوا من أولياء الله الصالحين . نعم إن يوچنيوس الرابع كان من هؤلاء الأولياء فى بعض الأحيان ، وإنه كان عنيداً ، صلب القناة لا يلين ، وإن داء الرثية الذى كان يلازمه ويسبب له آلاماً مبرحة فى يديه لا تكاد تفارقه قط ، مضافاً إلى متاعبه الجمة ، قد جعله ضجراً ملولا ، محبا للعزلة ، منطوياً على نفسه . ولكنه كان يعيش معيشة النساك ، مقلا من الطعام ، لا يشرب غير الماء ، قليل النوم ، مجداً كثير العمل ، حريصاً على أداء واجباته الدينية بإخلاص وضمير حى ، لا يحمل الحقد على أعدائه ، جواداً سخياً بماله ، لايحتفظ بشىء لنفسه ، بلغ من تواضعه أنه كان لا يرفع عينيه عن الأرض[٢٠] . ومع هذا كله فقلما نجد من البابوات من كان له من الأعداء ما كان لهذا البابا .

وكان أول هؤلاء الأعداء هم الكرادلة الذين انتخبوه . فقد أرادوا أن يتقاضوا ثمن أصواتهم ، وأن يحموا أنفسهم من أن يحكمهم رجل بمفرده

كما كان يحكمهم مارتن ، فأقنعوه بأن يوقع مرسوماً Capitula ومعناها الحرفي عناوين — يعدهم فيه بأن يطلق لهم حرية الكلام ، ويؤمنهم في مناصبهم ، وأن يجعل لهم السيطرة على نصف إيرادهم ، وأن يشاورهم في جميع الشئون الهامة . وأصبحت هذه « الامتيازات » سنة متبعة وسابقة جرى بها العمل في الانتخابات البابوية طوال عصر النهضة . يضاف إلى هذا أن يوجنيوس جعل آل كولنا أعداء له أقوياء . فقد اعتقد أن مارتن أقطع هذه الأسرة كثيراً من أملاك الكنيسة ، فأمر بأن ترد إليها أجزاء كثيرة من هذه الأملاك ، وأمر بتعذيب أمين مارتن السابق تعذيباً كاد يفضي إلى موته لكي ينتزع منه معلومات عن هذا الموضوع . وشن آل كولنا الحرب على البابا ، ولكنه هزمهم بقوة الجند الذين أرسلوا إليه من مدينتي فلورنس والبندقية ، غير أنه أثار بعمله هذا عداء رومة نفسها . واجتمع بمدينة بازل في هذه الأثناء المجلس الذي دعا إليه مارتن ، وكان اجتماعه في السنة الأولى من عهد البابا الجديد (١٤٣١) ؛ واقترح مرة أخرى تأييد المجالس الكنسية العامة على البابوات . فما كان من يوجنيوس إلا أن أمره بأن ينفض ؛ ولكنه لم يطع أمره ، وطلب إليه أن يمثل أمامه ، وبعث بجند من ميلان يهاجمونه في رومة . وانتهز آل كولنا هذه الفرصة ليثأروا لأنفسهم منه ، فدبروا ثورة في المدينة ، وأقاموا حكومة جمهورية (١٤٣٤) . وفر يوجنيوس في قارب صغير سار به نحو مصب التيبر ، بينا كان العامة يرشقونه بالسهام ، والحراب ، والحجارة(٢١) ، واتخذ له ملجأ في فلورنس ، ثم في بولونيا ، وظل هو وحكومته منفيين عن رومة تسع سنين .

وكانت الكثرة الغالبة من المندوبين الذين حضروا مجلس بازل من الفرنسيين . وكان غرضهم ، كما قال أسقف تور في صراحة ، إما أن ينتزعوا الكرسي الرسولي من الإيطاليين ، وإما أن يجردوه من سلطانه بحيث لا يهمهم بعدئذ أين يكون مقره » . وعملا بهذه القاعدة استولى المجلس على

امتيازات البابوية واحداً بعد آخر : فأصدر هو صكوك الغفران ؛ ومنح الإعفاءات من الفروض الدينية ، وعين الموظفين الدينيين ، وطلب أن تؤدى له هو لا للبابا باكورة مرتبات رجال الدين . وأصدر يوچنيوس قراراً آخر بحل المجلس ، فرد عليه بأن أعلن خلعه هو (١٤٣٩) ، واختار أمديوس الثامن من ساڤوى بابا فى مكانه باسم فليكس الخامس ؛ وبهذا تجدد الانشقاق فى البابوية مرة أخرى . وأراد شارل السابع ملك فرنسا أن يتم هزيمة يوچنيوس البادية للعيان ، فعقد في بورج (١٤٣٨) جمعية من كبار رجال الدين ، والأمراء ، ورجال القانون ، كلهم من الفرنسيين ، وأعلنت هذه الجمعية سيادة المجالس على البابوات ، وأصدرت قرار بورج التنظيمى الذى ينص على أن المناصب الكهنوتية يجب أن تملأ من ذلك الحين بمن تنتخبهم جماعات الرهبات أو القساوسة ، ولكن من حق الملك أن يصدر « توصيات » . وحرم استئناف الأحكام إلى المجلس البابوى الأعلى إلا بعد أن تستنفد جميع الاحتمالات القضائية فى فرنسا ؛ ومنع جمع بواكير مرتبات القساوسة للبابا(٢٢) . وبذلك أوجد هذا التنظيم فى واقع الأمر كنيسة فرنسية مستقلة رئيسها ملك فرنسا نفسه . واتخذ مجلس عقد فى مينز بعد عام من ذلك الوقت قرارات مماثلة لهذه أنشئت بمقتضاها كنيسة قومية فى ألمانيا ؛ وكانت كنيسة بوهيميا قد انفصلت عن البابوية أثناء الثورة الهوسية Husite ؛ ووصف كبير أساقفة براج البابا بأنه « وحش سفر الرؤيا »(٢٣) . ولاح أن صرح الكنيسة كله قد تحطم وأصبح لا يرجى شعب صدعه ، وأن الإصلاح القومى للكنيسة قد توطدت دعائمه قبل لوثر بمائة عام .

وكان الأتراك هم الذين أنقذوا يوچنيوس . ذلك أنه لما اقترب الأتراك العثمانيون من القسطنطينية قرر البيزنطيون أن مدينتهم خليقة بأن يكون فيها قداس رومانى ، وأن عودة الاتحاد بين المسيحية اليونانية والرومانية تمهيد لا بد منه للحصول على معونة عسكرية من الغرب . وبناء على هذا بعث الإمبراطور

يوحنا الثامن ببعثة إلى مارتن الخامس (١٤٣١) تعرض عليه اجتماع مجلس من رجال الكنيستين . وبعث مجلس بازل بمندوبين إلى يوحنا (١٤٣٣) يقولون له إن المجلس أعلى سلطة من البابا ، وإنه تحت حماية الإمبراطور سجسمند ، وإنه سيرسل المال والجند للدفاع عن القسطنطينية إذا ما تعاملت الكنيسة اليونانية مع المجلس لا مع البابا . وأرسل سجسمند وفداً من عنده يعرض معونته بشرط أن يعرض الاقتراح الخاص باتحاد الكنيستين على مجلس جديد يدعوه هو نفسه إلى الانعقاد فى فيرارا . وقرر يوحنا أن يظاهر يوجنيوس ، واستدعى البابا إلى فيرارا من ثبتوا على ولائهم له من رجال الدين ؛ وغادر كثيرون من كبار الأحبار ، ومنهم شيراريني ونقولاس الكوزائى بازل وجاءوا إلى فيرارا ، لأنهم شعروا أن أهم ما فى الأمر هو مفاوضة اليونان ؛ وطالت جلسات مجلس بازل ، ولكنها كانت مفعمة بالغضب المتزايد ، وأخذت مكانته تزداد انحطاطاً يوماً بعد يوم .

وأثار مشاعر أوربا كلها ما ترامى إليها من الأنباء عن عودة الوحدة إلى العالم المسيحى بعد انقسامه بين الكنيستين اليونانية والرومانية منذ عام ١٠٥٤ . وفى الثامن من فبراير عام ١٤٣٨ قدم إلى البندقية ، التى كانت لا تزال مدينة بيزنطية إلى حدما ، الإمبراطور البيزنطى ، والبطريق يوسف بطريق القسطنطينية ، وسبعة عشر من رؤساء الأساقفة اليونان ، وعدد كبير من أساقفة الكنيسة اليونانية ، والرهبان والعلماء . واستقبلهم يوجينيوس فى فيرارا بأبهة لا نشك فى أنها لم تكن لها قيمة كبيرة فى نظر اليونان الذين اعتادوا الاحتفالات الفخمة فى بلادهم . ولما افتتح المجلس جلساته اختيرت عدة لجان لإزالة ما بين الكنيستين من خلاف على حقوق البابا فى الرياسة ، وعلى استعمال الخبز الفطير ، وطبيعة الآلام التى تعانى فى المطهر ، وعلى انتقال الروح القدس من الأب والابن أو إليه . وظل العلماء ثمانية أشهر يجادلون فى هذه المسائل ، ولكنهم لم يصلوا فيها إلى اتفاق . وانتشر الطاعون فى بلدة

فبرارا فى هذه الأثناء ، ودعا كوزيمو ده ميديتشى المجلس أن ينتقل إلى فلورنس ، على أن يستضيفه هو وأصدقاؤه . وتم هذا الانتقال بتلك الصورة ؛ ويؤرخ بعضهم بداية النهضة الإيطالية بدخول العلماء اليونان إلى فلورنس فى ذلك الوقت (١٤٣٩) . وهنا تم الاتفاق على أن الصيغة التى يقبلها اليونان — وهى أن « الروح القدس يصدر من الأب عن طريق الابن[٢٢] (ex Patre per filium Procedit) تعنى بالضبط ما تعنيه الصيغة الرومانية وهى أنه « يصدر من الأب والابن » ex Patre Filioque procedit ؛ ولم يستهل شهر يونية سنة ١٤٣٩ حتى تم الاتفاق كذلك على طبيعة آلام المطهر . أما حقوق البابا فى الرياسة فقد أثارت نقاشاً حاراً ، حتى لقد أنذر الإمبراطور اليونانى أن يفض المجلس . غير أن بيساريون Bessaarion كبير أساقفة نيقية ، وهو بطبيعته رجل مسالم يسعى إلى الصلح ، استطاع التوفيق بين الطرفين إذ عثر على صيغة تعترف بسلطة البابا العامة ، ولكنها تحتفظ بما كان للكنائس الشرقية وقتئذ من حقوق وامتيازات . وقبلت هذه الصيغة ، ولما حل اليوم السادس من شهر يولية عام ١٤٣٩ قرأ بيساريون باللغة اليونانية كما قرأ سيزارينى باللغة اللاتينية فى الكتدرائية الكبرى التى أقام فيها بروتياسكو منذ ثلاث سنين لا أكثر قبتها الفخمة ، نقول قرأ هذا وذاك المرسوم الذى وحدت به الكنيستان ، وقبل الحبران كلاهما الآخر ، وخر جميع أعضاء المجلس وعلى رأسهم الإمبراطور ركعاً أمام يوجنيوس الذى كان يبدو من وقت قريب إنساناً طريداً مرذولا .

لكن ابتهاج المسيحية كان قصير الأجل . ذلك أنه لما عاد الإمبراطور اليونانى وحاشيته إلى القسطنطينية ، قوبلوا بالإهانات والشتائم ، فقد رفض رجال الدين والشعب الخضوع إلى رومة . وحافظ يوجنيوس على نصيبه فى هذا الاتفاق ، وأرسل الكردنال سيزارينى إلى بلاد المجر على رأس جيش للانضمام إلى قوات لادسلاس Ladislas وهنيادى Hunyadi ،

وانتصرت هذه القوات عند نيش Nish على الأتراك ودخلت مدينة صوفيا ظافرة فى مساء يوم عيد الميلاد عام ١٤٤٣ ، ثم بدد شملها مراد الثانى فى وارنه عام ١٤٤٤ ، وسيطر الحزب المعارض للاتحاد فى القسطنطينية على الموقف ، ولم ير البطريق جريجورى الذى أيد هذا الاتحاد بدأ من الفرار إلى إيطاليا . واستطاع جريجورى بعدئذ أن يشق طريقه بالقوة عائداً إلى صوفيا : ونيها قرأ مرسوم الاتحاد فى عام ١٤٥٢ ؛ ولكن الشعب ظل من ذلك الحين يتجنب الاتصال بالكنيسة الكبرى ؛ ولعن رجال الدين المعارضون للاتحاد كل من يؤيدونه ، ورفضوا أن يغفروا ذنوب كل من حضروا قراءة المرسوم ، وأهابوا بالمرضى أن يموتوا دون تناول القداس بدل أن يتناولوه من يد قس « اتحادى »[٢٤] . ورفض بطارقة الإسكندرية ، وأنطاكية ، وبيت المقدس قرارات « المجلس الناهب » الذى عقد فى فيرارا[٢٥] . ويسر محمد الثانى الأمر باتخاذ القسطنطينية عاصمة للدولة التركية (١٤٥٣) ، ومنح المسيحيين الحرية التامة فى العبادة ، وعين چناديوس Gennadius ، وهو من ألد أعداء الوحدة بطريقاً فى القسطنطينية .

وعاد يوچنيوس إلى رومة فى عام ١٤٤٣ ؛ بعد أن قضى مبعوثه القائد والكردنال ڤيتليسكى Vitelleschi على الجمهورية المضطربة ، وعلى أسرة كولنا المشاكسة بوحشية لا تضارعها وحشية الوندال أو القوط . وكان مقام البابا فى فلورنس قد علمه تطور الآداب الإنسانية والفنون فى عهد كوزيموده ميديتشى ، وكان العلماء اليونان الذين شهدوا مؤتمر فيرارا وفلورنس قد أثاروا فيه الاهتمام بحفظ المخطوطات القديمة التى قد يضيعها أو يتلفها سقوط القسطنطينية المرتقب . لهذا ضم إلى أمنائه بجيو ، وفلاڤيو بيوندو ، وليوناردو برونى ، وغيرهم من الكتاب الإنسانيين الذين يستطيعون مفاوضة اليونان باللغة اليونانية . وجاء بالراهب أنچيلكو إلى رومة ، وعهد إليه نقش المظلات فى معبد القداس بقصر الفاتيكان . وكان يوچنيوس

حجب بالأبواب البرنزية الكبرى التى صبها چيبرتى Ghiberti لمكان التعميد فى كنيسة فلورنس ، ولهذا عهد إلى ڤيلاريتى Filaarte أن يصب أبواباً مثلها لكنيسة القديس بطرس القديمة (١٤٣٣) . ومن الأمور ذات البال ، أن هذا المثال لم يضع على أبواب أشهر الكنائس فى العالم المسيحى اللاتينى تماثيل المسيح ، ومريم ، والرسل فحسب ، بل وضع معها أيضاً صور المريخ ، ورومة ، وهيرون ، وليياندر ، وچوپتر ، وجنيميد ، ولم يكتف بهذا بل أضاف إليها ليدا والبجعة وإن كان عمله هذا لم يثر حتى فى ذلك الوقت أى تعليق . وهكذا جاء يوچنيوس فى ساعة انتصاره على مجلس بازل بالنهضة الوثنية إلى رومة .

الباب الخامس عشر

النهضة تستحوذ على إيطاليا

١٤٤٧ – ١٤٩٢

الفصل الأول

قصبة العـــالم

لما اعتلى البابا نقولاس الخامس أقدم عرش فى العالم(*) ، لم يكن حجم روما يبلغ معشار حجم المدينة التى كانت تضمها أسوار أورليان (٢٧٠ – ٢٧٥ م) ؛ وكانت أضيق رقعة وأقل سكاناً (٨٠,٠٠٠ نسمة)[1] من البندقية ، وفلورنس ، وميلان . ولم يكن لها مورد لماء الشرب ثابت يعتمد عليه بعد أن دمر البرابرة سقاياتها الكبرى ، نعم إنه قد بقى لها بعض السقايات الصغيرة ، وبعض العيون ، وكثير من الأحواض والآبار ، ولكن كثيرين من السكان كانوا يستقون من ماء التيبر[2] . وكانت كثرة السكان تعيش فى السهول غير الصحية ، معرضة لفيضان النهر وعدوى الملاريا تتسرب إليها من المناقع المجاورة . وكان تل الكپتولين يسمى الآن منتى كبرينو Monte Caprino لأن المعز (Capri) كانت ترعى على سفوحه . وكان تل البلاتين ملجأ ريفياً ، يكاد يخلو من السكان ، وأصبحت القصور القديمة التى اشتق اسمه منها محاجر متربة ؛ وكانت البرجو ڤاتيكان Borgo

---

(*) هذا لأننا نعتقد أن القصة القائلة بأن الأسرة الإمبراطورية اليابانية قد تأسست فى عام ٦٦٠ ق . م خرافة لا تستند إلى دليل .

Vatican (مدينة الفاتيكان) ضاحية صغيرة على الضفة الأخرى من النهر مقابلة لوسط المدينة مكدسة حول ضريح القديس بطرس المتهدم . وكانت بعض الكنائس مثل كنيسة سانتا ماريا مجيورى (القديسة مريم الكبرى) أو سانتا تشيتشيليا جميلة من داخلها ولكنها بسيطة من خارجها ؛ ولم يكن فى رومة كنيسة تضارع كنيسة فلورنس أو ميلان ؛ أو دير يضارع التشيرتوزا دى پاڤيا Certosa di pavia ، كما لم يكن فيها قاعة عامة تسمو إلى مكانة الپلادساڤيتشيو (قصر ڤيتشيو) أو الكاستيلوا اسفورديسكو Castello Sforzesco أو حتى الپلاتسا پيليكو (القصر العام) فى سينا . وكانت شوارع المدينة كلها تقريباً أزقة موحلة أو متربة ؛ وقليل منها مرصوف بالحصباء ، ولا يضاء فيها أثناء الليل إلا عدد قليل ؛ ولم تكن تكنس إلا فى أخص المناسبات ، كعيد عام أو دخول شخصية جد خطيرة دخولا رسمياً .

وكان عماد المدينة من الناحية الاقتصادية يجىء بعضه من المراعى وإنتاج الصوف ، والماشية التى ترعى فى الحقول القريبة منها ، ولكن الجزء الأكبر منه يجىء من إيراد الكنيسة . وكانت الزراعة قليلة أو منعدمة ، والتجارة أقل من القليل ، أما الصناعة والتجارة الخارجية فقد كادتا تختفيان من الوجود لافتقارهما إلى الحماية وتعرضهما لاعتداء اللصوص وقطاع الطريق . ولم تكد توجد فى المدينة طبقة وسطى — فلم يكن فيها إلا الأشراف ، ورجال الدين ، والعامة — وكان الأشراف يمتلكون كل ما لم يقع فى حوزة الكنيسة من الأراضى إلا القليل الذى لا يستحق الذكر ، وكانوا يستغلون الفلاحين بلا وازع من رحمة ولا ضمير خليقين بالمسيحى الصحيح . وكانوا يقضون على العصيان بقسوة ، ويتقاتلون فيما بينهم على أيدى الأوشاب السفاحين الأشداء ، الذين يحتفظون بهم ويدربونهم على الضرب والفتك لينفذوا أغراضهم . واغتصبت الأسر الكبيرة — وخاصة أسرة كولنا وأسرة أرسينى — المقابر والحمامات ، ودور التمثيل ، وغيرها من المنشآت القائمة

فى رومة أو بالقرب منها ، وحولتها إلى قلاع خاصة ؛ وكانت قصورها الريفية مشيدة بحيث تؤدى الأغراض الحربية . وكان الأشراف فى العادة يناصبون البابوات العداء ، أو يبذلون جهدهم ليتولوا هم اختيار هؤلاء البابوات والسيطرة عليهم . وكثيراً ما أشاعوا الاضطراب الذى أدى إلى فرار البابوات من المدينة ، حتى لقد كان البابا پيوس الثانى يدعو الله أن يجعل مدينة غير رومة عاصمة ملكه(٢) . ولما أن حارب سكستس الرابع واسكندر السادس أولئك الأعيان كانت حروبهما مجهوداً يغتفر لهما للتمتع ببعض الأمن الذى لا بد منه للكرسى البابوى .

وكان رجال الدين هم الذين يحكمون رومة عادة ، لأنهم كانت بأيديهم موارد الكنيسة على اختلاف أنواعها ينفقون منها . وكان الأهلون يعتمدون على ما ينصب فى المدينة من الذهب الوارد من الأقطار المختلفة ، وعلى ما يستطيع رجال الكنيسة أن يستخدموهم فيه من الأعمال بفضل هذا الذهب ، وعلى الصدقات التى يستطيع البابوات أن يمدوهم بها منه . ولم يكن من شأن أهل رومة أن يتحمسوا لأى إصلاح فى الكنيسة يقلل من انصباب هذا الذهب فيها . وإذ كانوا عاجزين عن العصيان الصريح فقد استبدلوا به الهجاء اللاذع الذى لا يضارعه فى هذا هجاء آخر فى أية مدينة غير رومة فى أوربا كلها . من ذلك أن تمثالا فى البياتسا نافونا Piazza Navona ، وهو فى أكبر الظن تمثال لهرقول ، قد أطلق عليه اسم پاسكوينو Pasquino — ولعل هذا الاسم قد أخذ من اسم خياط قريب منه — واتخذ لوحة تلصق عليها أحدث عبارات القذف والطعن ، وكانت فى العادة عبارة عن نكت باللغة الإيطالية أو اللاتينية ، وكانت توجه فى أكثر الأحيان إلى البابا الحاكم ، وكان أهل رومة قوماً متدينين فى المناسبات الخاصة على الأقل ؛ فكانوا يتزاحمون لتلقى البركة من البابا ، ويفخرون بأن يحذوا حذو السفراء فيقبلوا قدميه ؛ ولكن لما أعجز داء الرثية البابا سكستس الرابع عن أن يظهر

أمامهم فى الموعد المقرر لمنح هذه البركة وجهوا إليه أقزع ما فى جعبة أهل روما من السباب . يضاف إلى هذا أن البابوات أصبحوا ، بعد أن ألغى يوجينيوس الرابع الجمهورية فى روما ، حكام المدينة الزمنيين ، وبذلك كان يوجه إليهم ما يوجه إلى الحكومات من شتائم . وكان سوء حظ البابوية أن يكون مقرها بين أكثر أهل إيطاليا خروجاً على القانون والنظام .

وكان البابوات يشعرون بأن لهم الحق كل الحق فى أن يطالبوا لأنفسهم بقسط من السلطة الزمنية ورقعة من الأرض يمارسون فيها هذه السلطة . ذلك بأنهم وهم رؤساء منظمة دولية ، لا يقبلون أن يكونوا أسرى فى أيدى دولة بمفردها كما كانت حالهم فى واقع الأمر فى أفنيون . فإذا ما ضيق عليهم إلى هذا الحد عجزوا لا محالة عن أن يقدموا للناس جميعاً خدماتهم نزيهة من غير تفرقة بينهم ؛ وعجزوا أكثر من هذا عن أن يحققوا حلمهم العظيم وهو أن يكونوا الحكام الروحيين لجميع الحكومات . ولقد كانت « هبة قسطنطين » المزعومة وثيقة واضحة التزوير (كما اعترف بذلك نقولاس باستشجار ڤيلا) ، ولكن إهداء پپن إيطاليا الوسطى للبابوية (٧٥٥) ، ذلك الإهداء الذى أيده شارلمان ، (٧٧٣) من الحقائق التاريخية التى لا شك فيها . وكان البابوات قد سكوا لهم عملة خاصة منذ عام ٧٨٢ إن لم يكن قبل ذلك التاريخ(٤) ، ولم يرتب أحد فى حقهم هذا قرونا طوالا . وكان توحيد السلطات المحلية ، الإقطاعية أو الحربية ، يسير فى الولايات البابوية سيره فى غيرها من الأمم الأوربية . فإذا كان البابوات من أيام نقولاس الخامس إلى أيام كلمنت السابع قد حكموا الولايات الخاضعة لهم حكم الملوك أصحاب السلطة المطلقة ، فقد كانوا يتبعون فى هذا ما جرى به العرف فى زمانهم ، وكان من حقهم أن يشكوا إذا قام مصلحون ومثل جيرسن Gerson مدير جامعة باريس يطالب بالديمقراطية فى الكنيسة ولكنه يستنكرها فى الدولة . والحق أنه لا الدولة ولا الكنيسة كانت مستعدة للدمقرطية فى

الوقت الذى لم تكن الطباعة قد أخذت فيه تعم وتنتشر : ذلك أن نقولاس الخامس قد ارتقى عرش البابوية قبل أن يطبع جوتنبرج الكتاب المقدس بسبع سنين ، وقبل أن يصل فن الطباعة إلى رومة بثلاثين سنة ، وقبل أن ينشر ألدوس مانوتيوس أول كتاب من كتب الآداب القديمة . وملاك القول أن الدمقراطية ترف لا يستمتع به إلا إذا تثقفت العقول وساد الأمن والسلام :

وكان حكم البابوات الزمنى ينبسط مباشرة على ما كان الأقدمون يسمونه إقليم لاتيوم (وهو إقليم لادسيو فى هذه الأيام) وعلى جزء صغير من الإقليم المحصور بين تسكانيا ، وأمبريا ، ومملكة نابلى ، والبحو الترهينى . وكانوا فضلا عن هذا يدعون أنهم أصحاب أمبريا نفسها وولايات الحدود ، ورومانيا Romogna (وهى رومانيا Romania القديمة) . ويتكون من هذه الأصقاع الأربعة منطقة عريضة تمتد فى عرض إيطاليا من البحر إلى البحر ؛ وتضم نحو ست وعشرين مدينة كان البابوات متى شاءوا يحكمونها بأيدى نائبين عنهم أو يقسمونها بين حكام الأقاليم الأخرى . وفضلا عن هذا وذاك كان البابوات يدعون أن صقلية ومملكة نابلى كلها إقطاعيتان بابويتان ، مستندين فى ذلك إلى اتفاق عقد بين البابا إنوسنت الثالث وفردريك الثانى ؛ وأصبح أداء هاتين الدولتين جعلاً إقطاعياً للبابوية من أكبر أسباب النزاع بين حاكميهما والبابوات . يضاف إلى هذا كله أن الكونتة ماتلدا كانت قد أوصت للبابوات (١١٠٧) بتسكانيا كلها تقريباً ، بوصفها من ممتلكاتها الإقطاعية الخاصة ، بما فى ذلك فلورنس ، ولوكا ، وپستويا ، وپيزا ، وسينا ، وأردتسو ؛ وكان البابوات يطالبون بأن تكون لهم على جميع هذه الأملاك حقوق السيادة الإقطاعية ، ولكنهم قلما كانوا يستطيعون أن ينفذوا مطلبهم هذا ويجعلوه من الحقائق الواقعة .

وكانت البابوية تعانى الأمرين من جراء الفساد الداخلى ، وعجزها

الحربي والمالي ، واشتباك الأحوال السياسية الأوربية بالإيطالية ، والشئون الكنسية بالزمنية ؛ وظلت وتلك حالها تكافح قروناً طوالا للمحافظة على ممتلكاتها التقليدية وتحول بينها وبين أن يمتلكها رؤساء العصابات الأفاقون المستأجرون ، وأن تعتدى عليها الدول الإيطالية الأخرى . مثال ذلك أن ميلان حاولت أكثر من مرة أن تمتلك بولونيا ، وأن البندقية استولت على راڤنا ، وحاولت أن تضم إليها فيرارا ، وأن نابلى حاولت أن تبسط سلطانها على لاتيوم . وقلما كان البابوات يعتمدون فى صد هذه الهجمات على جيشهم الصغير المؤلف من الجنود المرتزقين ، بل كانوا يثيرون هذه الدول الطامعة بعضها على بعض ؛ لينشئوا بذلك نوعاً من توازن القوى السياسية ، ويحاولون أن يحولوا بين أية واحدة منها وبين أن يصبح لها من القوة ما يمكنها من أن تلتهم الأملاك البابوية : ولقد كان مكيفلى وجونشياردينى Guicciardini محقين حين أرجعا بعض أسباب تمزق إيطاليا إلى هذه السياسية البابوية ؛ ولقد كان البابوات على حق فى الجرى عليها لأنها كانت سبيلهم الوحيدة للمحافظة على استقلالهم الروحى والسياسى عن طريق سلطانهم الزمنى .

وأحس البابوات بوصفهم حكاماً سياسيين أنهم مضطرون إلى استخدام نفس الأساليب السياسية التى يستخدمها أندادهم الحكام الزمنيون . فكانوا يوزعون — وأحياناً يبيعون — المناصب والرتب الكهنوتية إلى ذوى النفوذ ، حتى القصَّر منهم ، لكى يوفوا بما عليهم من الديون السياسية ، أو يحققوا أغراضاً سياسية ، أو يكافئوا أو يعينوا رجالا من الأدباء أو الفنانين . وكانوا يزوجون أقاربهم فى الأسر ذات القوة السياسية : وكانوا يستخدمون الجيوش كما فعل يوليوس الثانى ، أو أساليب الخداع كما استخدمها ليو العاشر(٥) ، للوصول إلى أغراضهم . وكانوا يغضون النظر عن قيام درجات من البيروقراطية الخسيسة — كانوا يفيدون منها فى بعض الأحيان — أكبر الظن

أنها لم تكن أشد خسة مما كانت تنصف به معظم حكومات تلك الأيام . ولم تكن شرائع الولايات البابوية أقل شدة من شرائع غيرها من الدول ، فكان مندوبو البابوات يشنقون اللصوص ومزيفي النقود ويرون هذا شراً مريراً لا بد للحكومات أن تسلكه . وكان معظم البابوات يعيشون معيشة بسيطة إلى الحد الذى تجيزه المظاهر والحفلات الرسمية الفخمة التى تتطلبها مناصبهم فى زعمهم ؛ وإن أسوأ القصص التى نقرؤها عنهم لهى أقاصيص غير مستندة إلى أساس صادق أذاعها عنهم هجاءون غير مسئولين مثل برنى Berni ، أو طلاب المناصب الذين لم ينالوا بغيتهم أمثال أرتينو Artino ، أو عملاء السلطات مثل آل إنفسورا Infessura المعادين للبابوية عداء شخصياً عنيفاً أو عداء دبلوماسياً . أما الكرادلة الذين كانوا يعرفون شـئون الكنيسة الدينية والسياسية ، فكانوا يرون أنفسهم شيوخاً فى مجلس دولة غنية ، وينظمون حياتهم على أساس هذا الوضع ، وشاد الكثيرون منهم لأنفسهم قصوراً فخمة ، وناصر كثيرون غيرهم الآداب والفنون ، وأباح بعضهم لأنفسهم الاتصال بالمحاظى والعشيقات ، ولم يتحرجوا فى اتباع القانون الأخلاقى السائد فى أيام الاستهتار التى يعيشون فيها .

وواجه البابوات بوصفهم قوة روحية مشكلة للتوفيق بين النزعة الإنسانية الأدبية وبين المسيحية . ولقد كانت النزعة الإنسانية نصف وثنية ، وكانت الكنيسة قد أخذت على عاتقها اجتثاث أصول الوثنية وتقطيع فروعها ، سواء كان ذلك فى عقائدها أو فى فنها . وكانت قد شجعت تدمير الهياكل والتماثيل الوثنية أو أباحت هذا التدمير . مثال ذلك أن كنيسة أرفيتو الكبرى كانت قد شيدت تواً بالرخام الذى أخذ بعضه من كرارا وبعضه الآخر من الآثار الرومانية القديمة ؛ وأن مندوباً بابوياً باع كتل الرخام المأخوذة من الكلوسيوم لكى تحرق ويصنع منها الجير(٦) ؛ وأن قصر البندقية قد بدئ فى تشييده فى عام ١٤٦١ لاقبل بتدمير المدرج الفلافى . وقد استخدم نقولاس

نفســه ، فى حماسته المعمارية حمل ألفى عربة وخمسمائة من الرخام وصخور التر افرتين أخذها من الكلوسيوم ، ومن حلبة مكسيموس وغيرهما من العمائر القديمة لكى يعيد بها بناء كنائس رومة وقصورها(٧). وكان انتهاج عكس هذه الخطة ، والاحتفاظ بما بقى من الآثار الفنية والأدبية الرومانية واليونانية القديمة يتطلبان ثورة فى التفكير الكنسى. وكانت منزلة النزعة الإنسانية فى الأدب قد علت علواً كبيراً ، وكانت الدوافع التى وراء الحركة الوثنية الجديدة قد اشتدت وقويت ، والصبغة التى اصطبغ بها زعماؤها قد عظم تأثيرها ، بحيث لم تر الكنيسة بداً من أن تجد مكاناً لهذه التطورات التى حدثت فى الحياة المسيحية ، وإلا خسرت الطبقات المثقفة فى إيطاليا ، ولعلها تخسر بعد ذلك هذه الطبقات فى أوربا كلها . ومن أجل هذا احتضنت النزعة الإنسانية فى أيام نقولاس الخامس ، وانحازت بشجاعة ونبل إلى جانب الأدب الجديد والفن الجديد وتولت زعامتهما ، وظلت مائة عام — تعد من أكثر الأعوام بهجة ورواء — (١٤٤٧ — ١٥٣٤) تتيح لعقل إيطاليا قدراً عظيما من الحرية — الحرية التى لا يفيد منها العقل كما يقول فيليلفو — وللفن الإيطالى مناصرة ، وفرصاً ، ودوافع قائمة على التمحيص والتمييز جعلت رومة مركز النهضة ، ومكنتها من أن تستمتع بعصر من أكثر العصور لألاء فى تاريخ البشرية .

الفصل الثانى

نقولاس الخامس : ١٤٤٧ — ١٤٥٥

نشأ توماسو پارنتوتشيلى Fommosso parentucelli نشأة فقيرة فى ساردسانا ، ولكنه استطاع بطريقة ما أن يلتحق بجامعة بولونيا ، وأن يقضى فيها ست سنين . ولما نفد ماله غادرها إلى فلورنس واشتغل مربياً خاصاً فى بيتى رينلدو دجلى ألبتسى Rinaldo degli Albizzi وپلا ده استرتسى Palla de Strozzi . ولما كثر ماله عاد إلى بولونيا وواصل الدرس وحصل وهو فى سن الثانية والعشرين على درجة دكتور فى اللاهوت . وعينه نقولو دجلى البرجاتى Niccolo degli Albergati ، كبير أساقفة بولونيا مشرفاً على شئون بيت رياسة الأسقفية وأخذه إلى فلورنس ليكون فى خدمة يوچنيوس الرابع حين كان هذا البابا يقضى عهد منفاه الطويل : وأصبح هذا القس فى السنين التى قضاها بفلورنس من أصحاب النزعة الإنسانية ، دون أن يخرج بذلك على المبادئ المسيحية ، وصار صديقاً حميماً لبرتى ، ومارسوپينى ، ومانتى ، وأورسپا ، وپجيو ، وانضم إلى مجتمعاتهم الأدبية . وسرعان ما التهب قلب تومس ساردسانا ، كما كان الإنسانيون يسمونه ، بنار تحمسهم للآداب القديمة ، فكان ينفق كل دخله تقريباً فى شراء الكتب ، ويقترض المال لابتياع المخطوطات الغالية الثمن ، وجهر بأمله فى أن يمكنه ماله يوماً ما من أن يجمع فى مكتبة واحدة جميع الكتب العظيمة فى العالم . وترجع نشأة مكتبة الفاتيكان إلى هذا المطمع العظيم(٩) . واستخدمه كوزيمو فى عمل فهارس المكتبة المرقسية ، وابتهج توماسو لوجوده بين مخطوطاتها ؛ وقلما كان يعرف أنه يعد نفسه لأن يكون أول بابوات النهضة .

وظل عشرين عاماً يقوم بخدمة ألبرجاتى فى فلورنس وبولونيا . فلما

فمات كبير الأساقفة (١٤٤٣) عين يوچينيوس پارنتوتشيلى خلفاً له ؛ ثم عينه البابا بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت كردنالا متأثراً فى ذلك بعلمه ، وصلاحه ، ومقدرته الإدارية . وانقضى عام آخر ، ومات يوچنيوس ، ووجد الكرادلة أنفسهم فى مأزق حرج بين أحزاب أرسيني وكولنا ، فرفعوا پارنتوتشيلى إلى عرش البابوية ، وصاح هو فى وجه ڤسپازيانو دا بستتشى Vespasiano da Btsticci قائلا : « منذا الذى كان يظن أن عاملا فقيراً يدق الجرس عند قسيس يصبح بابا ، ويسبب بذلك الاضطراب فى صفوف المبتكرين ؟ »[10] وابتهج الإنسانيون فى إيطاليا بهذا الاختيار ونادى أحدهم فرانتشيسكوا بربارو Francesco Barbaro بأن رؤيا أفلاطون قد تحققت : فقد أصبح الفيلسوف ملكا .

وكان لنقولا الخامس — وهذا هو الاسم الذى اختاره لنفسه — ثلاثة أهداف : أن يكون بابا صالحاً ، وأن يعيد بناء رومة ، وأن يحيى الآداب والعلوم والفنون القديمة . وسلك فى أعمال منصبه السامى مسلك التواضع والكفاية العظيمة ، لا يكاد ينقطع عن سماع شئونه ساعة من ساعات النهار ، واستطاع أن يحتفظ بعلاقات الود والصـــداقة بين كل من ألمانيا وفرنسا . وأدرك البابا المعارض فليكس الخامس أن نقولاس لن يلبث أن يكسب ولاء العالم المسيحى كله ، فتخلى عن جميع دعاواه ، وعفا عنه نقولاس فضلا منه وكرما ؛ وانتقل المجلس الثائر الآخذ وقتئذ فى الانحلال من بازل إلى لوزان ثم انفض (١٤٤٩) ؛ وانتهت بذلك حركة المجالس الكنسية ، وانشعب الصدع الذى حدث فى البابوية . غير أن المطالبة بإصلاح الكنيسة ظلت تجىء من وراء جبال الألب ؛ وأحس نقولاس بأنه عاجز عن القيام بهذا الإصلاح أمام معارضة جميع ذوى المناصب الكبيرة الذين سيفقدون مناصبهم حتما إذا ما تم هذا الإصلاح المنشود . وكان يأمل أن الكنيسة ، إذا ما تزعمت حركة إحياء العلوم ، ستستعيد ما كان لها من مكانة فقدتها

فى أفنيون ، وفى عهد الانشقاق ؛ ولسنا نعنى بهذا أن مناصرته للعلوم كانت منبعثة عن غايات سياسية ، فنحن لا يخالجنا شك فى أنها كانت رغبة صادقة تكاد تكون هياما ؛ فقد قام فى أيامه الأولى برحلات شاقة فوق جبال الألب بحث فيها عن المخطوطات ، وكان هو الذى كشف فى بازل عن مؤلفات ترتليان .

والآن وقد امتلأت خزائنه بإيرادات البابوية ، فقد شرع يبعث العمال إلى أثينة والقسطنطينية ، وإلى كثير من المدن فى ألمانيا وإنجلترا ليبحثوا عن المخطوطات اليونانية واللاتينية ، وثنية كانت أو مسيحية ، ويشتروها أو ينسخوها . وحشد فى الفاتيكان طائفة كبيرة من النساخين والناشرين ، ولم يكد يترك كاتبا إنسانيا فى إيطاليا إلا استدعاه إلى رومة . وفى ذلك يقول ڤسپازيانو معجبا به وإن كان فى قوله كثير من المبالغة : « وأقبل العلماء من جميع أنحاء العالم على رومة فى أيام البابا نقولاس ، بعضهم من تلقاء أنفسهم ، وبعضهم إجابة لطلبه »(١١) . وكافأهم على أعمالهم بسخاء لا يقل عن سخاء خلفاء المسلمين الذين تهز مشاعرهم نغمات الموسيقى أو قصائد الشعراء . من ذلك أن لورنسو ڤلا الخاضع لسلطان البابا تاقى ٥٠٠ دوقة (١٢٫٥٠٠ ؟ دولار) لأنه ترجم كتاب توكيدس إلى اللغة اللاتينية ، ونال جوارينو دا ڤيرونا ١٥٠٠ دوقة نظير ترجمة استرابون ، ومنح نقولو پيترتى Niccolo Petrotti خمسمائة دوقة نظير ترجمة پوليوس ، وكلف پجيو بترجمة كتاب ديودور الصقلى ؛ وأغرى ثيودورس جادسا Theodorus Gaza بالمجىء من فرارا ليخرج ترجمة جديدة لكتب أرسطو ؛ ومنح فيليلفو بيتاً فى رومة ، وضيعة فى الريف ، وعشر آلاف دوقة ليترجم الإلياذة والأوديسه إلى اللغة اللاتينية . وقد بلغ من ضخامة هذه المكافآت أن تردد بعض العلماء فى قبولها ، ولكن البابا تغلب على التردد بأن حذرهم بشىء من الفكاهة قائلا : « لا ترفضوا ، فقد لا تجدون نقولاس آخر »(١٢) ولما أن

أخرجه الوباء من رومة إلى فيرارا ، أخذ معه مترجميه ونساخيه خشية أن يهلك الوباء واحداً منهم[١٣] . على أنه فى الوقت عينه لم يهمل ما يمكن أن نسميه الأدب المسيحيى القديم . فقد عرض خمسة آلاف دوقة على من يستطيع أن يأتيه بإنجيل متى بلغته الأصلية ، واستخدم جيانتسومانتى وجورج الطربزونى ليترجما كتب سيريل Cyril ، وباسل ، وجريجورى تريانزين وجريجورى النتشائى وغيرها من الآداب الدينية ؛ وعهد إلى مانتى وطائفة من مساعديه بأن يخرجوا ترجمة جديدة للكتاب المقدس عن النسخة العبرية الأصلية واليونانية ، لكن موته حال دون هذا العمل أيضاً . وتمت هذه التراجم اللاتينية فى عجلة ، وكانت تشوبها كثير من العيوب ، ولكنها فتحت لأول مرة كتب هيرودوت ، وتوكيديدس ، وأكسانوفون ، وبوليبيوس ، وديودور ، وأپيان ، وفيلون ، وثيوفراسطوس . لطلاب العلم الذين لا يستطيعون قراءة اللغة اليونانية . وكتب فيليلفو مشيراً إلى هذه التراجم يقول : « لم تفن اليونان ، بل هاجرت إلى إيطاليا — التى كانت فى الأيام الخالية تسمى **اليونان الكبرى** »[١٤] . ويقول مانتى معبرا عن شكره واعترافه بالجميل ، تعبيراً نعوزه الدقة العلمية ، إن ما ترجم من الكتب فى الثمان السنين التى جلس فيها نقولاس على عرش البابوية أكثر مما ترجم فى الخمسة قرون السابقة بأجمعها[١٥] .

وكان نقولاس يحب مظهر الكتب وشكلها كما كان يحب ما تحتويه صحائفها . وكان هو نفسه خطاطاً ؛ وأمر بأن يكتب له التراجم كتبة مهرة على الرق ؛ وأن تجلد أوراقها بالقطيفة القرمزية اللون ، وأن تكون لها مشابك من الفضة . ولما كثر عدد كتبه — حتى بلغ أخيراً ٨٢٤ مخطوطا لاتينيا و٣٥٢ مخطوطا يونانيا — وضمت هذه الكتب إلى مجموعات البابوات السابقين نشأت مشكلة المكان الذى توضع فيه هذه المجلدات الخمسة الآلاف — أكبر مجموعة من الكتب فى العالم المسيحي — بحيث يضمن انتقال هذه

الذخيرة كاملة إلى الخلف . وكان تشييد دار الكتب فى الفاتيكان من أصدق أمانى نقولاس .

وكان بنّاء كما كان عالما نحريراً ؛ وقد صمم منذ جلس على عرش البابوية على أن يجعل رومة خليقة بزعامة العالم . وكان عيد من أعيادها قد اقترب موعده إذ كان يحل فى عام ١٤٥٠ . وكان ينتظر قدوم مائة ألف زائر إليها فى هـذا العيد ، وينبغى ألا يجدوا رومة خربات رثة بالية ، وتطلبت كرامة الكنيسة والبابوية أن يطالع حصن المسيحية الحصين زائريه « بمبان فخمة ، تجمع بين حسن الذوق والجمال من جهة والفخامة والضخامة من جهة أخرى » بحيث « يرفع هذا من شأن كرسى الرسول بطرس » . هكذا صرح نقولاس بغرضه وهو على فراش الموت معتذراً عمّا قصر فيه . وقد أعاد بناء أسوار المدينة وأبوابها الكبرى ، ورمم سقاية ماء ڤرجينى Aqua Vergine ، وأمر أحد الفنانين بأن ينشئ فسقية عند مصبها تزدان بها . وعهد إلى ليون باتستا ألبرتى بأن يخطط القصور ، والميادين العامة ، والشوارع الفسيحة ، تقيها من الشمس والمطر البواكى المعمدة . وأمر برصف كثير من الشوارع ، وتجديد كثير من الجسور ، ورمم حصن سانت أنجيلو . وأقرض أعيان المواطنين الأموال ليساعدهم على بناء القصور التى تزدان بها رومة . وجدد برناردو رسلينو ، إطاعة لأمره ، كنائس سانتا ماريا مجيورى ، وسان چيوڤنى لا ترنو ؛ وسان پولو ؛ وسان لورندسو القائمة خارج أسوار المدينة ، والكنائس الأربعين التى كان جريجورى الأول قد خططها لتكون محطات للصليب(١٦) : ووضع تصميمات فخمة لبناء قصر جديد للفاتيكان يغطى بحدائقه جميع تل الفاتيكان ، ويسع البابا وجميع موظفيه ، وكرادلته ، وجميع المكاتب الإدارية التابعة للحكومة البابوية . وعاش حتى أتم حجراته الخاصة التى شغلها فيما بعد اسكندر السادس وسماها جناح بورچيا) ، والمكتبة (وهى الآن البينا كوتيكا

ڤاتيكانا) والحجرات التى نقشها رفائيل فيما بعد . واستدعى بينيديتو بنتڤجلى من پروچيا ، وأندريا دل كستنانيو من فلورنس لينقشوا رسوماً جصية — لم يبق لها أثر الآن — على جدران الفاتنكان ؛ وأقنع الراهب أنچيلكو — وكان وقتئذ شيخاً طاعناً فى السن — بأن يعود إلى رومة لينقش فى معبد البابا نفسه قصص القديس اصطفانوس ، والقديس لورنس ، وفكر فى أن يهدم باسلقا القديس بطرس المتداعية ، وأن يشيد فوق قبره أروع كنيسة فى العالم ، وقُدِّر ليوليوس الثانى أن يشرع هو فى تحقيق هذا الغرض الجليل .

وكان يأمل أن يحصل على ما يلزمه من المال لتحقيق هذه الأغراض كلها مما يرد إلى رومة فى ذلك العيد القريب . وأعلن نقولاس أن هذا العيد سيكون احتفالا بعودة السلام والوحدة إلى الكنيسة ؛ ووافق ذلك هوى فى نفوس شعوب أوربا ؛ وتوافد الحجاج من جميع أنحاء العالم المسيحى اللاتينى بكثرة لم يسبق لها من قبل مثيل ، وشبههم شهود عيان بأسراب النمل ، وبلغ الزحام فى رومة درجة اضطر معها البابا إلى أن يحدد أقصى مدة يقيمها أى زائر فيها بخمسة أيام فى أول الأمر ، ثم بثلاثة ، ثم بيومين اثنين . وحدث فى يوم من الأيام أن قتل مائتا شخص حين تدافع الناس فهووا فى نهر التيبر . فما كان من نقولاس بعدئذ إلا أن أمر بهدم بعض البيوت ليفسح الطريق إلى كنيسة القديس بطرس . وجاء الحجاج معهم بهدايا فاقت فى قيمتها ما كان يتوقعه نقولاس نفسه ، ووفت بنفقات مبانيه الجديدة ، وما خصصه من المال للعلماء والمخطوطات(١٧) . وعانت المدن الإيطالية الأخرى نقصاً فى النقود لأن الأموال « كلها تدفقت فى رومة » ، ولكن أصحاب النزل فى رومة ، ومبدلى النقود والصيارفة ، والتجار جنوا أرباحاً طائلة ، حتى استطاع نقولاس أن يودع فى مصرف آل ميديتشى وحده مائة ألف فلورين (٢,٥٠٠,٠٠٠ ؟ دولار)(١٨) . واشتد تذمر البلاد الواقعة وراء جبال الألب من انصباب الذهب إلى إيطاليا :

وحتى فى رومة نفسها شوّه بعض التذمر هـذا الرخاء الطارئ . ذلك أن حكم نقولاس لهذه المدينة كان حكما مستنيراً عادلا كما يراه هو . وكان قد وعد بتحقيق بعض الآمال الجمهورية ، بأن رشح أربعة من المواطنين يعينون هم فى المستقبل جميع موظفى البلدية ، ويشرفون على شئون الضرائب التى تجبى من المدينة . ولكن أعضاء مجلس الشيوخ والأعيان وهم الطبقة التى كانت تتولى حكم المدينة حين كان البابوات يقيمون فى أفنيون وفى عهد الانشقاق ، لم يرضوا عن الحكومة البابوية القائمة فيها ، كما استاء العامة من تحويل الفاتيكان إلى قصر محصن يقوى على صد أى هجوم يماثل الهجوم الذى أدى إلى طرد يوجنيوس من رومة . وكانت الأفكار الجمهورية التى ينادى بها آرنلد البيشائى ، وكولا دى رينزو Cola di Rienzo لا تزال تثير كثيراً من العقول ؛ وحدث فى السنة التى تربع فيها نقولاس على عرش البابوية أن ألقى زعيم من أهل المدينة يدعى استفانو بركارو Stefano Porcaro خطبة حماسية نارية يطالب فيها بإعادة الحكم الذاتى إلى المدينة ؛ فما كان من نقولاس إلا أن نفاه من المدينة نفياً مريحاً ، إذ عينه حاكماً لأنيانى ، ولكن بركورو استطاع أن يعود إلى العاصمة ، وأن ينادى بنداء الحرية أمام جمع مهتاج فى حفلة مقنعة . ونفاه نقولاس مرة أخرى إلى بولونيا ، ولكنه ترك له حريته الكاملة ولم يفرض عليه إلا أن يظهر كل يوم أمام المندوب البابوى فى المدينة . بيد أن استفانو ، الذى لم يكن شىء يثبط همته أو يقعد به عن العمل ، استطاع وهو فى بولونيا أن يدبر مؤامرة محكمة أشرك فيها ثلثمائة من أتباعه فى رومة . وكانت النية مبيتة على أن يهاجم المتآمرون قصر الفاتيكان فى يوم عيد الغطاس أثناء قيام البابا والكرادلة بالقداس فى كنيسة الرسول بطرس ، ثم يستولوا على ما فيه من كنوز ليتمكنوا بها من إقامة جمهورية ، ثم يلقوا القبض على نقولاس نفسه ويتخذوه أسيراً[١٩] . وغادر بركارو بولونيا سراً (فى ٢٦ ديسمبر سنة

١٤٥٣) وانضم إلى المتآمرين عشية يوم الهجوم المدبر . ولكن غيابه عن بولونيا عرف ، وجاء رسول إلى الفاتيكان يحذر البابا من المؤامرة . واقتفى أثر استفانو ، وعثر عليه ، وزج فى السجن ، وضرب رأسه فى اليوم التاسع من يناير فى سانت أنجيلو . وعد الجمهوريون قتله اغتيالا ، وندد الكتاب الإنسانيون بالمؤامرة وعدوها خيانة مروعة للبابا الخير الصالح :

وروع نقولاس ، وتبدلت حاله لما تبين له أن قسما كبيراً من أهل المدينة يرونه طاغية مهما تكن فعاله الخيرة . وأقضت مضجعه الظنون السيئة ، وملأ الغضب صدره ، وعذبه مرض الرثية ، فأخذ ينحدر انحداراً سريعاً نحو الشيخوخة . ولما جاءته الأنباء بأن الأتراك استولوا على القسطنطينية فوق خمسين ألفاً من جثث المدافعين عنها ، وأنهم اتخذوا كنيسة أياصوفيا مسجداً (١٤٥٣) ، خيل إليه أن ما ناله من مجد فى أثناء بابويته كان مهرجا كاذباً وعبثاً باطلا قصير الأجل . وأهاب بالدول الأوربية أن تضم صفوفها لتقوم بحملة صليبية تستعيد بها حصن المسيحية الشرقية الحصين ؛ وطالب بعشر إيراد أوربا الغربية بأجمعه يموِّل به هذه الحملة ، وتعهد بأداء جميع إيرادات الأملاك البابوية ، والحكومة البابوية ، وغيرها من الموارد الكنسية ؛ ثم طالب بوقف جميع الحروب المستعمرة بين الأمم المسيحية ، وإلا حرم القائمون بها من حظيرة الدين ، لكن أوربا أصمت أذنيها عن سماع النداء . وقال الناس إن الأموال التى جمعها البابوات السابقون لتمويل حروب صليبية استخدمت فى أغراض أخرى : وآثرت البندقة أن تعقد مع الأتراك اتفاقاً تجارياً ، وأفادت ميلان من متاعب البندقية فاستردت برستشيا ، ونظرت فلورنس بعين الرضا إلى فقدان البندقية تجارتها مع الشرق[20] . وأحنى نقولاس رأسه أمام الحقيقة الواقعة ، وبرد دم الحياة فى عروقه . وتوفى الرجل فى عام ١٤٥٥ فى الثامنة والخمسين من عمره بعد أن أنهكته متاعب الدبلوماسية غير المجدية وجوزى على خطايا أسلافه :

لكنه أعاد السلام إلى داخل الكنيسة . وأعاد النظام والمجد إلى رومة . وأنشأ أعظم مكتبة فى أوربا كلها ، ووفق بين الكنيسة والنهضة . ولم يدنس يده بالحرب ، ولم يتحيز لذوى القربى ؛ وبذل كل ما يستطيع من الجهد ليخرج بأوربا من النزاع المؤدى إلى الانتحار . وكان هو نفسه يحيا حياة بسيطة وسط موارد لم يسبق لها فى ضخامتها مثيل ، وكان محباً للكنيسة ولكتبه . ولم يسرف إلا فى عطاياه . وقد عبر إنجبارى محزون عن شعور إيطاليا حين وصف البابا العالم بأنه رجل « حكيم ، عادل . خير . رحيم ، مسالم . شفيق ، محسن ، متواضع . . . متصف بجميع الفضائل »[٢١] . نعم إن هذا هو حكم المحبين ، وقد لا يرى بركورو هذا الرأى ، ولكن لا بأس من أن نسجل هذا الحكم .

الفصل الثالث

كلكستس الثالث : ١٤٥٥ – ١٤٦٨

وكان تفرق إيطاليا هو الذى قرر نتيجة انتخاب البابا الذى خلف نقولاس : ذلك أن الكرادلة قد عجزوا عن الاتفاق على اختيار أحد الكرادلة الإيطاليين . فعمدوا من أجل ذلك إلى اختيار كردنال أسپانى هو ألفينسو بورجيا Alfonso Borgia الذى تسمى باسم كلمنت الثالث . وكان البابا الجديد قد بلغ السابعة والسبعين من العمر ، وكان موته مرتقباً بعد قليل ، فتتاح بذلك للكرادلة فرصة اختيار أخرى قد تكون أعود عليهم بالفائدة . وكان كلكستس متخصصاً فى القانون الكنسى بارعاً فى الدپلوماسية ، ولذلك كان ذا عقلية قانونية ، قليل العناية بالعلوم القديمة التى شغف بها نقولاس . وضعف فى عهده شأن الكتاب الإنسانيين الذين لم تكن لهم أصول ثابتة فى روما إذا استثنينا منهم ڤلا Valla الذى ظل بعد أن صلحت حاله أميناً للبابا .

وكان كلكستس رجلا صالحا يعطف على أقاربه ، فلم تنقض على تتويجه عشرة أشهر حتى رفع إلى مقام الكردنالية اثنين من أبناء أخيه — هما لويس چون داميلا Luis Juan da Maila ، وردريجو بورچيا — ودون چيمى البرتغالى Don Jayme وكانت سنهم على التوالى خمسة وعشرين عاماً ، وأربعة وعشرين ، وثلاثة وعشرين . وكان يعيب ردريجو (الذى أصبح فيما بعد البابا اسكندر السادس) شىء آخر وهو أنه كان رجلا صريحاً مستهتراً فى أمور عشيقاته ؛ لكن كلكستس مع ذلك منحه أكثر المناصب كسبا فى البلاط البابوى — فجعله نائب رئيس الحكومة البابوية (١٤٥٧) ، ثم عينه فى العام نفسه قائداً عاماً للقوات البابوية : وهكذا

بدأت محاباة الأقارب ، وهى الخطة التى اتبعها البابوات ، واحداً بعد واحد فوهبوا المناصب البابوية لأبناء إخوتهم وأخواتهم وغيرهم من أقاربهم ، وكانوا فى كثير من الأحيان أبناء البابا نفسه . وأغضب كلكستس الإيطاليين إذ أحاط نفسه برجال اختارهم من بلده فأضحت رومة الآن يحكمها القطلانيون . على أن البابا كانت تدعوه إلى ذلك أسباب معقولة : منها أنه كان أجنبياً فى رومة ؛ وأن الأعيان والجمهوريين كانوا يحيكون المؤامرات ضده ، وكان يريد أن يكون بالقرب منه رجال يعرفهم ؛ يحمونه من الدسائس — بينا كان يوجه اهتمامه إلى أهم ما يعنيه — ألا وهو الحرب الصليبية ؛ هذا إلى أن البابا كان يريد أن يكون ثمة نفر من أصدقائه فى مجمع الكرادلة الذى لا ينفك يكافح لجعل البابوية ملكية انتخابية ودستورية ، تخضع فى جميع قراراتها للكرادلة بوصفهم مجلساً للشيوخ أو مجلساً مخصوصاً ، وكان البابوات يقاومون هذه الحركة ، وأفلحوا فى التغلب عليها ، كما كان الملوك يحاربونها ، وكما أفلحوا فى القضاء عليها ؛ لا فرق بين هؤلاء وأولئك . وكان النصر فى كلتا الحالين حليف الملكية المطلقة ؛ ولكن لعل استبدال الاقتصاد القومى بالاقتصاد المحلى ، واتساع مجال العلاقات الدولية وتعقدها ، يتطلبان ، إلى وقت ما ، تركيز الزعامة والسلطان . وأنهك كلكستس آخر قطرات نشاطه فى محاولته غير المجدية لإثارة أوربا والإهابة بها إلى مقاومة الأتراك . ولما مات احتفلت رومة بانتهاء حكم « البرابرة » لها ، ولما رشح الكردنال پكولوميني Piccolomini خلفا له . ابتهجت رومة كما لم تبتهج من قبل لاختيار أى بابا فى خلال المائتى العام الأخيرة .

الفصل الرابع

پيوس الثانى : ١٤٥٨ — ١٤٦٤

بدأ إنيا سلڤيو ده پكولوميني Enea Silvio de Piccolomini حياته فى عام ١٤٠٥ فى بلدة كرسنيانو القريبة من سينا . وكان أبواه فقيرين ولكنهما من أرومة مجيده . ودرس القانون فى جامعة سينا ، ولكن القانون لم يرق له لأنه كان يميل إلى الأدب ، غير أنه أكسب عقله حدة وانتظاماً فى التفكير ، وأعده لواجبات الإدارة والسياسة . ودرس الآداب الإنسانية فى فلورنس على فيليو ، وظل من ذلك الوقت ذا نزعة إنسانية ، ثم عينه الكردنال كپرانيكا أميناً له ورافقه إلى مجلس بازل ، وهناك اجتمع مع طائفة من أعداء يوچنيوس الرابع ؛ وبقى بعد ذلك كثيراً من السنين يدافع عن حركة المجالس ضـــد سلطان البابوية ، ثم اشتغل وقتاً ما أميناً لفليكس الخامس البابا المعارض . ولكنه أدرك أنه قد راهن على الجواد الخاسر ، فأغرى أحد الأساقفة بأن يقدمه للإمبراطور فردريك الثالث ، وما لبث أن عين فى منصب فى البلاط الملكى . حتى إذا كان عام ١٤٤٢ رافق فردريك إلى النمسا ، وظل مرتبطا به بعض الوقت .

ولم تبد عليه فى تلك السنين التى كان يتكون فيها عقله نزعة خاصة ، وكل ما فى الأمر أنه كان إنساناً نشيطاً يرقى فى المناصب . غير ذى مبادئ يحرص عليها ، أو هدف يبتغيه غير النجاح ؛ فقد كان يتنقل من جانب إلى جانب دون أن يدب اليأس إلى قلبه . ومن امرأة إلى امرأة وهو مرح متقلب تقلباً يبدو له — كما كان يبدو لمعظم معاصريه — أنه هو التدريب الصحيح لواجبات الزوجية ، وشاهد ذلك أنه كتب إلى صديق له رسالة يقصد بها التغلب على عناد فتاة تؤثر الزواج على الفجور(٢٢) . وكان له

عدد من الأبناء غير الشرعيين بعث بواحد منهم إلى أبيه وطلب إليه أن يربيه ، واعترف له بأنه « ليس أكثر قداسة من داود ، ولا حكمة من سليمان »(٢٣) ؛ وكان فى وسع الشاب الخبيث أن يقتبس من الكتاب المقدس ما يؤيد أغراضه . وكتب رواية من طراز كتابات بوكاتشيو ، ترجمت إلى اللغات الأوربية كلها تقريبا ، وكانت مما يجابه به لما تولى منصبه الدينى . وقد تردد طويلا فى لبس المسموح ، وإن كان يعلم أن رقيه فى المستقبل يتطلب أن ينخرط فى سلك رجال الدين ؛ وذلك لأنه كان يشك كما يشك أوغسطين فى قدرته على التعفف(٢٤) . وكتب يعارض مبدأ عدم زواج رجال الدين(٢٥) .

ولكنه احتفظ وسط هذا التقلب كله بالإخلاص للأدب . ذلك أن إحساسه المرهف بالجمال ، وهو ذلك الإحساس الذى أفسد أخلاقه ، قد جعله يهوى الطبيعة ، ويولع بالأسفار ؛ وهو الذى كون أسلوبه الذى جعله أكثر الكتاب إمتاعاً ، وأفصح الخطباء فى القرن الخامس عشر كله . وقد كتب فى فروع الأدب كلها تقريباً — وكانت كلها إلا القليل النادر باللغة اللاتينية ؛ كتب فى القصص ، والشعر ، والفكاهات الشعرية ، والحوار ، والمقالات ، والتواريخ ، والأسفار ، والجغرافية ؛ وكتب الشروح والتعليقات ، والمذكرات ؛ وكتب مسلاة ، وكانت كلها بتحمس وظرف لا يقلان فى ذلك عن أجمل ما فى كتابات بترارك النثرية . وكان يسعه أن يكتب أية وثيقة من وثائق الدولة ، ويعد أو يرتجل خطبة بمهارة تقنع قارئها أو سامعها ، وتأسر بسلاستها عقل من يطلع عليها . وكان من خصائص ذلك العصر أن إينياس سلفيوس Aeneas Sylvus بدأ من لا شىء ولكنه ارتقى إلى مقام البابوية على سن قلمه . ولسنا ننكر أن أشعاره لم يكن لها من العمق أو القدر ما يخلدها ، ولكنها بلغت من الرقة حداً جعله يتلقى تاج الشعر من فردريك الثالث (١٤٤٢) دليلا على اغتباطه بشعره . وكان لمقالاته

سحر وخنة عوضا ماكان ينقص كاتبها من قوة العقيدة أو التمسك بالمبدإ ، وكان يسعه، أن ينتقل من حديث عن « شقاء حياة البلاط »(٢٦) التي يقول فيها إن « الرذائل كلها تنصب في بلاط الملوك كما تنصب مياه الأنهار في البحار » إلى رسالة في « طبيعة الخيل والعناية بها » . وكان من الخصائص الأخرى لذلك العصر أن خطابه الطويل في التربية — الذي كتبه إلى لادسلاس ملك بوهيميا ، ولكنه كان يقصد نشره — لم يقتبس فيه إلا من الكتاب الوثنيين ، اللهم إلا عبارة واحدة اقتبسها من غيرهم ؛ وأنه لم يضرب إلا أمثلة مستمدة من هؤلاء الكتاب ، وأنه نظم عقود المديح للدراسات الإنسانية ، وحث الملك على أن يعد أبناءه لتحمل مشاق الحرب وتبعاتها لأن « المسائل الجدية لاتسويها القوانين بل قوة السلاح »(٢٧) . وتعد مذكراته التي كتبها عن أسفاره خير ما كتب من نوعها في أدب النهضة كله ، ذلك أنه لم يكتف بوصف المدن والمناظر الريفية وصفاً ذا فتنة ومتعة ؛ بل وصف فوق ذلك صناعات البلاد التي زارها ، وغلاتها ؛ وأحوالها السياسية ، ونظمها الحكومية ، وعادات أهلها وأخلاقهم ؛ ولم يكتب أحد بعد بترارك عن الريف بمثل ماكتب هو من حب وإعزاز . وكان هو دون غيره من الإيطاليين في قرون عدة الذي أحب ألمانيا ؛ وكان يجد كلمة طيبة يقولها عن الصخابين من أهل المدن الذين يملأون الهواء بأغانيهم ويملأرن بالجعة بطونهم ، بدل أن يغتال بعضهم بعضاً في الشوارع . وكان يصف نفسه بأنه حريص على أن يرى مختلف الأشياء(٢٨) ، وكان من أقواله المأثورة التي يكررها على الدوام « منهومان لايشبعان طالب علم وطالب مال »(٢٩) وحول قلمه المطواع لكتابة التاريخ ، فكتب عدة تراجم قصيرة للمشهورين من معاصريه ؛ وكتب سيرة بترارك ، وتاريخ الحرب الهوسية Hussite Wars ، وموجزاً لتاريخ العالم . ثم وضع خطة لكتابة تاريخ للعالم وجغرافيته أكبر من التاريخ السابق ، وظل يعمل فيه وهو بابا ، وأتم قسمه الخاص بآسية والذي عني

كولميس بقراءته(٣٠) . وكان وهو بابا يكتب من يوم إلى يوم مذكرات Commentaria يسجل فيها تاريخ حكمه حتى مرض مرضه الأخير . وكان وهو في هذه المرحلة من حياته « يقرأ ويملي حتى وهو راقد على فراشه حتى منتصف الليل ، كما يقول معاصره پلاتينا Platina ، ولم يكن ينام أكثر من خمس ساعات أو ست »(٣١) ; وكان يعتذر لأنه يقضي وقت البابوية في الأعمال الأدبية ويقول : إنا لم نختلس وقتاً من واجباتنا ؛ بل إننا منحنا الكتابة من الوقت ماكان يجب أن نقضيه في النوم ؛ وقد حرمنا شيخوختنا من الراحة حتى نورث الأجيال القادمة كل ما نعرف أنه خليق بأن يخلد »(٣٢) .

وبعث الإمبراطور بإينياس سلڤيوس رسولا إلى البابا في عام ١٤٤٥ . واعتذر الرجل الذي هاجم يوچنيوس مائة مرة اعتذاراً تأثر من فصاحته البابا الرحيم فلم يسعه إلا أن يعفو عنه ، وأصبحت روح إينياس من ذلك اليوم ملكا ليوچنيوس : ورسم قسيساً (١٤٤٦) ، ولما بلغ الحادية والأربعين من العمر ركن إلى العفة والطهارة ، وعاش من ذلك الحين معيشة مثالية . واحتفظ بولاء فردريك للبابوية ؛ واستطاع بسياسته الحصيفة ، الملتوية في بعض الأحيان ، أن يعيد ولاء الناخبين والأحبار الألمان إلى الكرسي الرسولي . وأيقظت زياراته لرومة وسيناحبه لإيطاليا من جديد ، نحل روابطه بفردريك شيئاً فشيئاً ، وأحكمها ببلاط البابا (١٤٥٥) . لأنه كان يرغب على الدوام في أن يعود إلى معمعان السياسة وإلى موطنه الأول ؛ ذلك أنه في رومه سيكون في مركز الحركة كلها ؛ ومن يدري لعله وهو في وسط الحادثات الصاخبة وتقلباتها يتسنم عرش البابوية . فلما كان عام ١٤٤٩ عين أسقفاً لسينا ، وفي عام ١٤٥٦ أصبح الكردنال پكولوميني .

ولما حل الوقت الذي يجب أن يختار فيه خليفة لكالكستس ، أراد الإيطاليون في المجمع المقدس أن يتفادوا اختيار الكردنال دستوتيڤيل Cardinal d' Estouteville ، فأعطوا أصواتهم لپكولوميني لأن الكرادلة

الإيطاليين صمموا أن يحتفظوا بالمجمع المقدس إيطاليا صميما ، وكان تصميمهم هذا مبنيا على أسباب شخصية وعلى خوفهم من أن البابا الغير الإيطالى قد يعيد الانشقاق إلى العالم المسيحى بانحيازه إلى بلاده أو بنقل كرسى البابوية من إيطاليا . ولم يجابه أحد إينياس بذنوب شبابه ، ولم يتردد الكردنال ردريجو بورچيا المرح فى أن يدلى له بصوته فى غير مواربة ؛ وأحست الكثرة الغالبة أن الكردنال پكولومينى ، وإن لم يرتد القلنسوة الحمراء(*) إلا من عهد قريب ، كان واسع التجربة ، كما كان دبلوماسياً ناجحاً واسع الاطلاع على شئون ألمانيا المتعبة وعالما يرفع بعلمه مكانة البابوية .

وكان وقتئذ فى الثالثة والخمسين من العمر ، وكانت حياته الكثيرة المغامرات قد أثرت كثيراً فى صحته حتى بدا وكأنه شيخ طاعن فى السن . وبينا هو مسافر من هولندة إلى اسكتلندة (١٤٣٥) ، إذ اضطرب البحر اضطراباً بعث فى نفوس المسافرين أشد الهول والانزعاج — حتى امتد استغرقت الرحلة من سلويس Sluys إلى دنبار Dunbar اثنى عشر يوماً — فأقسم إذا نجا أن يسير حافى القدمين إلى أقرب ضريح للعذراء . وحدث أن كان هذا الضريح فى هويت كيرك Whitekirk على بعد عشرة أميال من المكان الذى نزل فيه . وبَرَّ بيمينه ، ومشى المسافة كلها وهو حافى القدمين فوق الثلج والجليد ، وأصيب بداء الرثية وظل يعانى منه أشد الآلام ما بقى من حياته . ولم يحل عام ١٤٥٨ حتى كان مصاباً بحصاة فى الكلوتين ، وبسعال مزمن . وغارت عيناه ، وامتقع لون وجهه ، « ولم يكن فى وسع الناس أحياناً » كما يقول پلاتينا « أن يقولوا إنه حى إلا حين يسمعون صوته » (٢٣) . وكان وهو بابا يعيش عيشة بسيطة يراعى فيها جانب الاقتصاد ؛ وكانت نفقات بيته فى الفاتيكان أقل ما سجله التاريخ من نفقات هذا البيت .

(*) أى لم يصبح كردنالا . (المترجم) .

وكان إذا أمكنته واجبات منصبه يأوى إلى ضاحية فى الريف ، يعيش فيها كما يعيش القروى الشريف المتواضع لا كما يعيش البابوات »(٣٤) . وكان أحياناً يحضر مجامع الكرادلة أو يستقبل السفراء ، فى ظلال الأشجار أو بين غياض أشجار الزيتون ، أو إلى جوار عين باردة أو ماء جار . وكان يسمى نفسه من قبيل التورية سلڤارم أماتور Silvarum Amator أى محب الغابات :

وقد اشتق اسمه البابوى من عبارة ڤرچيل التى يكررها كثيراً وهى prius Aeneas أى إينياس التقى . وإذا جاز لنا أن نتغاضى عما فى ترجمة هذه الصيغة من خطأ قليل أجاءّ العرف ، قلنا إنه عاش عيشة ينطبق عليها هذا الوصف : فقد كان تقياً ، أميناً فى أداء واجباته ، خيراً ، متسامحاً ، معتدلا حليما ، كسب قلوب جميع الناس حتى الساخرين من أهل رومة . ولما كبر تخلى عن شهوانية شبابه ، وأصبح من الناحية الأخلاقية بابا نموذجياً . ولم يحاول قط أن يخفى ما كان له فى أيامه الأولى من مغامرات فى الحب ، أو ما قام به من دعاوة للمجالس الكنسية المعارضة للبابوية ، ولكنه أصدر قراراً يستنكر فيه ما فعل (١٤٦٣) ؛ ويضرع فيه إلى الله وإلى الكنيسة أن يغفرا له أخطاءه وذنوبه . وخاب رجاء الكتاب الإنسانيين الذين كانوا يتوقعون أن يبسط عليهم البابا ذو النزعة الإنسانية رعايته ويغدق عليهم عطاياه ، وذلك حين وجدوا أنه لا يؤدى إليهم أجوراً عالية ، وإن كان يستمتع بصحبتهم ، وإن عين بعضهم فى مناصب إدارية فى حكومته البابوية ؛ بل كان يحتفظ بأموال البابوية ليجهز بها حملة صليبية على الأتراك . على أنه ظل فى أويقات فراغه إنسانى النزعة : فقد كان يعنى أشد العناية بدراسة الآثار القديمة ، ونهى عن تدمير شىء آخر منها ؛ وأمن أهل أربينو Arpino لأن شيشرون ولد فى تلك المدينة ؛ وأمر بترجمة هوميروس ترجمة جديدة ، وعين پلاتينا وبيندو فى أمانته العامة . واستقدم مينو دا فيسولى Mino da Fiesole ليقوم ببعض أعمال النحت فى كنائس رومة ، كما استقدم

فلپينو لپى Eilippino Lippi لينقشها . وأطلق العنان لخيلاته بأن شيد من تصميم وضعه برناردو رسلينو ، كنيسة كبرى وقصر بكولوميني فى بلدته كرسنيانو Corsignano التى سماها پيندسا Pienza باسمه . وكان يفخر بكرم محتده فخر الفقراء العريق النسب ، وأفرط فى ولائه لأصدقائه وأقاربه إفراطاً أضر بمصالح الكنيسة ، فقد أصبحت الفاتيكان فى أيامه خلية بكولومينية .

وكانت مدة بابويته تزدان بعالمين من جلة العلماء ، أحدهما فلاڤيو بيندو Flavio Biondo الذى كان أميناً للبابوية من أيام نقولاس الخامس ، والذى كان رمزاً للنهضة المسيحية : وكان فلاڤيو مولعاً بالآثار القديمة ، أنفق نصف حياته فى كتابة تاريخها ووصف بقاياها ؛ ولكنه كان طوال الوقت مسيحياً تقياً ، صاق الإيمان ، لا ينقطع عن أداء الشعائر الدينية : وكان پيوس يعرف له قدره ويتخذه مرشداً له وصديقاً ، ويفيد من مرافقته فى زيارة الآثار الرومانية . ذلك أن بيندو كان قد كتب موسوعة من ثلاثة أجزاء أسماها **روما العالمة** ، **روما الظافرة** ، **وإيطاليا الباهرة** ، سجل فيها تخطيط إيطاليا القديمة ، وتاريخها ، وأنظمتها ، وشرائعها ، ودينها ، وعاداتها ، وفنونها . وأعظم من هذه الموسوعة على عظمتها كتابه المسمى **تاريخ انحطاط الرومان** وهو شبيه بكتاب « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » ، وإن كان أكبر منه حجما ، وهو يصف أحوالها من ٤٧٦ حتى ١٢٥٠ ، أى فى أولى الفترات العصيبة من العصور الوسطى . ولم يكن بيندو صاحب أسلوب أدبى رفيع ، ولكنه كان مؤرخاً يفرق بين الغث والثمين ؛ وكانت مؤلفاته هى التى قضت على الأقاصيص الخرافية التى كانت تحتفظ بها المدن الإيطالية وتعزو بها نشأتها إلى أصول طروادية أو غير طروادية ؛ وكان العمل الذى أخذ على عاتقه القيام به أعظم من أن تتسع له سنو بيندو الخمس والسبعون ؛ ولهذا لم يتمه حين توفى فى عام ١٤٦٣ ؛ ولكنه ضرب

به المثل للمؤرخين الذين جاءوا بعده فى الدراسة الواسعة النزيهة .

وكان الكردنال جون بيساريون أداة حية لنقل الثقافة اليونانية التى كانت تدخل وقتئذ إلى إيطاليا . وكان مولده فى طربزون ، وتلقى فى القسطنطينية دراسة واسعة فى الشعر ، والخطابة ، والفلسفة اليونانية ؛ وواصل دراسته على الفيلسوف الأفلاطونى الذائع الصيت جمستوس پليثو Gemistus Pletho فى مسترا Mistra ؛ ثم قدم إلى مجلس فلورنس بوصفه كبيراً لأساقفة نيقية ، وكان له شأن عظيم فى توحيد الكنيستين اليونانية واللاتينية . ولما عاد إلى القسطنطينية ، نبذه صغار رجال الدين والشعب هو وغيره من « الاتحاديين » ؛ وعينه البابا يوجنيوس كردنالا (١٤٣٩) ، وانتقل بيساريون إلى إيطاليا ومعه مجموعة قيمة من المخطوطات . فلما قدم إلى رومة أصبح بيته ندوة للكتاب الإنسانيين ؛ وكان پجيو ، وڤلا ، وپلاتينا ، من أقرب المقربين إليه من الأصدقاء ؛ وكان ڤلا يسميه « أعلم العلماء الهلنستيين بين اللاتين » ، وأكثر العلماء اللاتينيين تهذيباً بين اليونان(٣٥) . وقد أنفق كل دخله تقريباً فى شراء المخطوطات أو نسخها . وترجم هو نفسه كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو ، ولكنه وهو من مريدى جمستوس كان يؤثر عليه أفلاطون ؛ وكان يتزعم المعسكر الأفلاطونى فى الجدل العنيف الذى حمى وطيسه وقتئذ بين الأفلاطونيين والأرسطوطاليين . وانتصر أفلاطون فى هذه الحرب وانتهت بذلك سيطرة أرسطو الطويلة على الفلسفة الغربية . ولما عين البابا نقولاس الخامس بيساريون قاصداً رسولياً له فى بولونيا ليحكم منها رومانيا وأقاليم التخوم ، قام بيساريون بواجبات الحكم خير قيام ، فلم يسمع نقولاس إلا أن يسميه « ملك السلام » . وقد عهد إليه پيوس الثانى بعدة مهام دبلوماسية شاقة فى ألمانيا التى أخذت مرة أخرى تغلى فيها مراجل الثورة على الكنيسة الرومانية . ولما قربت منيته أوصى بمكتبته إلى مدينة البندقية ، حيث لا تزال تكون جزءاً لا تقدر قيمته من المكتبة المرقسية Bibliote Marciana .

وكاد ينتخب للجلوس على عرش البابوية فى عام ١٤٧١ ، ثم مات بعد عام من ذلك الوقت ، وهو موضع الإجلال والتكريم فى جميع أنحاء العالم لعلمه الغزير .

وأخفقت بعثته إلى ألمانيا . ويرجع بعض السبب فى إخفاقها إلى أن الجهود التى بذلها پيوس الثانى لإصلاح الكنيسة لم تفلح ، ويرجع البعض الآخر إلى أن محاولة جديدة بذلت لتحصيل العشور لتمويل حملة صليبية ، قد بعثت كراهية الشعوب التى وراء جبال الألب لرومة . وعين پيوس فى بداية ولايته لجنة من كبار الأحبار لوضع منهاج للإصلاح ؛ وقبل فى ذلك مشروعاً عرضه عليه نقولاس الكرسائى وأعلنه فى مرسوم بابوى ، ولكنه لم يجد أحداً فى رومة يريد الإصلاح ، لأن نصف من فيها من الكبار كانوا يجنون نفعاً كبيراً من المفاسد التى طال عليها العهد ؛ وتغلب الجمود والمقاومة السلبية على جهود پيوس ؛ وكانت الصعاب التى واجهها فى الوقت عينه فى ألمانيا ، وبوهيميا ، وفرنسا قد استنفدت قواه ؛ كما أن الحرب الصليبية التى كان يدبر أمرها قد استنفدت جميع عواطفه الدينية ، وتطلبت منه المال الكثير . ولهذا قنع بأن يلوم الكرادلة على حياتهم الشهوانية ، وأن يقوم من حين إلى حين ببعض الإصلاحات المتقطعة فى نظم الأديرة . وأصدر فى عام ١٤٦٣ آخر نداء إلى الكرادلة قال فيه :

يقول الناس إنا نسعى وراء اللذة ، وجمع الثراء ، وإنا متغطرسون ، نمتطى البغال السمينة ، والأمهار الجميلة ، ونجر أذيال أثوابنا من خلفنا ، ونطل بوجوهنا المستديرة المكتنزة من تحت القبعة الحمراء ، والقلنسوة البيضاء ، ونربى الكلاب للصيد ، وننفق الكثير من المال على الممثلات والطفيليين والطفيليات ، ونضن بالقليل على شئون الدين . وإن لهم لبعض الحق فيما يقولون : ذلك أن من بين الكرادلة وغيرهم من الموظفين فى بلاطنا من يحيون هذا النوع من الحياة . وإذا شئتم الحقيقة قلت لكم إنه

الترف والأبهة الكاذبة زادا فى بلاطنا على الحد ؛ وهذا هو الذى يجعل الناس يمقتوننا مقتاً يمنعهم من أن يستمعوا لنا ، حتى حين ننطق بما هو حق ومعقول . وماذا تظنون أنا فاعلوه فى هذه الحال التى تجللنا العار ؟ . . . . يجب علينا أن نبحث عن الوسائل التى كسب بها أسلافنا ما كان لهم من سلطان واحترام فى داخل الكنيسة. . . . ثم علينا بعد ذلك أن نحتفظ بسلطاننا بهذه الوسائل ذاتها . إن الذى سما بالكنيسة الرومانية وجعلها سيدة العالم كله هو الاعتدال ، والعفة ، والطهارة ، والغيرة على الدين . . . واحتقار الدنيا ، والرغبة فى الاستشهاد(٣٦) .

وقدر على البابا أن يقاسى إخفاقاً بعد إخفاق فى اتصالاته بالدول الأوربية مع أنه لاقى قبل أن يجلس على عرش البابوية نجاحاً مطرداً فى مهامه الدبلوماسية : نعم إن لويس الحادى عشر قد أتاح له نصراً قصير الأجل بإلغائه قرار بورج التنظيمى ، ولكن لويس عاد فألغى هذا الإلغاء فى واقع الأمر لما رفض بيوس أن يساعد بيت أنجو فيما كان يدبره من الخطط لاسترداد نابلى . وواصلت بوهيميا ثورتها التى ألهب لظاها چون هوس John Huss ؛ ذلك أن الإصلاح الدينى كان قد بدأ فيها قبل أيام لوثر Luther بقرن كامل ، وكان ملكها الجديد چورج پوديبراد George Podebrad يمدها بمعونته القديمة . وظل رجال الدين على اختلاف درجاتهم يؤيدون الأمراء الألمان فى مقاومتهم لجباية العشور ، وجددوا الصيحة القديمة صيحة عقد مجلس عام لإصلاح الكنيسة والإشراف على أعمال البابا . ورد بيوس على هذا بإصدار قرار اللعن الذى يندد بأى محاولة ترمى إلى عقد مجلس عام لا يوافق البابا على عقده ، ويكون هو الداعى إليه ، ويحرم هـــذه الدعوة ؛ وبرز هذا القرار بقوله إنه إذا كان فى مقدور المعارضين لسياسة البابوات عقد هذا المجلس فى أى من الأوقات ، تعرضت حقوق البابا التشريعية للإخطار على الدوام ، وشل النظام الكنسى من أوله إلى آخره .

وأفسد هذا النزاع ما كان يبذله البابا من جهود لتوحيد أوربا ضد الأتراك ؛ وجهر يوم تتويجه نفسه بارتياعه الشديد من تقدم المسلمين بإزاء نهر الدانوب فى طريقهم إلى ڤينا ، واختراقهم بلاد البلقان إلى البوسنة . وكانت بلاد اليونان ، وإپيروس ، ومقدونية ، والصرب ، والبوسنة تتساقط كلها فى أيدى المسلمين . ومنذا الذى كان يستطيع أن يقول متى يعبرون البحر الأدرياوى وينقضون على إيطاليا ؟ ولم يمض على تتويج پيوس شهر واحد حتى أرسل إلى جميع الأمراء المسيحيين يدعوهم للانضمام إليه فى مؤتمر كبير يعقد فى مانتوا ليضعوا الخطط التى تكفل حماية العالم المسيحى الشرقى من تيار العثمانيين الجاوف :

ووصل هو إلى مانتوا فى السابع والعشرين من مايو عام ١٤٥٩ ، يرتدى أفخم الأثواب الخاصة بمنصبه الرفيع ، واخترق المدينة فى محمل يحف به أعيان المدينة وموظفو الكنيسة . وألقى على الجموع المحتشدة لاستقباله خطبة من أقوى الخطب التى ألقاها فى حياته وأعظمها تأثيراً . ولكن أحداً من ملوك الأقاليم الواقعة وراء الألب وأمراءها لم يلب الدعوة ، بل لم يرسل واحد منهم ممثلين لهم الحق فى أن يزجوا بدولتهم فى الحرب . ذلك أن النزعة القومية قد بلغت وقتئذ من القوة ما يجعل البابوية تتضرع بغير جدوى أمام عروش الملوك . وحث الكرادلة البابا على الرجوع إلى رومة ؛ ولم يكونوا فضلا عن هذا راغبين فى أن ينزلوا عن عشر إيرادهم لتمويل الحرب الصليبية المرتقبة . فنهم من انغمسوا فى ملاذهم ، ومنهم من جابهوا پيوس بسؤاله هل يريد منهم أن يموتوا بالحمى فى صيف مانتوا الشديد الحرارة ؟ وانتظر البابا قدوم الإمبراطور زمناً طويلا ؛ ولكن فردريك الثالث آثر أن يعلن الحرب على المجر يريد بذلك أن يضم إلى ملكه الأمة التى كانت أنشط الأمم استعداداً لمقاومة الأتراك ، آثر هذا على القدوم لمساعدة الرجل الذى قدم له فيما مضى أجل الخدمات . واشترطت فرنسا لمعونتها أن يؤيدها البابا فى حملة لها

على نابلى ، وتلكأت البندقية خشية أن تكون أملاكها الباقية لها فى بحر إيجة أولى ضحايا الحرب التى تنشب بين أوربا المسيحية والأتراك . وجاءت أخيراً بعثة فى شهر أغسطس من فليپ الطيب دوق برغندية ؛ وفى سبتمبر أقبل فرانتشيسكو اسفوردسا وتبعه غيره من أمراء إيطاليا ؛ وعقد المؤتمر أولى جلساته فى السادس والعشرين من هذا الشهر بعد أربعة أشهر من قدوم البابا ؛ ومرت أربعة أشهر أخرى فى الجدل والنقاش ، واستطاع فليپ آخر الأمر أن يضم برغندية وإيطاليا إلى جانبه فى خطته المرتقبة للقيام بحرب مقدسة ، وذلك بعد أن اتفق المؤتمرون على تقسيم الأملاك التركية وقتئذ والأملاك البيزنطية السابقة بين الدول المنتصرة . وقد طلب إلى جميع المسيحين من غير رجال الدين أن يتبرعوا بجزء من ثلاثين من دخلهم ، وإلى جميع اليهود بجزء من عشرين منه ، ومن جميع رجال الدين بجزء من عشرة من هذا الإيراد . وعاد البابا إلى رومة وهو يكاد يكون خائر القوى من أثر ما بذله من جهود ، ولكنه أمر بإنشاء أسطول بابوى ، وأعد العدة رغم ما كان ينتابه من أمراض الرئية ، والسعال ، والحصاة لأن يقود الحملة الصليبية بنفسه .

ولكنه مع ذلك كان يهاب الحرب بفطرته ، ويحلم بأن ينال النصر عن طريق السلم . ولعل ما كان يشاع من أن محمـــداً الثانى الذى كانت أمه مسيحية يميل فى السر إلى دينها قد بعث الشجاعة فى قلب پيوس ، فوجه إلى السلطان (١٤٦١) دعوة حارة لقبول إنجيل المسيح كانت أبلغ ما كتب حتى ذلك الوقت :

« إذا اعتنقت المسيحية ، لم يبق أمير على وجه الأرض يفوقك فى المجد أو يضارعك فى السلطان . ولئن فعلت لنعترفن بك إمبراطوراً على اليونان وعلى بلاد الشرق ، وتصبح البلاد ، التى استوليت عليها بالقوة ، والتى تحتفظ بها ظلماً وعدواناً ، ملكاً لك مشروعاً . . . وما أعظم السلم التى

يؤدى إليها هذا العمل وأكملها . إذن لعاد إلى الوجود عصر أغسطس الذهبي الذى يتغنى به الشعراء . فإذا انضممت إلينا فلن يلبث الشرق كله أن يعتنق الدين المسيحى . إن إرادة واحدة تستطيع أن تبسط لواء السلم على العالم كله ، وهذه هى إرادتك ! »(٣٧) .

ولم يرد محمد الثانى هذه الرسالة ؛ ذلك أنه ، مهما تكن آراؤه الدينية ، كان يعلم أن الذى يحميه آخر الأمر من قوى أوربا الغربية ليس هو وعود البابا ، بل الحماسة الدينية التى تضطرم فى قلوب شعبه . وانقلب پيوس رجلا أكثر واقعية مما كان قبل ، فأخذ يجمع العشور من رجال الدين ؛ وهيأت له الأقدار فى عام ١٤٦٢ حظاً غير مرتقب ، وذلك حين عثر فى أرض من الأملاك البابوية فى طلفا Tolfa فى غربى لاتيوم على واسب من حجر الشب ؛ واستخدم عدة آلاف من الرجال ليعملوا فى استخراج هذه المادة العظيمة القيمة للصباغين ؛ وسرعان ما كانت مناجمها تدر على كرسى البابوية نحو مائة ألف فلورين كل عام وأعلن پيوس أن هذا الكشف من المعجزات ، وأنه معونة من عند الله للحرب التى سيشنها على الأتراك (٣٨) ، وأضحت الولايات البابوية فى ذلك الوقت أغنى دولة فى أوربا ، تليها فى ذلك البندقية التى لا تنقص عنها إلا قليلا ، ثم ناپلى ، فميلان ، ففلورنس ، فمودينا ، فسينا ، فمانتوا(٣٩) .

وأيقنت البندقية أن البابا جاد فى غرضه مصمم على بلوغه ، فأسرعت فى استعدادها . ولكن الدول الأخرى تلكأت ، أو أمرت بتقديم معونة رمزية ، وواجهت جباية الضرائب اللازمة للحملة الصليبية مقاومة عنيفة فى كل مكان تقريباً . وفترت همة فرانتشيسكو اسفوردسيا فى مديد المساعدة لهذا المشروع بحجة أنه سيؤدى إلى تقوية البندقية إذ يعيد إليها ما فقدته من أملاكها ومن تجارتها ، وضنت چنوى بالثمان السفن ذات الصفوف الثلاثة

من المجاذيف وهى المعونة التى وعدت بتقديمها . وحث دوق برغندية البابا على أن يؤجل العمل إلى يوم يكون فيه أسعد حظا من أيامه تلك ؛ ولكن پيوس أعلن أنه ذاهب إلى أنكونا ، لينتظر فيها انضمام الأسطوابن البابوى والبندقى ، ثم يعبر بهما إلى راجوسا **Ragusa** ، وينضم إلى قوات اسكندر بك فى البوسنة ، وماثياس كرڤينوس **Mathias Corvinus** الهنغارى ، ثم يتولى بنفسه قيادة الحملة الزاحفة على الأتراك . واحتج الكرادلة كلهم تقريباً على هذه الخطة ؛ ذلك أنهم لم يكونوا يرغبون فى اختراق بلاد البلقان ، وحذروا البابا من أحوال البوسنة التى كانت تعج بالمارقين من الدين ويفشو فيها الطاعون . غير أن البابا المريض حمل الصليب ، وودع رومةاالتى لم يكن يتوقع أن يراها مرة أخرى ، وأقلع بأسطوله إلى أنكونا (١٨ يونية سنة ١٤٦٤) .

وفى هذه الأثناء كانت الجيوش التى يظن أنها ستقابله قد ذابت كأنما كان ذلك بسحر ساحر شرقى . فأما الجيوش التى وعدت بها ميلان فى أول الأمر فلم تأت ، وأما التى بعثت بها فلورنس فقد كانت مجهزة تجهيزاً بلغ من الضعف حداً جعلها عديمة النفع ؛ ولما وصل پيوس إلى أنكونا (١٩ يولية) وجد أن معظم الصليبيين الذين تجمعوا فيها قد غادروها لأنهم سئموا الانتظار ، وقاسوا المتاعب فى سبيل الحصول على الطعام . وفشا الطاعون فى أسطول البندقية بعد أن غادر أمواهها الضحلة ؛ وأخر وصوله اثنى عشر يوما . وبقى پيوس بعض الوقت فى أنكونا بعد أن فت فى عضده اختفاء الجند ، وعدم ظهور أسطول البنادقة ، واشتدت عليه العلة حتى كادت تقتله . ثم تراءى له الأسطول آخر الأمر ؛ وبعث البابا بسفائنه لتستقبله فى عرض البحر ، وأمر فحمل هو نفسه إلى نافذة يستطيع أن يرى منها المرفأ . ولما اقترب الأسطولان المتحدان بحيث يمكن أن تراهما العين توفى البابا (١٤ أغسطس سنة ١٤٦٤) . واستعادت البندقية أسطولها .

وتفرق من كان باقياً من الجند ، وأخفقت الحملة الصليبية ذلك هو البابا الألمعي المتعدد المواهب الذى ارتقى إلى الدرجات العلا ، والذى أحرز وسط الصعاب الجمة نصراً بعد نصر حتى وصل إلى عرش العروش ، فزانه بعلوم الدنيا وفضائل المسيحية ، وشرب كأس الإخفاق والإذلال ، والهزيمة حتى الثمالة ، لكنه قد كفر عن خطايا شبابه ونزوعه وتعواه فى رجولته ، وسربل أقرانه الساخرين منه ثوب العار بعد موته .

الفصل الخامس

بولس الثانى : ١٤٦٤ - ١٤٧١

كثيراً ما تذكرنا سير عظماء الرجال بأن أخلاق الإنسان يمكن أن تتكون بعد مماته . فإذا استطاع الحاكم مثلا أن يدلل المؤرخين الإخباريين الذين يلتفون به ، فقد يرفعونه بعد موته إلى مكان القداسة ، وإذا ما أساء إليهم فقد يسمون جثته بعد مماته بميسم العار ، أو يلطخونها بالقار ، وشاهد ذلك أن پولس تنازع مع پلاتينا ، وأن پلاتينا كتب سيرته التى يعتمد عليها معظم ما كتب عن بولس ، وأسلمه للخلف وحشا ملء إهابه الغرور ، والأبهة الكاذبة ، والشره .

وكان لهذا الاتهام بعض ما يبرره ، وإن لم يزد هذا المبرر على أكثر مما يوجد فى أية سيرة لا يخفف البر حدتها . لقد كان پيترو باربو ، كردنال سان ماركو ، يفخر بجمال مظهره كما يفخر بذلك الناس كلهم تقريباً ؛ ولما أن اختير بابا اقترح أن يسمى فورموزوس Formosus — أى الوسيم الخلق — وأكبر الظن أن ذلك كان من قبيل المزاح ؛ لكنه رضى أن يعدل عن رأيه ، واتخذ لقب بولس الثانى . وكان بسيطاً فى حياته ؛ ولكنه كان يعرف ما للفخامة من تأثير يخدر نفوس من حوله ، فاحتفظ لنفسه ببلاط فخم ، وكان سخيا جوادا فى استضافة أصدقائه وزائريه . ولما دخل المجمع المقدس الذى اختاره بابا تعهد بأنه إذا اختير سيشن الحرب على الأتراك كما تعهد غيره من البابوات ، وأن يعقد مجلساً عاماً ، وأن يحدد عدد الكرادلة بأربعة وعشرين ، وألا يتجاوز عدد أقارب البابا من بينهم كردنالا واحداً ، وألا يرفع أحداً إلى مرتبة الكردنالية إذا لم يبلغ سن الثلاثين ، وأن يستشير الكرادلة فى جميع الشئون الخطيرة . فلما تم انتخاب بولس نبذ كل ما أخذه

على نفسه من مواثيق بحجة أنها تناقض التقاليد والسلطات المرعية التى رفع الزمان شأنها . واسترضى الكرادلة بأن جعل أدنى حد لإيرادهم السنوى أربعة آلاف فلورين (١٠٠٫٠٠٠ ؟ دولار) . وكان وهو ابن أسرة من التجار يعتز بالفلورينات ، والدوقات ، والسكوديات ، والجواهر التى تظهر ثراء المرء أمام الأعين . وكان يلبس تاجاً بابوياً تزيد قيمته على قيمة قصر من القصور . وكان وهو كردنال يشغل أوقات الصائغين بصنع الجواهر ، والدليات ، والحلى المنقوشة التى كان يتجلى بها ثراؤه بأجلى المظاهر ؛ وقد جمع هذه كلها مع مخلفات الفن القديم الغالية الثمن فى قصر سان ماركو الفخم الذى بناه لنفسه عند قاعدة الكبتول(*) . ولكنه رغم حبه الجم للجمال لم ينحط إلى بيع المناصب الكهنوتية ، ومنع بيع صكوك الغفران ، وحكم رومة حكماً عادلا وإن لم يكن رحيما .

وشر ما يذكره عنه الخلف هو نزاعه مع الإنسانيين الرومان : فقد كان بعض هؤلاء أمناء للبابا أو الكرادلة ، وكانت كثرتهم الغالبة تشغل مناصب أقل من هذا المنصب شأناً ، فكانوا « كتاب مختصرات » أو حفظة سجلات للحكومة البابوية . وفصل بولس هذه الجماعة كلها ووزع عملها على إدارات أخرى ، فأصبح نحو سبعين من أولئك الكتاب الإنسانيين بلا عمل أو عينوا فى مناصب أقل من مناصبهم السابقة أجراً ، ولسنا نعلم أكان هذا إجراء يراد به الاقتصاد أم كان يقصد به تخليص « هيئة المختصرين » من أهل سينا الثمانية والخمسين الذين عينهم فيها بولس الثانى . وكان أفصح أولئك الإنسانيين المفصولين لسانا هو بارتولميو ده ساتشى Bartolommeo de Sacchi الذى اتخذ له اسماً لاتينياً هو پلاتينا اشتقه من موطنه پيادينا Piadena القريبة من كريمونا ؛ وقد طلب إلى البابا أن يعيد

(*) وأهد بيوس الرابع هذا القصر إلى البندقية ، ومن ثم عرف فيما بعد باسم قصر البندقية Prlazza Venezia . وقد اتخذ بنيتو مسولوينى مقره الرسمى أثناء الحكم الفاشى .

الكتاب المفصولين إلى مناصبهم ، فلما رفض بولس طلبه وجه إليه خطاب تهديد ، فأمر بولس بالقبض عليه ، وأبقاه أربعة أشهر فى سانت إنچيلو ، مقيداً بسلاسل ثقال . واستطاع الكردنال جندساجا أن يطلق سراحه ، ولكن بلاتينا كان يسعه ، كما ظن بولس ، أن يظل يترقب فرصته .

وكان زعيم الإنسانيين فى رومة هو يوليو بمپونيوليتو Julio Pomponio Leto ، ويقال إنه ابن غير شرعى للإمير سانسفرينو من سالرنو . ووفد يوثيو على رومة فى شبابه ، واتصل بثلا وأصبح من تلاميذه ، وخلفه أستاذاً للغة اللاتينية فى الجامعة . وأولع بالأدب الوثنى ولعاً جعله يعيش فى رومة كما كانت فى أيام كاتو وقيصر ومعاصريهما لا كما هى فى عهد نقولاس الخامس أو بولس الثانى . وكان أول من نشر كتابى ڤارو Varro وكولوملا القديمين فى الزراعة ، واتبع القواعد التى وضعاها فى العناية بكرومه . وبقى الرجل قانعاً راضياً بشعره العلمى ، يقضى نصف وقته بين الآثار التاريخية ، يتحسر على نهبها وتخريبها ، وصبغ اسمه صبغة لاتينية فسمى نفسه بمپونيوس لينوس ، وكان يسير إلى حجرة دراسته فى ثياب رومانية . وقلما كانت قاعة من القاعات تتسع للجموع التى تحتشد عند مطلع الفجر لتستمع إلى محاضراته ، وبلغ من شدة الزحام أن كان بعض الطلاب يفدون فى منتصف الليل كى يجدوا لهم مكانا . وكان يحتقر الدين المسيحى ، ويتهم وعاظه بالنفاق ، ويدرب تلاميذه على آداب الرواقيين لا على آداب المسيحين . وقد جعل بيته متحفاً للعاديات الرومانية ، وملتقى لطلاب المعارف الرومانية ومعلميها ؛ وقد نظمهم حوالى عام ١٤٦٠ فى مجمع علمى رومانى ، اتخذ أعضاؤه لهم أسماء رومانية ، وسموا أبناءهم وقت تعميدهم أسماء رومانية أيضاً ، واستبدل بالدين المسيحى عبادة دينية هى عبادة عبقرية رومة ؛ ومثل مسالى لاتينية ، واحتفل بتأسيس رومة احتفالات وثنية سمى الأعضاء الذين يقومون بالخدمة فيها القساوسة وأطلق على ليتوس اسم الكاهن الأعظم وكان من الأعضاء

المتحمسين من يحلم بإعادة الجمهورية الرومانية(٤٠) .

وتقدم أحد المواطنين إلى الشرطة البابوية فى أوائل عام ١٤٦٨ بتهمة قال فيهـــا إن المجمع العلمى يأتمر بالبابا ليخلعه ويعتقله . وأيد التهمة بعض الكرادلة ، وأكدوا للبابا أن إشاعة راجت فى رومة تقول إنه سيموت بعد وقت قصير . وأمر بولس باعتقال ليتوس ، وبلاتينا وغيرهما من زعماء المجمع ، فكتب بمپونيوس معتذراً متذللا ومعلناً اعترافه بالدين القويم ؛ فأطلق سراحه بعد العقاب اللائق بأمثاله ، وواصل محاضراته ولكنه حرص على أن يجعلها مطابقة للدين ، حتى أن أربعين من الأساقفة شيعوا جنازته بعد موته (١٤٩٨) أما بلاتينا فقد عذب ليقر بوجود مؤامرة . ولم يعثر قط على دليل يثبت وجودها ، ولكن بلاتينا ظل فى السجن عاما كاملا رغم كتب من رسائل الاعتذار التى تزيد على عشر . وأعلن بولس حل المجمع بحجة أنه معشش الإلحاد ، وحرم تدريس الآداب الوثنية فى مدارس رومة . وأجاز البابا الذى خلفه إعادة فتح المجمع بعد أن عدل وأصلح ، وعهد إلى بلاتينا بعد أن تاب وأناب الإشراف على مكتبة الفاتيكان ؛ وفيها وجد المادة التى أخذ منها سيرته الواضحة الظريفة للبابوات ؛ ولما وصل فى كتابته إلى بولس الثانى انتقم لنفسه منه ، ولعله لو احتفظ بتهمه لسكستس الرابع لكان أكثر عدلا وإنصافاً .

الفصل الرابع

سكستس الرابع : ١٤٧١ – ١٤٨٤

كان من بين الكرادلة الثمانية عشر الذين اجتمعوا ليختاروا البابا الجديد ، خمسة عشر إيطاليا ؛ وكان ردريجو بورجيا Raderigo Borgia أسپانيا ، ودستوتڤيل d'Estoutevlle فرنسيا ، وبيساريون Bessarion يونانيا . ووصف أحد الذين اشتركوا فى انتخاب الكردنال فرانتشيسكو دلا روڤيرى Francesco della Rovere هـذا الانتخاب بأنه كان نتيجة « الدسائس والرشوة (ex aribtus et corruptelis)[٤١] ، ولكن يبدو أن هذا القول لا يعنى إلا أن بعض الكرادلة قد وعدوا ببعض المناصب ثمناً لأصواتهم . وكان البابا الجديد مثلا فذاً لتكافؤ الفرص (بين الإيطاليين) ومقدرتهم على أن يصلوا إلى عرش البابوية . فقد ولد لأسرة من الفلاحين فى پيكرريلى Pecorile القريبة من سافونا Savona . وكثيراً ما انتابه المرض فى طفولته ، ولذلك نذرته أمه إلى القديس فرانس وهى تدعو الله أن يمن عليه بالشفاء . ولما بلغ التاسعة من عمره أرسل إلى دير من أديرة الرهبان الفرنسيس ثم انضم فيما بعد إلى المنوريين Minorites . ثم اشتغل بعدئذ مربيا خاصاً فى أسرة الروڤيرى التى اتخذ اسمها اسماً له : ودرس الفلسفة واللاهوت فى باريس ، وبولونيا ، وبدوا ، واشتغل بتدريس العلمين فى هذه المدن وفى غيرها لفصول بلغ من ازدحامها أن قيل أن كل عالم إيطالى من علماء الجيل التالى يكاد يكون تلميذه :

ولما صار ، وهو فى السابعة والخمسين من عمره ؛ البابا سكستس الرابع اشتهر بأنه من العلماء المشهورين بغزارة علمهم واستقامة أخلاقهم . وتبدل الرجل بين يوم وليلة تبدلا من أغرب ما حدث فى التاريخ فأصبح سياسياً

ومحارباً . ولما وجد أن أوربا منقسمة على نفسها وأن حكوماتها فاسدة ، وأن هذا الانقسام والفساد يحولان بينها وبين الإقدام على حرب صليبية ضد الأتراك استقر رأيه على أن يكرس جهوده الدنيوية لإصلاح أحوال إيطاليا . وقد وجدها هي أيضاً لا تخلو من الانقسام — فقد كان الحكام المحليون يتحدون سلطة البابا في الولايات البابوية ، وكان في لاتيوم حكم غاشم يقوم به النبلاء متجاهلين سلطان البابا ، وفي رومة غوغاء بلغ من اختلال نظامهم أن رجموا محمله في موكب التتويج بالحجارة لأنهم غضبوا من ..وب اصطدام نشأ من وقوف الفرسان فجاءة . وكان سكستس يعتزم إعادة النظام إلى رومة ، وتقوية سلطان القاصد الرسولي في الولايات البابوية ، وإخضاع إيطاليا لحكم البابا الذي يعمل على توحيدها .

وكان سكستس تحيط به الفوضى من كل جانب ، وكان قليل الثقة بالغرباء ، شديد التأثر بصلات القربى ؛ ولهذا حبا أبناء إخوته الجشعين بمناصب تدر عليهم المال والسلطان . وكان من أشد المحن التي لاقاها في أيام رياسته الدينية أن من يحبهم أعظم الحب كانوا شر الناس جميعاً ، وأنهم استغلوا مراكزهم استغلالا سافلا جلب عليهم احتقار إيطاليا بأجمعها . وكان أحب الناس إليه بيترو (أو بيرو) رياريو Pietro (Piero) Riario ابن أخيه — وهو شاب وسيم الطلعة إلى حد ما ، مرح ، فكه ، مجامل ، كريم ، ولكنه مولع بالترف والشهوات الجسمية ولعاً لم تستطع معه المناصب الكهنوتية التي حباه بها البابا والتي تدر عليه المال الوفير أن توفي بمطالب هذا الراهب الذي كان من قبل معدماً متسولا . وعينه سكستس كردنالا في الخامسة والعشرين من عمره (١٤٧١) ، ونفحه بأسقفيات تريفيزو ، وسنجاليا Senigallia ، واسپالاتو ، وفلورنس ، كما نفحه بمراكز أخرى عالية الشأن ، درت عليه دخلا قدره ستون ألف دوقة (٠٠٠ ر ٥٠٠ ر ١ ؟ دولار) كل عام . وكان بيرو ينفق هذا الدخل كله ، وأكثر منه ، في شراء آنية من الفضة والذهب ، والثياب الجميلة ، والسجف المنقوشة ، والأقمشة

المطرزة ، وعلى الحاشية الفخمة ، وحيوانات الصيد التي تكلفه الأموال الطائلة ، وعلى مناصرة المصورين ، والشعراء ، والعلماء . وكانت حفلاته — ومنها مأدبة دامت ست ساعات استقبل فيها هو وجوليانو Guiliano ابن عمه فى رومة اليونورا Eleonora ابنة فيرانتى Ferrante . وقد بلغ البذخ فيها درجة لم ير لها نظير منذ أيام لوكلس Lucullus أو نيرون . وأخل السلطان باتزان عقله فقام برحلة كرحلات القواد المظفرين فى فلورنس ، وبولونيا ، وفيرارا ، والبندقية ، وميلان ، كرم فى كل واحدة منها كما يكرم كل أمير يجرى فى عروقه الدم الملكى ، وكان يعرض فيها عشيقاته يرتدين أفخم الثياب ، وكان فى هذه الرحلات يعد العدة ليكون بابا بعد ممات عمه أو قبل مماته . ولكنه توفى قبل أن يعود إلى رومة (١٤٧٤) من إسرافه على نفسه . وكان وقتئذ فى الثامنة والعشرين من عمره بعد أن أنفق ٢٠٠٫٠٠٠ دوقة فى عامين وبعد أن استدان ستين ألفاً أخرى(٤٢) . وعين أخوه جيرولامو قائداً لجيوش البابا ؛ وسيداً لإمولا Imola وفورلى Forli ؛ وقد تحدثنا عنه بما فيه الكفاية عند كلامنا على هذين البلدين . وعين ابن أخ آخر للبابا مديراً لشرطة رومة ، ولما مات خلفه أخوه چيوڤنى فى هذا المنصب . وكان أقدر أبناء الإخوة جميعاً جوليانا دلا روڤيرى الذى يحتاج إلى باب خاص فى هذا الكتاب حين يصبح البابا يوليوس الثانى . وكانت حياته طيبة صالحة إلى حد معقول ، وقد ارتفع إلى عرش البابوية بعد أن تغلب على كل ما فى طريقه من صعاب بقوة عقله وخلقه .

وأحدثت الخطط التى وضعها سكستس لتقوية البلاد البابوية اضطراباً لدى الحكومات الإيطالية الأخرى . فقد كان لورندسو ده ميديتشى ، كما ذكرنا من قبل يعمل على ضم إمولا لفلورنس ؛ ولكن سكستس سبقه فى مسعاه واتخذ آل پاتسى Pazzi مصرفيين للبابوية بدل الميديتشيين ؛ فما كان من لورندسو إلا أن عمل على خراب آل پاتسى المالى ؛ ورد هؤلاء بأن حاولوا قتله . ووافق سكستس على المؤامرة ولكنه استنكر

القتل ، وقال للمتآمرين « افعلوا ما شئتم على شريطة أن تتجنبوا القتل »[٤٣] ، وأسفرت هذه الأعمال عن حرب دامت (١٤٧٨ — ١٤٨٠) حتى هدد الأتراك باحتياج إيطاليا . فلما زال هذا الخطر ، أتيحت لسكستس مرة أخرى فرصة تحرير الولايات البابوية . وحدث فى أواخر عام ١٤٨٠ أن انقرضت أسرة أرد يلفى Ordelaffi الطغاة فى فورلى ، وأن طلب أهلها إلى البابا أن يستولى على المدينة ، فما كان من سكستس إلا أن أمر چيرولامو أن يتولى حكم إمولا وفورلى جميعاً . وعرض چيرولامو أن تكون الخطوة التالية هى الاستيلاء على فيرارا ، وأقنع سكستس وحكومة البندقية بأن يشتركا فى حرب يشنونها على الدوق إركولى Ercole (١٤٨٢) . وبعث فيرانتى صاحب نابلى جنداً للدفاع عن صهره ؛ وساعدت فلورنس وميلان أيضاً فيرارا ، وهكذا وجد البابا أنه قد ألقى بإيطاليا كلها فى أتون وهو الذى بدأ عهده بالسعى إلى نشر لواء السلام على ربوع أوربا . وأحاطت به نابلى من الجنوب ، وفلورنس من الشمال ، وأزعجه اضطراب الأحوال رومة ، فعقد الصلح مع فيرارا بعد عام من الفوضى وسفك الدماء . ولما رفض البنادقة أن يحذوا حذو هاتين المدينتين أصدر قراراً بحرمانهم ، وانضم إلى فلورنس وميلان فى محاربة حليفته السابقة .

وكان أعيان العاصمة قد شعروا أن من حقهم أن يجددوا منازعاتهم التى تسر بها نفوسهم متبعين ذلك سنة الرئيس الدينى المحب للحرب . وكان من العادات المألوفة الطريفة فى رومة أن ينهب قصر الكردنال حين يختار بابا . وحدث حين كان أهالى رومة ينهبون قصر أحد الكرادلة آل روفيرى أن أصيب شاب من أعيان المدينة يدعى فرانتشيسكو دى سانتا كروتشى Francesco di Santa Croce بجرح من يد أحد أبناء أسرة فالى Vall وثأر هذا الشاب لنفسه بأن قطع وتر عقب من جرحه . وانتقم أقارب فالى لقريبهم بشج رأس فرانتشيسكو . وثأر برسپيرو دى سانتا كروتشى

لفرانتشيسكو بأن قتل پيرو مرجانى Piero Margani . وانتشر القتال فى جميع أنحاء المدينة ، وانضمت أسرة أرسينى والقوات البابوية إلى سانتا كروتشى ، ودافع آل كولنا عن أسرة ڤالى ؛ وأسر لورندسو أدونى كولنا Lorezo Oddoni Colonna ، وحوكم ، وعذب حتى اعترف ، ثم أعدم فى سانت أنجيلو ، وإن كان أخوه فبريدسيو Fabrizio قد أسلم سكستس حصنين من حصون آل كولنا أملا فى إنقاذ حياة اورندسو . وانضم برسپيرو كولنا إلى ناپلى فى حربها ضد البابا ، وعاث فى أرض الكمپانيا فساداً ، وأغار على رومة . واستأجر سكستس ربرت مالاتيستا Robert Malatesta من ريمينى ليقود جنود البابا ؛ وهزم ربرت جيوش ناپلى وآل كولنا فى كمپو مورتو Campo Morto ، وعاد ظافرا إلى رومة ، حيث مات من الحمى التى أصيب بها فى مستنقعات كمپانيا . وحل چيرلامو رياريو محله ، وبارك سكستس رسمياً المدفعية التى صوبها ابن أخية على حصون آل كولنا . ولكن جسم البابا انهار بتأثير الأزمات التى توالت عليه ، وإن ظل روحه متعطشاً إلى القتال . وفى شهر يونية من عام ١٤٨٤ أصيب هو أيضاً بالحمى . وجاءته الأخبار فى الحادى عشر من أغسطس بأن حلفاءه قد عقدوا الصلح مع البندقية غير عابئين باحتجاجاته ؛ ورفض هو التصديق على هذا الصلح ، ولكنه مات فى اليوم الثانى .

لقد كان سكستس من كثير من الوجوه مثلا سابقاً ليوليوس الثانى ، كما كان چيرولامو رياريو مثلا لحياة سيزارى بورچيا . كان سكستس قساً استعمارياً شديد الشكيمة يحب الفن ، والحرب ، والسلطان ؛ ويعمل لنيل مآربه دون وخز من ضمير أو مراعاة للآداب ، ولكنه يعمل إليها بهمة وحشية وشجاعة لا تفتر أو ينال غرضه . ولقد خلق لنفسه أعداء . كما خلق غيره من البابوات محبي الحرب ؛ وقد حاول هؤلاء الأعداء أن يضعفوا قواه بتسوئة سمعته . من ذلك أن بعض الثرثارين عللوا إسرافه فى تأييد

بيترو وجيرولامو رياريو بأنهما من أولاده[٤٤] ، ووصفهما آخرون مثل إنفيسورا Infessura بأنه كان يعشقهما ، ولم يترددوا فى أن يتهموا البابا « باللواط »[٤٥](*) . على أن الصورة التى لدينا للبابا سيئة دون حاجة إلى هذه التهم التى لا يقبلها العقل ولا تجد لها ما يؤيدها : فقد كان سكستس يمول حروبه ببيع المناصب الكهنوتية لمن يؤدى عنها أغلى الأثمان ، بعد أن استنفد على أبناء إخوته كل ما خلفه بولس الثانى من الأموال الطائلة . ويروى عنه سفير بندقى معاد له قوله إن « البابا لا يحتاج إلا إلى قلم وحبر لينال كل ما يرغب فيه »[٤٧] . ولكن هذا القول يصدق بهذا القدر نفسه على معظم الحكومات الحديثة ، التى لا تختلف قراطيسها ذات الربح فى كثير من الأحوال عن الوظائف الدينية ذات المرتب الضخم والعمل القليل التى كان البابوات يبيعونها بالمال . على أن سكستس لم يقنع بهذه الوسيلة . فقد احتكر لنفسه بيع الغلال فى جميع الولايات البابوية ؛ وكان يبيع أحسنها فى خارج هذه الولايات ، وأسوأها لشعبه ، ويجنى من وراء ذلك أرباحاً طائلة[٤٨] . وكان قد تعلم هذه الحيلة من حكام زمانه مثل فيرانتى صاحب نابلى ، وفى ظننا أنه لم يطلب لنفسه أكثر مما كان يطلبه غيره من الأفراد المحتكرين لو كانوا فى مكانه ؛ ذلك أن من قوانين علم الاقتصاد غير المسطورة أن ثمن أية سلعة إنما يعتمد على غفلة المشترى . ولكن الفقراء تذمروا — وإنا لنغفر لهم تذمرهم — لأنهم رأوا أن جوعهم يتخذ وسيلة لإشباع ترف آل رياريو . وخلف سكستس وراءه رغم هذه وغيرها من الأساليب التى اتبعها لجمع المال ، ديوناً يبلغ مجموعها ١٥٠٫٠٠٠ دوقة (٣٫٧٥٠٫٠٠٠ ؟ دولار) .

(*) كتب استفانو إنفيسورا تاريخاً لرومة فى القرن الخامس عشر مستمداً من سجلات الأسر ومن ملاحظاته الخاصة . وكان استفانه هذا جمهوريا متحمسا ، يرى أن البابوات حكام مستبدون ؛ وكان فوق ذلك من أشياع آل كولنا ؛ ولهذا كله فإنا لا نستطيع أن نثق به حين يروى تفاصيل قصص عن آثام البابوات لا نجد ما يؤيدها فى مصادر أخرى .

وكان ينفق قدراً كبيراً من دخله على الفن والأشغال العامة ، وقد حاول عبثاً أن يجفف المستنقعات الموجودة حول فولنيو ، وكان يحلم على الأقل بتجفيف مستنقعات بنتينى pontine ، وأمر بتخطيط شوارع رومة الكبرى من جديد وجعلها مستقيمة خالية من الالتواء ، ووسعها ، ورصفها ، وأصلح موارد مياه الشرب ، وأعاد بناء الجسور ، والأسوار ، والأبواب ، والأبراج ، وأقام على نهر التيبر جسر سستو ponte Sisto المسمى باسمه ، وشاد مكتبة جديدة للفاتيكان ومن فوقها معبـــد سستينى ، وأنشأ مرنمة سستينى Cistine Choir ، وأعاد بناء مستشفى سانتواسريتو Santa Spirito المخرب الذى كان عنبره الأكبر يبلغ ٣٦٥ قدماً فى الطول ويتسع لألف مريض . وأعاد تنظيم جامعة رومة وفتح للجمهور متحف الكبتولين الذى أنشأه بولس الثانى قبله ، فكان هذا المتحف بذلك أول المتاحف العامة فى أوربا . وشيدت فى أيام ولايته ، وبتوجيه بتيشيو بنتيلى فى الغالب ، كنيستا سانتا ماريا دلا پاتشى Santa Maria della pace وسانتا ماريا دلا پوپولو Santa Maria dell popolo ، ورممت كنائس أخرى كثيرة . ونحت مينو دا فيسولى Mino da Fiesole وأندريا برنيو Andrea Bregno فى كنيسة سانتا ماريا دلا پوپولو قبراً فخماً للكردنال كرســـتوفورو دلا روڤيرى Cristoforo della Rovere (حوالى ١٤٧٧) كما صور پنتورتشيو فى كنيسة سانتا ماريا ببلدة إراكوئيلى Aracoeli حياة القديس برنردينو السينائى فى مظلمات من أجمل ما وجد من المظلمات فى رومة (حوالى ١٤٨٤) .

وكان الذى صمم معبد سستينو هو چيوڤنى ده دلتشى Giovanni de Dolci ، وكان تصميمه بسيطاً متواضعاً ليقيم فيه البابوات وكبار رجال الدين الصلوات شبه الخاصة . وكان معبداً جميلا يحتوى على ستر رخامى لحرمه من صنع مينو دا فيسولى ، وعلى مظلمات واسعة تقص على الجدار الجنوبى مناظر من حياة موسى ، وعلى الجدار الشمالى مناظر مقابلة لها من

حياة المسيح : واستدعى سكستس إلى رومة لتصوير هذه المناظر أعظم الفنانين فى زمانه : پروچينو ، وسنيوريلى ، وپنتورتشيو ، ودمنيكو ، وبندتوغرلندايو ، وبتيتشلى ، وكوزيمو روزلى ، وپيرو دى كوزيمو ؛ وعرض سكستس جائزة إضافية لأحسن صورة من الصور الخمس عشرة التى رسمها هؤلاء الفنانون هناك . وكان روزلى يدرك تفوق غيره عليه فى التصميم فقرر أن يخاطر بكل شىء فى سبيل بهجة التلوين ؛ وكان زملاؤه الفنانون يسخرون من إسرافه فى اللونين اللازوردى والذهبى ، ولكن سكستس منحه الجائزة .

واستدعى البابا المحارب مصورين آخرين إلى رومة ، ونظمهم فى نقابة ترعاهم شفيعها القديس لوقا ؛ وكان سكستس هوالذى قام له ملتسو دا فورلى بخير أعماله : فقد جاء هذا الفنان إلى رومة حوالى عام ١٤٧٢ بعد أن درس مع پيرو دلا فرانتشيسكا ، وصور فى كنيسة سانتى أپستولى مظلماً يمثل صعود المسيح أثارحماسة ڤاسارى ؛ وقد اختفى هذا المظلم كله ما عدا قطعاً قليلة منه حين جدد بناء الكنيسة فى عام ١٧٠٢ وما بعدها : وصورتا **الملك وعذراء البشارة** المحفوظتان فى معرض أفيزى ظريفتان رقيقتان ؛ وأظرف منهما صورة **الملكين الموسيقيين** Angeli Musicanti أحدهما يعزف على الكمان والثانى على العود — الموجردة فى الفاتيكان . وخيرآيات ملتسو الفنية على الإطلاق هى المظلم المصور فى مكتبة الفاتيكان ، والذى نقل بعدئذ على القماش : وقد صُوِّر فى هذا المظلم القائم أمام عمد المكتبة المزخرفة وسقفها أصدق تصوير وأقواه ستة أشخاص : سكستس راكعاً ، ضخماً ، فخماً ، وعن يمينه پيترو رياريو المرح ؛ ويقف أمامه جوليانو دلا روفيرى القاتم اللون الطويل القامة ، ويركع أمامه پلاتينا صاحب الجبهة العالية يتلقى أمر تعيينه أميناً للمكتبة . ومن خلفه چيوڤنى دلاروفيرى والكونت جيرولامو رياريو ، تلك صورة حية لحبر كانت أيامه مليئة بالأحداث .

وكانت مكتبة الفاتيكان فى عام ١٤٧٥ تحتوى ٢٥٢٧ مجلداً باللغتين اللاتينية واليونانية ، فأضاف إليها سكستس ١١٠٠ مجلد غيرها ، وفتح لأول مرة أبوابها للجماهير . وأعاد الكتاب الإنسانيين إلى سابق مكانتهم وإن لم يكن يؤدى إليهم الأموال بانتظام لانشغاله عنهم بغيرهم من الأعمال . واستدعى فيليلفو إلى رومة ، وظل هذا الرجل رب السيف والقلم متحمساً فى مديح البابا حتى تأخر له مرتبه السنوى البالغ ٦٠٠ فلورين (١٥٫٠٠٠ دولا) واستدعى يوآنس أرجيروپولس Joannes Argyropoulos من فلورنس إلى رومة ، حيث كانت محاضراته فى اللغة اليونانية وآدابها يحضرها الكرادلة ، والأساقفة ، والطلاب الأجانب مثل ريتشلين . واستدعى سكستس إلى رومة كذلك العـــالم الألمانى چوهان مولر رچيومنتانس Johann Muller Regiomontanus — وعهد إليه إصلاح التقويم اليوليوسى ، ولكن مولر توفى بعد عام من مجيئه (١٤٧٦) وكان لا بد أن يتأخر إصلاح التقويم مائة عام أخرى (١٥٨٢) .

ومن أغرب الأشياء أن يصبح راهب من الفرنسسكان وأستاذ للفلسفة واللاهوت أول بابا يوجه النهضة وجهة دنيوية — أو إن شئت الدقة أن يصبح أول بابا من بابوات النهضة يهتم أعظم ما يهتم بدعم سلطان البابوية وجعلها أعظم القوى السياسية فى إيطاليا . ولعلنا إذا استثنينا حالة فرارا Ferrara التى أدى حكامها الأمناء ما عليهم من الالتزامات الإقطاعية ، قلنا إن سكستس كان محقاً كل الحق فى سعيه لأن يجعل الولايات البابوية بابوية بحق ، ولأن يجعل رومة وما حولها مكاناً أميناً للبابوات . وربما غفر له التاريخ ، كما غفر ليوليوس الثانى اتخاذه الحرب وسيلة لبلوغ هذه الغايات . وربما أقر أن دبلوماسيته لم تكن إلا اتباعاً للمبادئ التى كانت تسير عليها الدول الأخرى والتى لا تتقيد بالقيود الأخلاقية . ولكن التاريخ لا يجد شيئاً من المتعة فى أن يشهد أحد البابوات يأتمر مع المغتالين ، ويبارك المدافع ، أو يخوض غمار

الحرب بقوة ارتاع لها أهل زمانه . لقد كان موت ألف رجل عنـــد كامپو مورتو خسارة فى الأرواح أكبر مما حدث فى أية معركة شبت نارها حتى ذلك الوقت فى إيطاليا أثناء النهضة . وكان مما زاد انحطاط الأخلاق فى بلاط رومة التحيز للأقارب بلا مبالاة ، وبيع الرتب الكهنوتية بلا حياء ، والقصف الفاحش الذى كان سنة يجرى عليها أقارب البابا . بهذه الأساليب وغيرها مهد سكستس السبيل إلى إسكندر السادس ، وكان له نصيب فى انحلال إيطاليا الأخلاقى ، لأنه استجاب لدواعى هذا الانحلال . وكان سكستس هو الذى نصب توركوبمادا Torquemada رئيساً لمحكمة التفتيش الأسپانية ؛ وسكستس هو الذى أثارها فى رومة من وباء الهجاء والإباحية فخول محكمة التفتيش الحق فى أن تحرم طبع أى كتاب لا ترغب هى فى طبعه . وكان خليقاً عند موته بأن يعترف بأنه عجز عن القيام بأمور كثيرة — ضد لورنسو ، ونابلى ، وفيرارا ، والبندقية ، وحتى آل كولنا أنفسهم لم يكونوا قد أخضعوا بعد : لكنه نجح نجاحاً باهراً فى ثلاثة أمور : فقد جعل رومة مدينة أصح وأكثر جمالا مما كانت قبله ، وحباها بالهواء الطلق الذى أفاد أهلها قوة ، وأعاد البابوية إلى مكانها بين أقوى الدول الملكية فى أوربا .

الفصل السابع

إنوسنت الثامن : ١٤٨٤ – ١٤٩٢

أكدت الفوضى التي ضربت أطنابها في رومة بعد موت سكستس عجزه عن بلوغ أهدافه . ذلك أن الغوغاء نهبوا الأهراء البابوية ، وسطوا على مصارف الجنويين ، وهاجموا قصر چيرولامو رياريو ، وجرد خدام الفاتيكان هذا القصر من أثاثه ، وتسلحت أحزاب النبلاء ، وأقيمت المتاريس في الشوارع . واضطر چيرولامو أن يقف حملته على آل كولنا ، ويعود على رأس جنوده إلى المدينة ، فعاد آل كولنا إلى الاستيلاء على كثير من حصونهم . ودعى مجمع مقدس عاجل في الفاتيكان تبودلت فيه الوعود والرشا[٤٩] بين الكردنال بورچيا والكردنال جوليانو دلا روڤيري ، وأدت إلى انتخـــاب چيوڤني باتستا تشيبو الچنوي Gioyanni Battisla Cibo of Genoa وتسمى باسم إنوسنت الثامن .

وكان عند انتخابه في الثانية والخمسين من عمره ، طويل القامة ، وسيم الطلعة ، لطيف المعشر ، مسالماً وديعاً إلى حد الضعف ، متوسط الذكاء والتجربة ؛ وقد وصفه أحد معاصريه بأنه « غير جاهل كل الجهل »[٥٠] . وكان له على الأقل ابن وابنة ، ولكنه كان له في أغلب الظن غيرهما من الأبناء[٥١] ، يعترف بهم في صراحة ، ولما ارتدى الثياب الكهنوتية عاش كما يظهر عيشة العزاب . وكان الفكهون من أهل رومة يكتبون النكات عن أبنائه ، ولكن قل من الرومان من كان يأخذ على البابا هذا الإخصاب في أيام شبابه ؛ غير أنهم اعترتهم الدهشة حين احتفل بزواج أبنائه وأحفاده في الفاتيكان .

والحق أن إنوسنت بعد أن صار بابا قد قنع بأن يكون جداً ، وأن يستمتع

بالحب الأبوى والراحة المنزلية : قد منح بوليتيان مائتى دوقة لأنه أهدى إليه ترجمة لكتاب هيرودوت ، ولكنه فيما عدا هذا قلما كان يعبأ بالكتاب الإنسانيين . وظل يعمل على مهل مستعينا بغيره من الرجال لتجديد بناء رومة وتجميلها ، فاستخدم أنطونيو بلا يولو فى بناء بيت بلفدير فى حدائق الفاتيكان ، واندريا مانتنيا فى تصوير المظلمات فى معبد مجاور لهذا البيت ؛ لكنه كان فى الأغلب الأعم يترك تشجيع الآداب والفنون لكبار الموظفين والكرادلة . وجرى على هذه السنة نفسها ، سنة ترك الأمور تجرى فى أعنتها ، فعهد بشئون السياسة الخارجية إلى الكردنال دلا روفيرى ، ثم إلى لورندسو ده ميديتشى . وعرض المصرفى الثرى أن يزوج ابلته مدالينا Maddalena ذات البائنة الكبيرة من فرانتشيسكو تشيبو ابن البابا ، ووافق إنوسنت على هــذا الزواج ، وعقد حلفا مع فلورنس (١٤٨٧) ، وترك من ذلك الحين الفلورنسى المجرب المسالم يقود السياسة البابوية ، واستمتعت إيطاليا بسلم دامت خمس سنين .

وحدثت فى عهد جم حادثة . أشبه ما تكون بالتمثيليات المضحكة يستمتع بها أهل زمانه ، وكانت من أعجب التمثيليات التى حدثت فى التاريخ . وتفصيل ذلك أن بايزيد الثانى وجم ابنى محمد الثانى أوقدوا نار حرب داخلية بعد موت أبيهما (١٤٨١) فى نزاعهما على عرش آل عثمان . ولما هزم جم فى بروصه أراد أن ينجو من القتل بالاستسلام إلى فرسان القديس يوحنا فى جزيرة رودس (١٤٨٢) . وأبقاه رئيس الفرسان بيير دو بسون Pierre d'Aubusson عنده يهدد به بايزيد . وارتضى السلطان أن يؤدى إلى الفرسان ٤٥٫٠٠٠ دوقة كل عام لإنفاقها على جم فى الظاهر ولكنها فى الحقيقة كانت إغراء لهم على ألا يشجعوا جم على المطالبة بعرش السلطنة العثمانية ، وألا يتخذوه عونا نافعاً لهم فى شن حرب صليبية مسيحية على الأتراك ؛ وأراد دوبسون أن يضمن سلامة هــذا الأسير

الذى يدر المال الكثير فبعثه ليقيم تحت حراسة الفرسان فى فرنسا . وعرض كل من سلطان مصر ، وفرديناند وإزبلا ملك أسپانيا وملكتها ، وماتياس كرڤينوس Matthias Corvinus ملك المجر ، وفيرانتى Ferrante ملك ناپلى ، وإنوسنت نفسه ، عرض كل واحد من هؤلاء مبالغ طائلة على أوبسون إذا رضى بأن ينقل چم إلى بلده ليكون فيها مشمولا بعنايته . وفاز البابا بذلك لأنه وعد رئيس الفرسان بقلنسوة حمراء(*) فضلا عن الدوقات ، وأنه ساعد شارل الثامن ملك فرنسا على أن يتزوج آن صاحبة بريطانى ويحصل بذلك على هذه المقاطعة لنفسه . وبناء على هذا سار « التركى العظيم » كما كان چم يسمى فى ذلك الوقت ، فى الثالث عشر من شهر مارس عام ١٤٨٩ فى موكب فخم من الفرسان مخترقا شوارع رومة حتى وصل إلى قصر الفاتيكان حيث سجن سجنا يستمتع فيه بضروب الترف والمجاملة ، وأراد بايزيد أن يضمن حسن مقاصد البابا فبعث إليه بمرتب ثلاث سنين نفقة لچم ، ثم إليه فى عام ١٤٩٢ رأس حربة أكد له أنه هو الذى نفذ فى جنب المسيح . وشك بعض الكرادلة فى هذا ، ولكن البابا أعد العدة لينقل هذا الأثر من أتكونا إلى رومة ، ولما وصل إلى « باب الشعب » (پورتا دل پوپولو Porta del Popolo) تلقاه هو بنفسه وحمله فى موكب فخم رهيب إلى الفاتيكان ، ورفعه الكردنال بورچيا عاليا ليعظمه الناس ثم عاد بعدئذ إلى عشيقته .

وقد وجد إنوسنت صعوبة كبيرة فى موازنة دخله ونفقاته رغم المعونة السخية التى حبا بها السلطان الكنيسة . ولهذا أخذ يجرى على السنة التى جرى عليها سكستس الرابع ، ومعظم حكام أوربا ، فملأ خزائنه بالأموال التى كان يتقاضاها من طلاب المناصب الكبيرة ، ولما وجد ما فى هذا من نفع كبير أنشأ مناصب جديدة وعرضها للبيع ؛ فرفع أمناء البابوية إلى

(*) أى أن يعينه كردنالا . (المترجم)

ستة وعشرين وحصل بذلك على ٦٢٫٤٠٠ دوقة ؛ ثم رفع عدد حاملى الأختام ، وكان واجبهم الثقيل هو مهر القرارات البابوية بخاتم من الرصاص ، إلى اثنين وخمسين ، وجنى من ذلك ٢٥٠٠ دوقة من كل واحد عينه فى المنصب الجديد . ولقد كان يسع الإنسان ألا يرى فى هذه الأعمال ما هو أسوأ من ضريبة تؤدى نظير تأمين على منصب لولا أن من أدوا هذا المال لم يكونوا يعوضون أنفسهم عما أدوه بمرتبهم الضخم فحسب بل بابتزاز المال بأسفل الطرق فى مناصبهم . من ذلك أن اثنين من أمناء البابا أقرا بأنهما زورا فى عامين أكثر من خمسين مرسوما بابويا أحلا فيها بعضهم من الفروض الدينية ؛ وغضب البابا من هذا العمل فأمر بشنق الرجلين وإحراق جثتيهما لأنهما تجاوزا فى السرقة الحد الذى يجيزه منصباهما (١٤٨٩)[٥٢] . وبدا أن كل شىء فى رومة يمكن شراؤه ، من الإعفاء من الأحكام القضائية إلى مقام البابوية نفسه [٥٣] . ويحدثنا أنفيسورا الذى لا يوثق بكثير من أقواله أن رجلا ضاجع ابنتيه ثم قتلهما قد عفى عنه بعد أداء ثمانمائة دوقة[٥٤] ؛ ولما سئل الكردنال بورجيا عن السبب فى عدم إقامة الحد ، أجاب كما تقول الرواية : « إن الله لا يريد أن يموت الآثم ، بل يريد أن يعيش ويؤدى الثمن »[٥٥] . وكان فرانتشيسكتو تشيبو Franceschetto Cibo وغدا مجرداً من الذمة والضمير ، وكان يشق طريقه إلى بيوت الأهلين « لأغراض دنيئة » ؛ ويحرص على أن يستولى على قدر كبير من الغرامات التى تحصلها المحاكم الكنسية فى رومة ، لينفقه فى الميسر . وقد خسر فى إحدى الليالى ١٤٫٠٠٠ دوقة (٣٥٠٫٠٠٠ ؟ دولار) كسبها منه الكردنال رفائيلى رياريو Raffaelle Riario ، ثم شكا إلى البابا بأنه خدع فى اللعب ، وحاول إنوسنت أن يسترد له المال ، ولكن الكردنال أقر بأنه أنفقه على البلاتسا دلا كنتشيليريا Plazza della Cancelleria الذى كان يشيده .

وكان تحويل البابوية إلى سلطة زمنية — انهماكها فى السياسية ، والحرب ، وشئون المال — سببا فى امتلاء هيئة الكرادلة برجال اشتهروا بمقدرتهم الإدارية ، ونفوذهم السياسى ، وقدرتهم على أن يؤدوا أثمان مناصبهم . وقد أضاف إنوسنت إلى مجمع الكرادلة ثمانية آخرين كثرتهم غير صالحة قط لشغل هذه المناصب السامية ، مع أنه وعد ألا يزيد عدد أعضاء هذا المجمع على أربعة وعشرين . وبذلك خلع لقب كردنال على چيوڤنى ده ميديتشى ، وكان ذلك جزءاً من الاتفاق الذى تم بين البابا وبين لورندسو . وكان كثير من الكرادلة رجالا متعلمين تعليما عاليا . خيرين ، مناصرين للآداب ، والموسيقى ، والتمثيل ، والفن . وكانت قلة منهم نقية طاهرة ، وكان منهم من لم يتجاوزوا المراتب الصغرى فى السلك الكهنوتى ولم يصبحوا قسيسين . لكن الكثيرين منهم كانوا رجال دنيا ، تتطلب منهم واجباتهم السياســية ، والدبلوماسية ، والمالية أن يشتغلوا بالشئون الدنيوية ، وكانوا قادرين على أن يواجهوا أمثالهم من الموظفين فى الحكومات الإيطالية أو حكومات البلاد التى وراء جبال الألب بنفس الكفاية العلمية والدهاء السياسى . ومنهم من حذا حذو النبلاء الإيطاليين ، فحصنوا قصورهم واحتفظوا برجال مسلحين يحمونهم من هؤلاء النبلاء ، ومن غوغاء رومة ، ومن غيرهم من الكرادلة(٥٧)(*) ولعل باستور Pastor المؤرخ الكاثوليكى العظيم قد أفرط فى القسوة عليهم بسبب مهامهم الدنيوية حين قال :

لقد كانت المنزلة المنحطة التى وضع فيها لورندسو ده ميديتشى مجمع الكرادلة أيام إنوسنت الثامن قائمة لسوء الحظ على أساس صحيح . فقد كان الكرادلة أسكانيو اسفوردسا Ascanito Sforza ، ورياريو ؛ وأرسينى ،

(*) حدث فى مجمع للكرادلة عقد فى شهر يونيه عام ١٤٨٦ أن لام الكردنال بورجيا زميله الكردنال بالو لأنه ثمل ، فرد عليه بالو بأن قال للكردنال الذى أصبح فيما بعد البابا إسكندر الثالث إنه « ابن الزانية » .

واسكا لفيناتوس Scalfenatus ، وچان ده لابالو Jean de la Balue ، وجوليانو دلا روڤيرى ، وساڤلى Savelli ، وردريجو بورچيا من أبرز الكرادلة الزمنيين ، سرت إليهم عدوى الفساد الذى كان منتشراً فى إيطاليا بين الطبقات العليا فى عصر النهضة . فقد أحاطوا أنفسهم فى قصورهم الفخمة بأكبر ما تتيحه المدنية الراقية من أعظم ضروب الترف ؛ فكانوا يعيشون كما يعيش الأمراء الزمنيون ، ويبدو أنهم كانوا يحسبون أن أثوابهم الكهنوتية ليست إلا زينة تتطلبها مراتبهم ، وكانوا يصيدون ، ويقامرون ، ويقيمون الولائم وضروب التسلية الفخمة ويشتركون فى جميع ضروب المرح التمثيلى الذى تجرى به المساخر المقنعة ؛ وينغمسون فى الفساد الخلقى الطليق من كل قيد ؛ وينطبق ذلك أكثر ما ينطبق على ردريجو بورچيا(٥٨).

وكان الفساد المنتشر فى تلك الطبقة العليا صورة من الفوضى الأخلاقية السائدة فى رومة كما كان من أسباب انتشارها . فقد كان العنف ، واللصوصية ، والسلب والنهب ، والرشوة والتآمر ، والانتقام من الأعمال اليومية العادية . وكان كل صباح يكشف فى الأزقة عن رجال قتلوا فى أثناء الليل . وكان قطاع الطرق يترصدون الحجاج وسفراء الدول ، ويجردونهم من ثيابهم حين يقتربون من عاصمة العالم المسيحى(٥٩) . وكانت النساء يهاجمن فى الشوارع وفى البيوت . وسرقت قطعة من الصليب الحق مغلفة بالفضة من مكان المقدسات فى كنيسة سانتا ماريا فى تراستيڤيرى Trastevere ، ثم وجد خشبه مجرداً من غلافه الفضى فى كرمة(٦٠) . وكان هذا التشكك الدينى واسع الانتشار ، وشاهد ذلك أن أكثر من خمسمائة أسرة فى رومة أدين أفرادها بالإلحاد فى الدين ثم عفى عنهم بعد أن أدوا غرامات . ولعل حكومة البابا المأجورة فى رومة كانت خيراً من محكمة التفتيش المأجورة السفاحة التى كانت أعمالها تروع أسپانيا فى تلك الأيام ، وحتى القساوسة أنفسهم لم يكونوا مبرئين من

الشكوك الدينية ، من ذلك أن أحدهم قد اتهم بأنه استبدل بعبارة التجسد الواردة فى القداس عبارة أخرى من عنده تقول : « أيها المسيحيون البلهاء ، يا من تعبدون الطعام والشراب وتتخذونهما إلهين من دون الله ! »[٦١].

ولما قربت ولاية البابا إنوسنت من نهايتها ظهر المتنبئون يعلنون اقتراب القيامة ، وعلا فى فلورنس صوت سفنرولا يصم ذلك العهد بأنه عهد المسيح الدجال .

وفى ذلك يقول أحد الإخباريين : « فى العشرين من شهر سبتمبر حدث اضطراب شديد فى مدينة رومة ، أغلق التجار على أثره حوانيتهم ، ورجع من كانوا فى الحقول والكروم إلى بيوتهم مسرعين ؛ وكان سبب ذلك ما أعلن من أن البابا إنوسنت قد مات »[٦٢] ؛ ورويت قصص غريبة عما حدث فى ساعات وفاته ، فقيل إن الكرادلة وضعوا جم تحت حراسة خاصة خشية أن يستحوذ عليه فرانتشيسكتو تشيبو ، وإن الكردنالين بورجيا ودلا روفيرى كادا يتلاكمان إلى جانب سرير الميت . وإنفيسورا الذى لا يوثق بأقواله هو مصدر الراوية القائلة إن ثلاثة أولاد ماتوا من كثرة ما نقل من دمائهم إلى البابا المحتضر أملا فى إنقاذ حياته[٦٣] ؛ وأوصى إنوسنت بثمانية وأربعين ألف دوقة (٦٠٠,٠٠٠ ؟ دولار) لأقاربه ، ومات ودفن فى كنيسة القديس بطرس ، وغطى ؛ أنطونيو پلايونو خطيئاته بضريح فخم .

الباب السادس عشر

آل بورچيا

١٤٩٢ — ١٥٠٣

الفصل الأول

الكردنال بورچيا

ولد أظرف بابوات النهضة على الإطلاق فى أكساتيفا Xativa من أعمال أسپانيا فى اليوم الأول من شهر يناير عام ١٤٣١ . وكان والداه ابنى عم كلاهما من آل بورچيا ، وهى أسرة يمكن أن تعد من الأشراف . وتلقى ردريجو Roderigo تعليمه فى أكساتيفا ، وبلنسية ، وبولونيا ، ولما أصبح عمه كردنالا ثم البابا كلكستس الثالث Calixtus III فتح أمام الشباب طريق التقـــدم فى السلك الكهنوتى . وانتقل ردريجو إلى إيطاليا وغير اسمه إلى بورچيا ، وأصبح كردنالا وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، ولما بلغ السادسة والعشرين عين نائباً لقاضى القضاة أى رئيساً للحكومة البابوية وقام بواجبات منصبه بحزم وكفاية ، ونال بعض الشهرة فى حسن الإدارة ، وعاش عيشة التقشف ، واتخذ له كثيراً من الأصدقاء من كلا الجنسين ، ولم يكن بعد ق.آ — ولن يكون حتى يبلغ السابعة والثلاثين من العمر .

وكان فى أيام شبابه وسيم الخلق ، جذاباً حلو الطبع ، حاراً فى عشقه ، مرحاً فى مزاجه ، قوياً مقنعاً فى بلاغته وفكاهته المرحة . وقد بلغ فى هذه الصفات كلها درجة يصعب معها على النساء أن يقاومنه . وإذا كان ردريجو

قد نشأ فى جو التساهل الأخلاقى الذى يسود إيطاليا فى القرن الخامس عشر ، حيث يرى كثيرين من رجال الدين والقساوسة يبيحون لأنفسهم التمتع بالنساء ، فقد قرر ردريجو أن يستمتع بكل النعم التى منحهم ومنحه إياها الله سبحانه . ويروى أن پيوس الثانى لامه مرة لحضوره « رقصا خليعاً مثيراً للشهوات » ١٤٦٠ ، ولكن البابا قبل اعتذار ردريجو وأبقاه نائباً لقاضى القضاة ومعينه وموضع ثقته(١) . وفى ذلك العالم ولد لردريجو ابنه الأول پدرو لويس Pedro Luis أو جىء له به ، وولدت له كذلك ابنته چيرولاما التى تزوجت فى عام ١٤٨٢(٢) : أو جىء له بها . ولسنا نعرف من كانت أم ابنه أو ابنته . وعاش پدرو فى أسپانيا حتى عام ١٤٨٨ ثم انتقل فى ذلك العام إلى رومة حيث مات بعد مجيئه إليها بقليل . ورافق ردريجو پيوس الثانى إلى أنكونا فى عام ١٤٦٤ وهناك أصيب بمرض تناسلى خفيف « لأنه لم ينم بمفرده » على حد تعبير طبيبه(٣) .

ثم عقد حوالى عام ١٤٦٦ صلة أكثر دواماً من صلاته النسائية السابقة مع ڤانتسا ده كاتانى Vanozza de Catanei ، وكانت وقتئذ فى حوالى الرابعة والعشرين من العمر . وكان من سوء الحظ أنها تزوجت بدمينيكو دا رنيانو Domenico d'Arignano ولكن دمينيكو تركها فى عام ١٤٦٨(٤) . وولدت ڤانتسا لردريجو (الذى أصبح قساً فى عام ١٤٦٨) أربعة أبناء : چيوڤنى فى عام ١٤٧٤ ، وسيزارى فى عام ١٤٧٦ ، ولكريدسيا فى ١٤٨٠ ، وچيوفرى فى ١٤٨١ . وقد نسب هؤلاء إلى ڤانتسا على شاهد قبرها . واعترف بهم ردريجو أبناء له فى أوقات مختلفة(٥) . ويوحى وجود هؤلاء الأبناء له واحداً بعد واحد وجود علاقة بين ردريجو وڤانتسا بمفردها(*) ، ولعل الكردنال بورچيا إذا قورن بغيره من رجال الكنيسة يمتاز بقسط من الوفاء والاستقرار

(*) وقد كان رسكو Roscoe حكيما حين قال : « يبدو أن علاقته بڤانتسا كانت علاقة إخلاص وانتظام ، وأنه كان يراها زوجة شرعية ، وإن كان القانون ينكرها بطبيعة الحال »(٦) .

فى علاقاته الذاتية . وكان أباً خيراً رحيما ؛ وكان مما يؤسف له أن ما بذله من الجهود لترقية أبنائه فى المناصب الكنسية لم يكن على الدوام مما يرفع من شأن الكنيسة . ولما أن تطلع ردريجو إلى كرسى البابوية وجد لفانتسا زوجاً متسامحاً ، وعمل على أن تعيش فى رخاء ونعيم . وقد ترملت مرتين ، وتزوجت بعد ترملها ، ثم عاشت فى عزلة بعيدة عن المظاهر الفخمة ، وابتهجت حين علا صيت أبنائها وأثروا ، وحزنت لفراقها إياهم ، واشتهرت بعد ذلك بالتقى والصلاح ، وتوفيت فى السادسة والسبعين من عمرها . (١٥١٨) ؛ وأوصت بأملاكها العظيمة القيمة للكنيسة . وأرسل ليو العاشر رئيس تشريفاته للاشتراك فى موكب جنازتها(٧) .

وإنا لنخطئ فى فهم معنى التاريخ إذا حكمنا على اسكندر السادس من وجهة النظر الأخلاقية فى عصرنا هذا — أو على الأصح فى أيام شبابنا . وكان معاصروه ينظرون إلى خطيئآته الجنسية قبل أن يرقى عرش البابوية على أنها آثام مرذولة حسب قوانين الكنيسة لا أكثر ، ولكنهم يرونها بالنسبة للجو الأخلاقى السائد فى زمانه من الصفات التى يتسامح فيها ويعفى عنها ، بل إن الرأى العام حتى أثناء الجيل المحصور بين الوقت الذى أنب فيه پيوس ردريجو على استهتاره وارتقائه عرش البابوية قد أصبح أكثر تسامحاً فى نظره إلى الانحراف الجنسى وعدم إطاعة قانون الكنيسة الذى يفرض العزوبة على رجال الدين . بل إن بيوس الثانى نفسه كان له أطفال من عشيقاته فى أيام شبابه قبل أن ينتظم فى سلك رجال الدين ، ولقد دعا هو نفسه فى وقت من الأوقات إلى إباحة زواج القساوسة ؛ كذلك كان لسكستس الرابع عدة أبناء ، وجاء إنوسنت الثامن بأبنائه إلى الفاتيكان . ولقد ندد بعضهم بأخلاق ردريجو ، ولكن يبدو أن أحداً لم يذكر شيئاً عن هذه الأخلاق حين انعقد المجلس الذى اختار خلفاً لإنوسنت . وكان خمسة بابوات منهم نقولاس الخامس ذو الفضائل المعقولة قد عينوه فى مناصب موفورة الدخل خلال تلك السنين كلها ، وعهدوا إليه بمهام شاقة ووضعوه فى مناصب عظيمة

التبعة ؛ وبلوح أنهم لم يعبأوا قط بما كان له من أبناء كثيرين (إذا استثنينا منهم بيوس الثانى فى وقت من الأوقات)(٩) . وكان كل الذى عنوا بملاحظته فى عام ١٤٩٢ هو أنه قد عين مرتين نائباً لرئيس المحكمة البابوية العليا ، وأنه قضى فى ذلك المنصب خمساً وثلاثين سنة ، وأن خمسة من البابوات المتعاقبين عينوه وأعادوا تعيينه فيه ، وأنه قام بمهامه بجد وحزم ملحوظين ، وأن فخامة قصره فى الظاهر تخفى وراءها حياة خاصة بسيطة إلى حد عجيب ، وقد وصفه ياقوبو دا ڤلتيرا فى عام ١٤٨٦ بأنه : رجل ذو ذكاء يمكنه من عمل أى شيء يريد ، وذو عقل كبير ؛ وهو خطيب سريع البديهة ، فطن بطبيعته ، حاذق حذقاً عجيباً فى تصريف الأمور »(١٠) . وكان أهل رومة يحبونه ، لأنه متعهم بالألعاب ؛ ولما أن بلغته أنباء سقوط غرناطة فى أيدى المسيحيين متعهم بمصارعة للثيران على الطراز الاسبانى .

ولعل الكرادلة الذين اجتمعوا فى المجمع المقدس قد تأثروا أيضاً بثروته ، لأن المناصب الإدارية التى تولاها خلال حكم خمسة من البابوات قد جعلته أغنى الكرادلة الذين شهدتهم رومة إذا استثنينا دستوتڤيل من هذا التعميم . وكانوا يعتمدون عليه فيما سيمنحه من الهدايا القيمة لمن يعطونه أصواتهم فى الانتخاب ، ولم يخيب هو رجاءهم فيما أملوه . فقد وعد الكردنال أسفوردسا بأن يعينه نائباً عنه فى المحكمة البابوية العليا ، كما وعده بعدة مناصب تدر عليه إيراداً كبيراً ، وبقصر آل بورچيا فى رومة . أما الكردنال أرسينى فقد وعده بأسقفية قرطاجنة الأسپانية وإيراد كنائسها ، وببلدتى منتيتشيلى وسريانو ، وبأن يتولى حكم أقاليم الحدود . ووعد الكردنال ساڤلى Savelli بتشڤيتا كستيلانا Civita Castellana وأسقفية مايورقة ، وما إلى ذلك . وقد وصف إنفيسورا هذه الأعمال بأنها : « توزيع إنجيلى لبضائعه على الفقراء »(١١) . على أنها لم تكن من الأعمال الغير المألوفة ، فقد كان يستخدمها كل مرشح للبابوية ، فى كثير من المجاميع المقدسة الماضية ، كما يستخدمها كل مرشح للمناصب

السياسية فى هذه الأيام . ولسنا واثقين من أن الرشا النقدية كان لها أيضاً نصيب فى هذا الانتخاب[١٢] . وقد كان صاحب الصوت الحاسم هو الكردنال غراردو Gherardo وهو رجل فى السادسة والتسعين من عمره « لا يكاد يحتفظ بقواه العقلية »[١٣] . واندفع الكرادلة جميعاً آخر الأمر فانضموا إلى الجانب الفائز حتى كان انتخاب ردريجو بورچيا بإجماع الآراء (١٠ أغسطس سنة ١٤٩٢) . ولما سئل أى اسم يريد أن يسمى به وهو بابا أجاب بقوله : « باسم الإسكندر الذى لا يقهر » . وكانت هـــذه بداية وتذية اولاية دينية وثنية .

الفصل الثانى

إسكندر السادس

وكان اختيار المجمع المقدس هو الاختيار الذى يريده الشعب . ولم يحدث أن كان ابتهاج الناس بانتخاب البابا مماثلا لابتهاجهم فى هذه المرة[١٤] ، كما لم يكن تتويج واحد من البابوات أفخم من تتويجه . لقد ابتهج الشعب بالموكب الفخم المؤلف من الخيوط البيضاء ، والأشخاص الرمزيين ، والسجف المنقوشة ، والصور الملونة ، والفرسان ، والعظماء ، والجنود الرماة ، والخيالة الأتراك ، والقساوسة السبعمائة ، والكرادلة فى أثوابهم ذات الألوان الزاهية وأخيراً بالإسكندر نفسه ، وهو فى الواحدة والستين من العمر ، ولكنه رائع المنظر ، منتصب طويل القامة ، يفيض صحة ونشاطاً وكبرياء . « رصين الوجه مهيب الطلعة » كما يصفه شاهد عيان[١٥] » ، يبدو كأنه إمبراطور حتى وهو يبارك الجموع المحتشدة . ولم يكن أحد غير عدد قليل من ذوى الأصالة أمثال جوليانو دلا روڤيرى وجيوڤنى ده ميديتشى يبدى مخاوفه من أن يستخدم البابا الجديد ، المعروف بأنه أب مغرم بأبنائه ، سلطانه فى رفع شأن أسرته بدل أن يستخدمه فى تطهير الكنيسة وتقويتها .

وبدأ أعماله بداية حسنة . فقد حدثت فى رومة فى الستة والثلاثين يوماً بين موت إنوسنت وتتويج الإسكندر مائتان وعشرون من حوادث الاغتيال التى عرفت . ولكن البابا الجديد ضرب المثل بأول قاتل قبض عليه ؛ فقد شنق هذا المجرم ، وشنق معه أخوه ، وهدم بيته ، وارتضت المدينة هذه القسوة ، وأخفت الجريمة رأسها ، وعاد النظام إلى رومة ، وابتهجت إيطاليا كلها إذ وجدت يداً قوية تقبض على أزمة الشئون[١٦] .

وكان الأدب والفن يترقبان من يأخذ بناصرهما وقد وجدا فى الإسكندر

نصيرهما ، فقد شاد البابا الجديد كثيراً من المبانى داخل رومة وخارجها ، وتبرع بالمال الذى أنشئ به سقف جديد لكنيسة سانتا ماريا مجيورى مضافاً إلى هدية من الذهب الأمريكى من عند فرديناند وإزبلا ، وأعاد تخطيط ضريح هدريان فأحاله إلى قصر سانت أنچيلو الحصين ، وأعاد زخرفته من الداخل ليجعل منه سجوناً انفرادية للمساجين البابويين ، وأجنحة مريحة للبابوات المنهكين . وأنشأ بين هذا القصر والفاتيكان طريقاً مغطى طويلا وقاه من شارل الثامن فى عام ١٤٩٤ ، وأنجى كلمنت السابع من مكيدة لوثرية أثناء انتهاب رومة . واستخدم بنتورتشيو فى تزيين مسكن بورچيا فى الفاتيكان ، فأعيد بناء أربع من حجره الست ، وفتحت للجمهور أيام ليو الثامن ؛ وتحتوى كوة فى واحدة منها صورة رائعة للإسكندر نفسه — ذات وجه مشرق ، وجسم ممتلئ سليم ، وأثواب فخمة . وفى حجرة أخرى صورت مريم تعلم الطفل القراءة ، وقد وصفها ڤاسارى(١٧) بأنها صورة لجوليا فارنيزى Guilia Farnese وهى عشيقة مزعومة للبابا . ويضيف ڤاسارى إلى قوله السابق أن الصورة تحتوى أيضاً « رأس البابا إسكندر تزدان به » ولكننا لا نرى صورة له واضحة هناك .

وأعاد بناء جامعة رومة ، واستدعى إليها طائفة من المعلمين الممتازين وكان يؤدى إليهم أجورهم بانتظام لم يسمع بمثله فى تلك الأيام . وكان يحب التمثيل ، ويسره أن يمثل طلاب المجمع العلمى فى رومة بعض المسالى والتمثيليات الراقصة فى الحفلات التى تقيمها أسرته ؛ وكان يؤثر الموسيقى الخفيفة على الفلسفة الثقيلة ؛ ومن أعماله أنه أعاد الرقابة على المطبوعات فى عام ١٥٠١ بأن أصدر مرسوماً يحرم طبع أى كتاب إلا بعد أن يوافق عليه كبير الأساقفة المحلى . ولكنه ترك حرية واسعة للهجاء والمناظرة . وكان يضحك من سخريات الفكهين فى المدينة ولا يعبأ بها ، ورفض ما اقترحه عليه سيزارى بورچيا من وجوب تأديب هؤلاء الهجائين .

وقال يوما لسفير فيرارا : « إن رومة مدينة حرة يستطيع كل إنسان فيها أن يقول أو يكتب ما يشاء . وهم يقولون عنى كثيراً مما يسوءنى ولكننى لا أبالى بما يقولون »[١٨] .

وكان تصريفه شئون الكنيسة فى السنين الأولى من ولايته تصريفا يشهد له بالقدرة والكفاية إلى حد غير مألوف . ومن الأدلة على ذلك أن إنوسنت السابع ترك الخزالة مدينة ، « فى حاجة إلى كل ما وهب الإسكندر من مقدرة لإصلاح حال المالية البابوية ، وتطلبت منه موازنة الميزانية سنتين كاملتين »[١٨ ا] .

وقد تدرع إلى ذلك بإنقاص عدد موظفى الفاتيكان ، وتخفيض النفقات ، ولكن السجلات كان يعتنى بحفظها وتدوينها ، وكانت مرتبات الموظفين تؤدى فى أوقاتها[١٩] . وكان الإسكندر يواظب على إقامة المراسم الدينية الشاقة التى يستلزمها منصبه بأمانة ، ولكنه كان يملها ملل الرجل الكثير المشاغل . وكان رئيس تشريفاته رجلا ألمانيا يدعى چوهان بركهارد Johann Burchard ، عمل على تخليد شهرة مولاه وسوء سمعته بأن دون فى يومياته كل ما شاهده تقريباً بما فى ذلك الكثير مما كان الإسكندر يود ألا يطلع عليه الناس . وقد وفى الإسكندر للكرادلة بما وعدهم به فى المجمع المقدس ، بل كان أكثر سخاء لمن كانوا أطول الناس مقاومة له أمثال الكردنال ده ميديتشى ، وعين بعد سنة من توليته اثنى عشرة كردنال جديداً زيادة على الكرادلة الأصليين . ومن هؤلاء من كانوا ذوى مقدرة وكفاية حقة ، ومنهم من عينوا استجابة لرغبة بعض السلطات السياسية التى كان من الحكمة استرضاؤها ؛ وكان اثنان منهم صغيرى السن إلى حد يدعو للقيل والقال ، وهما إيوليتو دست ولم يكن يتجاوز الخامسة عشرة وسيزارى بورچيا وكان فى الثامنة عشرة ؛ ومنهم ألسندرو فرنيزى الذى كان مدينا بمنصبه إلى أخته جوليا فرنيزى وهى فى اعتقاد الكثيرين

عشيقة البابا . وكان أهل رومة طويلو اللسان ، الذين لم يدركوا وقتئذ أنهم سيلقبون ألسندرو فى يوم من الأيام بولس الثالث ، يسمونه الكردنال ذا التنورة . وغضب جوليانو دلا روفيرى أقوى الكرادلة الشيوخ حين وجد أنه وهو الذى كان يسيطر على إنوسنت الثامن ليس له نفوذ عند الإسكندر بعد أن اتخذ الكردنال اسفوردسا مستشاره الأمين وقربه إليه ، وانتابته نوبة من القنط فذهب إلى كرسيه الأسقفى فى أستيا وأنشأ لنفسه حرساً مسلحاً ، ثم فر إلى فرنسا بعد عام من ذلك الوقت ، وطلب إلى شارل الثامن أن يغزو إيطاليا ، ويعقد مجلساً عاماً ، ويخلع الإسكندر الذى لا يتورع عن بيع المناصب الكهنوتية .

وكان الإسكندر فى ذلك الوقت يواجه المشاكل السياسية القائمة أمام بابوية تكتنفها القوى الإيطالية التى تأتمر بها من كل جانب . وكانت الولايات البابوية قد وقعت مرة أخرى فى أيدى طغاة محليين ، يدعون أنهم خدام الكنيسة ولكنهم انتهزوا الفرص التى أتاحها لهم إنوسنت الثامن فاستردوا الاستقلال الفعلى الذى فقدوه هم وأسلافهم فى عهد ألبرنوز أوسكستس الرابع . وكانت الدول المجاورة للمدن البابوية قد استولت على بعض هذه المدن ، فاستولت نابلى مثلا على سورا Sora وأكويليا فى عام ١٤٦٧ ، واستولت ميلان على تورلى فى عام ١٤٨٨ . ولهذا كان أول واجبات الإسكندر هو أن يخضع هذه الولايات تحت حكم بابوى مركزى ، يفرض عليها الضرائب ، كما أخضع ملوك أسبانيا ، وفرنسا ، وإنجلترا السادة الإقطاعيين . وكانت هذه هى المهمة التى عهد بها إلى سيزارى بورجيا والتى أنجزها بسرعة وقسوة جعلت مكيفلى يعجب به ويدهش من مقدرته .

وكان أقرب إلى رومة وأشد مضايقة للبابا وإقلاقاً لراحته النبلاء أشياء المستقلين الخاضعون للبابا نظرياً والمعادون له والخطرون عليه فعلا . وكان

ضعف البابوية من الناحية الزمنية منذ أيام بنيفاس الثامن (المتوفى عام ١٣٠٣) قد ترك لهؤلاء النبلاء سيادة إقطاعية على ضياعهم شبيهة بما كان لأمراء الإقطاع فى العصور الوسطى ، فكانوا يسنون لأنفسهم قوانينهم ، وينظمون جيوشهم ، ويحاربون ، كلما شاءوا ، حروبهم الخاصة غير مبالين بالبابوات أنفسهم ، وقد أدى هذا كله إلى اضطراب النظام وكساد التجارة فى لاتيوم . ولم يمض على ارتقاء الإسكندر عرش البابوية إلا قليل من الوقت حتى باع فرانتشيسكتستوكسيبو إلى فرچنيو أرسينى Virginio Orsini ضياعاً خلفها له والده إنوسنت الثامن بمبلغ ٤٠٫٠٠٠ دوقة (٥٠٠٫٠٠٠ دولار) . ولكن أرسينى هذا كان ضابطاً كبيراً فى جيش نابلى ؛ وكان قد تلقى من فيرانتى الجزء الأكبر من المال الذى ابتاع به الضياع ، والواقع أن نابلى كانت قد امتلكت فى الأراضى البابوية حصنين ذوى مركزين حربيين خطيرين(٢٢). ورد الإسكندر على هذا بأن عقد حلفاً مع البندقية ، وميلان ، وفيرارا ، وسينا ، وبتجنيد جيش ، وتحصين الأسوار القائمة بين سانت أنچيلو والفاتيكان . وخشى فرديناند الثانى ملك أسپانيا أن يؤدى الهجوم المشترك على نابلى إلى القضاء على سلطان أرغونة فى إيطاليا ، فأقنع الإسكندر وفيرنتى أن يتفاوضا ؛ ونفح أرسينى البابا بأربعين ألف دوقة نظير احتفاظه بالأملاك التى اشتراها ، وخطب الإسكندر لابنه چيوفرى ، وكان وقتئذ فى الثالثة عشرة من عمره ، سانتشيا Sancia حفيدة ملك نابلى الحسناء (١٤٩٤) .

وكافأ الإسكندر فرديناند على وساطته الموفقة بأن منحه الأمريكتين . ذلك أن كولمبس كان قد كشف « جزائر الهند » بعد شهرين من تولية الإسكندر ومنح فرديناند وإزبلا تلك البلاد . غير أن البرتغال طالبت بملك العالم الجديد بالاستناد إلى مرسوم صدر من كالكستس Calixtus الثالث (١٤٧٩) . يؤيد فيها امتلاكها جميع الأراضى الواقعة على شاطئ المحيط الأطلنطى . وردت أسپانيا على هذا بأن المرسوم لم يكن يقصد غير الأراضى

الواقعة على الشاطئ الشرقى من ذلك المحيط . وكانت نيران الحرب وشيكة الاشتعال بين الدولتين حين أصدر الإسكندر مرسومين (فى الثالث والرابع من شهر مايو سنة ١٤٩٣) يمنحان أسبانيا جميع الأراضى المكتشفة فى غرب خط وهمى يمتد من أحد القطبين إلى القطب الثانى على بعد مائة فرسخ أسبانى من جزائر أزوره والرأس الأخضر ، كما يمنح البرتغال جميع الأراضى المكتشفة فى شرقه ، مشترطاً ألا تكون الأراضى مما يسكنه المسيحيون ، وأن يبذل الفاتحون كل ما أوتوا من جهد فى أن ينشروا الدين المسيحى بين رعاياهم الجدد . ولم تكن « منحة » البابا بطبيعة الحال إلا تأييداً لحق الفتح بالسيف ، ولكنها حافظت على السلم فى شبه جزيرة أيبيريا ؛ ويبدو أن أحداً لم يفكر قط فى أن لغير المسيحيين أى حق فى الأراضى التى يسكنونها .

وإذا كان فى مقدور الإسكندر أن يوزع القارات ، فقد وجد كثيراً من الصعوبة فى الاحتفاظ بالفاتيكان . فقد حدث عقب وفاة فيرنتى صاحب نابلى (١٤٩٤) أن استقر رأى شارل الثامن على غزو إيطاليا وإعادة نابلى إلى أملاك فرنسا . وخشى الإسكندر أن يخلع من عرشه فخطا تلك الخطوة الخطيرة وهى طلب المعونة من سلطان الأتراك . ولهذا بعث فى شهر يولية من عام ١٤٩٤ بأمين له يدعى چيورچيو بتشياردو **Giorgio Bocciardo** ليحذر بايزيد الثانى من عزم شارل على دخول إيطاليا والاستيلاء على نابلى ، وخلع البابا أو السيطرة عليه ، وتحريض چم على المطالبة بعرش آل عثمان ، واستغلال هذا فى حرب صليبية ضد القسطنطينية . وعرض الإسكندر أن ينضم بايزيد إلى البابوية ، ونابلى ، ضد فرنسا ، وربما انضمت إليهم أيضاً البندقية . واستقبل بايزيد بتشياردو بالحفاوة المأثورة عن الشرقيين ، ورده بالأربعين ألف دوقة المستحقة عليه نظير نفقات چم يصحبه رسول من عنده إلى الإسكندر . ولما وصل بتشياردو إلى سنغاليا **Senigallia** قبض عليه

چيوڤنى دلا روڤير أخو الكردنال الحانق ، واستولى على الأربعين ألف دوقة ، وعلى خمس رسائل قيل إنها مرسلة من السلطان إلى البابا . وتشير إحدى هذه الرسائل على البابا بأن يقتل چم ويرسل جثته إلى القسطنطينية على أن يؤدى السلطان عقب وصولها ثلثمائة ألف دوقة (٣,٧٥٠,٠٠٠ ؟ دولار) : (تستطيع بها ياصاحب العظمة أن تبتاع أملاكاً لأبنائك)[٢٣] . وأرسل الكردنال دلا روڤيرى صوراً من هذه الرسائل إلى ملك فرنسا . وقال الإسكندر إن الكردنال قد زور الرسائل ، وإنه اخترع القصة من أولها إلى آخرها . والشواهد التى لدينا تؤيد رسالة البابا إلى بايزيد ، ولكنها لا تؤيد رد السلطان وتنطق بأنه فى أغلب الظن مزيف[٢٤] . وكانت البندقية ونابلى قد دخلتا من قبل فى مفاوضات مثل هذه مع الأتراك ، وسنرى فرانسيس الأول يحذو حذوهما فيما بعد ؛ ذلك أن الدين عند الحكام إنما هو أداة أدوات السلطان .

وأقبل شارل ، وتقدم مجتازاً ميلان الصديقة ، وأرهب فلورنس . واقترب من رومة (ديسمبر عام ١٤٩٤) . وساعده آل كولنا باستعدادهم لغزو العاصمة . واستولى أسطول فرنسى على أستيا — مرفأ رومة على مصب التيبر — وهدد بمنع وصول الحبوب إليها من صقلية . وأعلن كثيرون من الكرادلة ، ومنهم اسكانيو اسفوردسا تأييدهم لشارل ؛ وفتح ڤرچينو أرسينى قصوره للملك ، وتوسل إليه نصف الكرادلة فى رومة أن يخلع البابا[٢٤] . وانسحب الإسكندر إلى قصر سانت أنچيلو ، وبعث مندوبين عنه ليفاوضوا الفاتح . ولم يكن شارل يريد أن يثير أسبانيا ضده بإقدامه على خلع البابا ، بل إن هدفه كان الاستيلاء على نابلى التى لم يكن ثراؤها يغيب قط عن عقول ضباطه . ولهذا عقـــد الصلح مع الإسكندر مشترطاً أن يسمح لجيوشه باختراق لانيوم دون عائق ، وأن يعفو البابا عن الكرادلة الذين انضموا إلى شارل ، وأن يسلمه چم . وقبل الإسكندر هذه الشروط ، وعاد

إلى الفاتيكان . واستمتع بركوع شارل ثلاث ركعات أمامه ، وتفضل فمنعه من أن يقبل قدمى البابا ، وتلقى من الملك « طاعة » فرنسا الرسمية — أى تخليه عن جميع خططه التى كانت تهدف إلى خلع البابا . وزحف شارل على نابلى فى الخامس والعشرين من يناير ومعه جم ، ومات جم فى الخامس والعشرين من فبراير على أثر نزلة شعبية ، ويقول بعضهم إن الإسكندر الماكر سقاه سماً بطيئاً ، ولكن أحداً لم يعد يصدق هذه القصة(٢٥) .

وما كاد الفرنسيون يرحلون حتى استرد الإسكندر شجاعته وأكبر الظن أنه أيقن فى ذلك الوقت أن ولايات بابوية قوية ، وجيشاً صالحاً ، وقائداً محنكاً لا غنى عنها لسلامة البابوات من سيطرة أصحاب السلطة الزمنية(٢٦) . ولهذا عقد مع البندقية ، وألمانيا ، وأسبانيا ، وميلان حلفاً مقدساً (٣١ مارس سنة ١٤٩٥) هدفه فى ظاهر الأمر الدفاع المتبادل ومحاربة الأتراك ، ولكنه يهدف فى السر إلى طرد الفرنسيين من إيطاليا . وعرف شارل السر ، وارتد إلى پيزا عن طريق رومة ، وأراد الإسكندر أن يتحاشى الاصطدام به فراح إلى أرڤينو وپروجيا . ولما فر شارل عائداً إلى فرنسا دخل الإسكندر رومة دخول الظافرين ؛ وطلب إلى فلورنس أن تنضم إلى الحلف وأن تطرد منها سڤنرولا صديق فرنسا وعدو البابا أو ترغمه على السكوت ؛ وأعاد تنظيم الجيش البابوى ، ووضع على رأسه جيوڤنى أكبر أبنائه الأحياء ؛ وأمره أن يفتح حصون آل أرسينى الثائرة ويضمها لأملاك البابوية . (١٤٩٦) . ولكن جيوڤنى لم يكن قائداً محنكاً ، فهزم فى سريانو Soriano وعاد إلى رومة يجلله العار ، وانغمس فى الشهوات التى أدت فى أغلب الظن إلى موته المبكر . لكن الإسكندر رغم هذا استرد الحصون التى بعث لفرچينو أرسينى ، كما استرد أستيا من الفرنسيين ؛ وبدا له أنه تغلب على كل الصعاب ، فأمر پنتورتشيو أن ينقش على جدران الجناح البابوى فى سانت أنچيلو مظاهرات تمثل انتصار البابا على الملك . وكان الإسكندر وقتئذ قد وصل إلى ذروة مجده .

الفصل الثالث

الآثم

وحمدت له رومة حسن إدارته الداخلية ونجاحه رغم تردده فى سياسته الخارجية ، ولامته لوماً خفيفاً على مغامرات حبه ، ولوماً عنيفاً على سعيه لتوفير الثراء لأبنائه ، وحقدت عليه لتعيينه فى مناصب الدولة برومة حشداً كبيراً من الأسبان كان مظهرهم الأجنبي ولغتهم الأجنبية مثاراً لغضب الإيطاليين . وكان عدد ضخم من الأسبانيين من أقارب البابا قد هرعوا إلى رومة « حتى لم تعد مائة بابوية تكفى ذلك الحشد من أبناء الأعمام » ، كما يقول شاهد عيان(٢٧) . وكان الإسكندر وقتئذ وقد أصبح إيطاليا كاملا فى ثقافته ، وسياسته ، وأساليبه ولكنه لا يزال يحب أسبانيا ، ويتحدث بالأسبانية أكثر مما يجب مع سيزارى ولكريدسيا ، ورفع إلى مقام الكردنالية تسعة عشر أسبانيا ، وأحاط نفسه بخدم ومساعدين قطلانيين ، حتى لقبه الإيطاليون الحاسدون آخر الأمر « البابا الهجين »(٢٨) يشيرون بذلك إلى انحداره من يهود أسبانيين اعتنقوا المسيحية . ورد الإسكندر على هذا بقوله إن كثيرين من الإيطاليين ، وبخاصة فى مجمع الكرادلة ، قد غدروا به ؛ وإنه لا بد أن يجمع حوله طائفة من الأنصار يرتبطون معه برباط الولاء الشخصى القائم على علمهم بأنه هو حاميهم الأوحد فى رومة .

وكان هو ، وأمراء أوروبا حتى زمن نابليون ، يقولون هذا القول عينه ليبرروا ترقية أقاربهم إلى مناصب الثقة والسلطان . وقد ظل البابا(*)

(*) انظر ما يقوله كريتن Creighton : « لم يكن الحلفاء ممن يوثق بهم فى الظروف السياسية الإيطالية المزعزعة إلا إذا اعتمد إخلاصهم على بواعث المنفعة الخاصة لهم . ولهذ فإن —

فترة من الوقت يأمل أن يعينه ابنه جيوفنى على حماية الولايات البابوية ، ولكن جيوفنى ورث عن أبيه حسه المرهف نحو النساء غير مصحوب بقدرته على حكم الرجال . وأدرك الإسكندر أن ابنه سيزارى دون سائر أبنائه هو الذى أوتى العزيمة والصرامة اللتين لا بد منهما لخوض غمار السياسة الإيطالية فى ذلك العصر الملىء بالعنف ، فخلع عليه عدداً كبيراً من المناصب الدينية يدر عليه إيراداً يفى بنفقات هذا الشاب ذى السلطان الم[illegible] الزيادة . وحتى لكريدسيا الظريفة نفسها اتخذت أداة سياسية ، فألفت نفسها وقد ارتقت إلى حكم إحدى المدن أو إلى فراش دوق جليل الشأن . وكان البابا يحب لكريدسيا حبا أدى ببعض المغتابين النامين إلى اتهامه بمضاجعتها وتصويره بالوالد الذى ينافس أبناءه فى عشقها[٢٩] . وقد حدث فى مرتين اضطر فيهما ألكسندر إلى الغياب عن رومة أن عهد إلى لكريدسيا بحجرة فى الفاتيكان وخولها حق فض رسائله وتصريف جميع الشئون العادية . وكان تخويل النساء مثل هذه السلطة كثير الحدوث فى بيوت الحكام بإيطاليا — كما حدث فى فيرارا ، وأربينو ، ومانتوا — ولكن هذا العمل روع رومة نفسها وهى المتخمة بالمفاسد . ولما أن قدم جيوفنى وسانتشيا من نابلى بعد زفافهما ، خرج سيزارى ولكريدسيا لاستقبالها . وهرول الأربعة إلى الفاتيكان ، وسعد الإسكندر بقربهم . وفى ذلك يقول جوتشياردينى **Guicciardini** « لقد اعتاد غير الإسكندر من البابوات أن يخفوا فضائحهم بأن يسموا أبناءهم أبناء إخوانهم ، ولكن الإسكندر كان يسره أن يعرف العالم كله أبناؤه »[٣٠] .

= الإسكندر السادس اتخذ صلات الزواج فى أسرته وسيلة يحيط بها نفسه بحزب سياسى قوى . ولم يكن يثق بأحد غير أبنائه يتخذهم أدوات لتنفيذ خططه » من كتاب . كريتن **M. Creighton** « تاريخ البابوية فى عهد الإصلاح الدينى » الجزء الثالث ٢٦٣. وهذا الأسقف الأنجليكانى لا يضارعه فى نزاهته وغزارة علمه فى هذا الميدان إلا أمانة لدفج فن باستور **Ludwig von Pastor** وعلمه الواسع فى كتابه « تاريخ البابوات » وكان وجود هذين التاريخين العظيمين خليقاً أن يمحو من زمن بعيد غيوم الأقاصيص الخرافية التى نشرها الكتاب المتعزبون حول بابوات النهضة .

وكانت رومة قد غفرت للبابا علاقته بڤانتسا الساذجة ، ولكنها دهشت لعلاقته بجوليا التي تنقلت من عشيق إلى عشيق . واشتهرت جوليا فرنيزى Guilia Farnese بجمالها الرائع ، وخاصة بشعرها الذهبي ؛ فإذا أرسلته ووصل إلى قدميها كان له منظر يلهب دم رجال أقل توقداً من الإسكندر . وكان أصدقاؤها يلقبونها « الجميلة La Belle » . ويصفها سانودو Sanudo بأنها محبوبة البابا ، وأنها فتاة رائعة الجمال ، قوية الإدراك ، رحيمة ، ظريفة »[٣١] . ووصفها إنفيسورا في عام ١٤٩٣ فقال إنها شهدت مأدبة زواج لكريدسيا في الفاتيكان ، وسماها محظية الإسكندر ؛ وأطلق ماتارتسو المؤرخ البيروجي هذا اللقب ذاته على جوليا ولكنه في أغلب الظن كان ينقل عن إنفيسورا ، وسماها أحد الظرفاء الفلورنسيين في عام ١٤٩٤ « عروس المسيح Sposa di Cristo » وتلك عبارة لا تطلق عادة إلا على الكنيسة[٣٢] . وقد حاول بعض العلماء أن يطهروا اسم جوليا بحجة أن لكريدسيا التي دل البحث على نقاء سيرتها — ظلت صديقتها إلى آخر أيامها ، وأن أرسينو أرسيني Orsino Orsini زوج جوليا بنى معبداً تكريماً لذكراها الشريفة[٣٣] . وولدت جوليا في عام ١٤٩٢ ابنة سميت لورا Laura ، قيدت رسمياً منسوبة إلى أرسيني ؛ ولكن الكردنال ألسندرو فارنيزى اعترف بأن الطفلة ابنة الإسكندر نفسه[٣٤] (*) . وينسب إلى البابا أيضاً ابن غامض خفي ولد له من امرأة أخرى حوالى عام ١٤٩٨ ويعرف في يومية بركهارد باسم الطفل رومانوس Infans Romanus[٣٥] . وليست نسبته إلى البابا مؤكدة ، ولكن زيادة واحد أو نقصه في عدد أولئك الأبناء أمر غير ذي بال .

وليس ثمة شك في أن الإسكندر هذا كان رجلا شهوانيا حار الدم

(*) يرى باستور (في الجزء الخامس هامش ص ٤١٧) أن هذا دليل قاطع على إثم الإسكندر ، ولكن المغتابين المعادين للبابا قد سوءوا سمعته تسويئاً يجعل المشفقين عليه لا يتسرعون في الحكم على أخلاقه استناداً إلى هذا الدليل .

إلى درجة لا تتفق قط مع العزوبة : والشواهد على ذلك كثيرة : منها أنه أقام احتفالا عاما فى الفاتيكان مثلت فيه مسلاة (فبراير ، ١٥٠٣) ، وأنه استمتع فى هذه المناسبة بكثير من ضروب الملاهى ، وسره أن يلتف حوله عدد من النساء الرائعات الجمال ، وأن يجلس على مقاعد منخفضة عند قدميه : ذلك أنه كان رجلا ، ويبدو أنه كان يشعر بما يشعر به كثيرون من رجال الدين فى تلك الأيام ، وهو أن فرض العزوبة على رجال الدين خطأ وقع فيه هلدبراند ، وأن الكرادلة أنفسهم يجب أن يسمح لهم بأن يستمتعوا بلذة صحبة النساء ، وإخنهن . وكان يظهر لڤانتسا مشاعر الحنان الزوجى ؛ ولعله كان يظهر لجوليلا الحب الأبوى . لكن إخلاصه لأبنائه ، الذى كان يتغلب فى بعض الأحيان على إخلاصه لمصالح الكنيسة ، يمكن أن يتخذ حجة تبرر بها حكمة القانون الكنسى الذى يفرض العزوبة على القسيسين .

وكان الإسكندر فى السنين الوسطى من ولايته ، وقبل أن يطغى عليه فيها سيزارى بورچيا ، يتصف بكثير من الفضائل . نعم إنه كان فى تصريف الشئون العامة مهيبا ذا شمم وكبرياء ، ولكنه كان فى أحواله الخاصة مرحا ، طيب السريرة ، بشوشا ، حريصا على الاستمتاع بالحياة ، يستطيع أن يضحك ملء شدقيه حين يرى من نافذة غرفته استعراضا للرجال المقنعين « ذوى أنوف مزيفة طويلة كبيرة الحجم فى شكل عضو التذكير »[٣٦] .

وكان وقتئذ بدينا إلى حد ما إذا جاز لنا أن نثق بصورته وهو يصلى التى رسمها له پنتورتشيو والتى يبدو لنا أنها صورة صادقة . ومع هذا فإن كل ما كتب عنه يشهد بأنه كان مقتصدا فى طعامه وشرابه ، وأن مائدته كانت تبلغ من البساطة حدا ينفر منه الكرادلة[٣٧] . وأنه لم يكن يرى حق بدنه أثناء قيامه بالشئون الإدارية ، فكان يقضى فى العمل جزءاً كبيراً من

الليل ، ويراقب بجد ونشاط شئون الكنيسة فى جميع أنحاء العالم المسيحى .

ترى هل كان استمساكه بالدين المسيحى تصنعاً ورياء ؟ أكبر الظن لا . ودليلنا على ذلك أن رسائله حتى التى تختص منها بجوليليا مليئة بعبارات التقى التى لم تكن من مستلزمات الرسائل الخاصة(٣٨) . ولقد كان هو رجل نشاط وعمل تغلبت عليه أخلاق زمانه السهلة غير المتحرجة ؛ حتى لم يكن يرى ، إلا فى القليل النادر من الأوقات ، أن ثمة تناقضاً بين حياته وبين مبادئ الأخلاق المسيحية . وكان كمعظم الذين يستمسكون بقواعد الدين كاملة ، يسلك مسلك رجال الدنيا كاملا . ويبدو أنه كان يشعر أن البابوية فى الظروف المحيطة بها فى عهده تحتاج إلى حاكم سياسى لا إلى ولى من أولياء الله الصالحين . وكان يعجب بالتقى والصلاح ، ولكنه كان يظن أن هذا من مستلزمات الرهبنة والحياة الخاصة ، لا من صفات رجل يضطر إلى أن يعامل فى كل خطوة من خطواته طغاة ، دهاة ، يعملون للكسب والسلطان ، أو دبلوماسيين غادرين لا ذمة لهم ولا ضمير . وانتهى به الأمر إلى اتباع جميع أساليبهم ، واصطناع أكثر ما تحوم حوله الريب من حيل من سبقوه فى البابوية .

واضطرته حاجته إلى المال لأداء نفقات حكومته وحروبه ، فباع المناصب ، واستولى على ضياع الموتى من الكرادلة ، واستغل عيد سنة ١٥٠٠ أتم استغلال ، فكان الإعفاء من الواجبات الدينية والإذن بالطلاق يمنحان على أنهما عملان مربحان فى المساومات السياسية : مثال ذلك أن لادسلاس ملك المجر دفع ٣٠,٠٠٠ دوقة نظير إلغاء زواجه ببياتريس أميرة نابلى ، ولو أن هنرى الثامن قد وجد بابا كالإسكندر يتعامل معه ، لبقى إلى آخر أيامه حامى حمى الدين . ولما لاح أن العيد سيخفق من الناحية المالية لأن الذين كانوا يريدون الحج قعدوا فى منازلهم خوفاً من اللصوص ، أو الوباء أو الحرب ، لم يشأ الإسكندر أن يخسر ما قدره لنفسه من مال ، وجرى على

سنة أسلافه البابوات ، فأصدر مرسوماً بابوياً (٤ مارس سنة ١٥٠٠) يفصل فيه ما يستطيع المسيحيون أداءه من المال ليحصلوا على الغفران الذى كانوا سيحصلون عليه بالحج إلى رومة ؛ وبأى ثمن يستطيع التائبون أن يغفر لهم زواجهم من المحارم ، وكم يؤدى رجل الدين لكى يغفر له بيع المناصب أو « الشـــذوذ »(٣٩) . وأمر فى السادس عشر من ديسمبر أن يمد العيد حتى يوم الغطاس . ووعد الجباة دافعى المال بأن أموالهم ستستخدم فى حرب صليبية على الأتراك ، ووفى بهذا الوعد بالنسبة إلى الأموال المجموعة من پولندة والبندقية ، ولكن سيزارى بورچيا استخدم ما تجمع من الأموال فيما شنه من الحروب لاستعادة الولايات البابوية (٤٠) .

وأراد الإسكندر أن يزيد حفلات العيد جلالا فعين فى الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٥٠٠ اثنى عشر كردنالا جديداً بلغ مجموع ما أدوه ثمنا لمناصبهم ١٢٠,٠٠٠ دوقة ، ويقول جوتشياردينى إن هذه المناصب « لم يرق إليها أكثر الناس جدارة بها بل كانت من نصيب من يؤدون فيها أغلى الأثمان »(٤١) . ثم عين فى عام ١٥٠٣ تسعة كرادلة آخرين حصل منهم على أثمان مجزية »(٤٢) . وأنشأ كذلك فى هذه السنة ذاتها ثمانين منصباً فى الحكومة البابوية لا موجب لها على الإطلاق ، وبيع كل منصب من هذه المناصب بسبعمائة وستين دوقة كما يقـــول جوستيانينى Guistianini سفير البندقية وأحد أعداء البابا(٤٣) . ولصق أحد الهجائين على تمثال پسكوينو (١٥٠٣) هذا الهجاء اللاذع : « إن المفاتيح ومذابح الكنائس والمسيح يبيعها الإسكندر ، وحق له أن يبيعها ، فقد أدى هو ثمنها »(٤٤) .

وكان القانون الكنسى ينص على أن تعود أملاك رجال الدين إلى الكنيسة بعد وفاتهم ، إلا إذا قضى البابا غير هذا(٤٥) . وكان الإسكندر يقضى بغير هذا على الدوام إلا إذا كان المتوفى من الكرادلة . واستجاب الإسكندر لضغط سيزارى بورچيا وإلحاحه فجعل الاستيلاء على الثروة التى يتركها

وراءهم كبار رجال الكنيسة من المبادئ العامة المقررة ، وجاءت بهذه الطريقة أموال موفورة إلى بيت المال . وخدع كثيرون من الكرادلة البابا بمنح هبات كثيرة من أموالهم قبل وفاتهم ، ومنهم من عمد فى أثناء حياته إلى إنفاق أموال كثيرة لإعداد أنصاب تذكاريه لهم تبقى بعد موتهم . ولما مات الكردنال ميشيل (١٥٠٣) جرد عملاء البابا من فورهم بيته من كل ما كان فيه ، وقبض البابا ثمنه ، إذا صدقنا ما يقوله جوستنيانا ، البالغ مائة وخمسين ألف دوقة . وكان مما يشكو منه الإسكندر أنه لم يتسلم منه نقداً سوى ٢٣٫٨٣٢ دوقة(٤٦) .

وسنرجئ هنا البحث المفصل فيما يعزى للإسكندر أو سيزارى بورچيا من دس السم لكبار رجال الكنيسة الذين تطول أعمارهم ، ولكننا نقبل مؤقتاً النتيجة القائلة بأنا « لانجد قط دليلا يثبت أن الإسكندر قد دس السم لإنسان »(٤٧) . على أن قولنا هذا لا يثبت براءته ، وربما كان هو أشهر من أن يترك وراءه للتاريخ ما يدينه ، لكنه مع ذلك لم ينج من الهجائين والنمامين وغيرهم من الظرفاء الذين كانوا يبيعون نكاتهم القاتلة إلى أعدائه ، وقد رأينا كيف كان سنادسارو يسلط شعره القاتل المقذع على البابا وولده أثناء النزاع الذى شجر بين البندقية ونابلى ، كذلك سخر أنفيسورا قلمه للتشنيع على البابا خدمة لآل كولنا ، وكان چيرونيمو منشيونى Geronimo Mancioni فى يد بارونات سافلى أقوى من فرقة عسكرية . وكان من الوسائل التى استخدمها الإسكندر نفسه فى حروبه مع نبلاء كمپانيا ، أن أصدر فى عام ١٥٠١ مرسوماً بابوياً يفصل فيه الجرائم التى ارتكبها آل سافلى وكولنا . وكان أشد من هذا مبالغة — الرسالة الذائعة الصيت التى كتبها منشيونى والمسماة « رسالة إلى سلفيوسافلى » يعدد فيها رذائل الإسكندر وسيزارى بورچيا وجرائمها . وقد نشرت هذه الوثيقة فى مدى واسع ، وكان لها أثر كبير فى تصوير الإسكندر بصورة وحش فى قسوته

وشذوذه(٤٨) . وفاز الإسكندر فى حروب السيف ، ولكن أعداءه النبلاء ، الذين لم يكبح جماحهم عدوه البابا يوليوس الثانى ظفروا به فى حرب التملم ونقلوا صورته التى صوره بها إلى التاريخ .

ولم يكن يبالى قط بالرأى العام . وقلما كان يرد على السباب التى ضاعفت من غير رحمة عيوبه الحقة . لقد عقد الرجل العزم على إقامة دولة قوية ، وكان يظن أن هـــذه الدولة لا تقام بالأساليب المسيحية . وكان استخدامه لأدوات السياسة المأثورة التقليدية - الدعاوة ، والخداع ، والدسائس ، والنظام ، والحرب — لا بد أن يسيء إلى أعيان رومة ، ودول إيطاليا الذين يرون أن من مصلحتهم أن يسود الضعف والفوضى فى البابوية نفسها وفى ولاياتها . وكان الإسكندر فى بعض الأحيان يقف ليحكم على حياته حسب المقاييس الإنجيلية ، ثم يقر بأنه كان يبيع الرتب الكهنوتية ، وأنه فاسق ، وأنه قضى بالحرب على حياة بنى الإنسان ؛ وقد فقد مرة مبادئه المكيفلية التى لا تقيد صاحبها بالتبعة الأخلاقية ، واعترف بذنوبه وأقسم أن يصلح من أمره وأمر الكنيسة .

وكان يحب ابنه چيوفنى حباً يفوق حبه لكرديسيا نفسها ؛ ولما أنبه ابنه پدرو لويس حرص الإسكندر على أن يهب چيوفنى دوقية غنية فى أسپانيا .

وكان من اليسير أن تحب فتاة هذا الصبى ، فقد كان وسيما ، رقيقا ، مرحا ، ولكن الأب الشفوق بولده لم يكن يرى أن الشاب خلق للحب بل للحرب ؛ ولهذا عينه قائدا للجند ، وأثبت القائد الشاب أنه غير كفء لهذا العمل ، فقد كان چيوفنى يرى أن امرأة جميلة أثمن من فتح مدينة . وفى الرابع عشر من شهر يونية تعشى مع أخيه سيزارى وغيره من الضيوف فى بيت أمه ڤانتسا ، وافترق چيوفنى عن سيزارى وسائر الضيوف وهم عائدون ، وقال إنه يريد أن يزور سيدة من معارفه .

ولم يُر حياً بعد تلك الساعة . ولما لوحظت غيبته طلب البابا أن يبحث عن ابنه الحبيب ، واعترف صاحب زورق أنه رأى جثة تلقى فى نهر التيبر فى ليلة الرابع عشر من الشهر ، ولما سئل لِمَ لم يبلغ عنها ، قال إنه شاهد فى حياته مائة حادثة من هذا النوع ، وإنه تعلم ألا يشغل باله بها . وفتش مجرى النهر ، ووجدت الجثة ، مطعونة فى تسعة مواضع مختلفة ؛ ويلوح أن الدوق الشاب هاجمه عدد من الأشخاص ، وحطم الحزن قلب الإسكندر وأدى به إلى أن يغلق على نفسه باب غرفته الخاصة ، ويمتنع عن الطعام ، وكان أنينه يسمع فى الشارع نفسه .

وأمر أن يبحث عن القتلة ، ولكن لعله ارتضى بعد قليل من الوقت أن يبقى الحادث فى طى الخفاء . وكانت الجثة قد عثر عليها بالقرب من قصر أنطونيو پيكو ديلا ميرندولا Anonio Pico della Mirandola ويقال إن الدوق أغوى ابنته الحسناء ؛ ويعزو كثيرون من المعاصرين ومنهم اسكالونا Scalona سفير مانتوا مقتله إلى جماعة من السفاحين المتشردين استأجرهم الكونت لهذا الغرض ، ولا يزال قولهم هذا أقرب التفاسير احتمالا(٤٩) . ويعزو آخرون ومنهم سفيرا فلورنس وميلان فى رومة هذه الجريمة إلى أحد أبناء أسرة أرسينى التى كانت وقتئذ مشتبكة مع البابا فى حرب(٥٠) . ويقول بعض الثرثارين النمامين إن چيوڤنى غازل أخته لكريشيا ، وإن مقتله كان بأيدى بعض أتباع زوجها چيوڤنى اسفوردسا(٥١) ؛ ولم يتهم أحد فى ذلك الوقت سيزارى بورچيا ، ويبدو إن سيزارى وهو وقتئذ فى الحادية والعشرين من عمره ، كان على أتم وفاق مع أخيه ، فقد كان كردنالا ، وكان يسير فى طريق الرقى الخاص به ، ولم يغير هذا الطريق ويسلك طريق الجندية إلا بعد أربعة عشر شهراً من الحادث ، ولم يفد شيئاً ما من مقتل أخيه ، ولم يكن هو ليتنبأ بأن چيوڤنى سيفارقه فى طريقه وهما عائدان من بيت ڤانوسا . ولم يرتب الإسكندر وقتئذ فى

سيزارى ، بل إنه فعل ما يدل على عكس هذا ، فعينه مصفيا لتركته . وكان أول ما ورد من الأقوال عن أن سيزارى هو القاتل فى رسالة كتبها پنيا Pinga سفير فيرارا فى الثانى والعشرين من فبراير عام ١٤٩٨ بعد ثمانية عشر شهراً من وقوع الحادث ، ولم يربط الرأى العام بينه وبين الجريمة إلا بعد أن كشف عن كل ما فى أخلاقه من قوة وقسوة ؛ وحينئذ فقط اتفق مكيڤلى وجوتشياردينى على اتهامه بها . ولعله كان قادراً على ارتكابها فى مرحلة أخرى من مراحل تطوره لو أن چوفنى عارضه فى أمر من الأمور الحيوية . ولكنا نكاد نجزم أنه برىء من هذه الجريمة .

ولما استرد البابا سلطانه على نفسه جمع مجلسا من الكرادلة (١٩ يونيه سنة ١٤٩٧) ، وتلقى تعازيهم وأبلغهم أن « دوق غنديا كان أحب إليه من أى شخص آخر فى العالم » ، وقال إن هذه المصيبة « وهى أكبر المصائب التى يمكن أن تحل به » عقابا له من عند الله على ذنوبه ، ثم أضاف « ولقد عقدنا العزم على أن نصلح من شأن حياتنا ، وأن نصلح الكنيسة . . . . وستكون المناصب من هذه الساعة وقفا على من يستحقونها ، تعطى حسب أصوات الكرادلة . ولن نتحيز قط لأقاربنا ، وسنبدأ الإصلاح بإصلاح أنفسنا ، ثم نسير به فى جميع مراتب الكنيسة حتى ننجز العمل كله »(٥٣) . وعينت بلجنة من ستة كرادلة لتعد برنامجا للإصلاح . وأخذت تعمل بجد وقدمت للإسكندر مرسوما بهذا الإصلاح بلغ من عظم الشأن درجة لو نفذت معها مواده لنجت الكنيسة من حركة الإصلاح الدينى التى حدثت فى هذه الفترة ومن حركة الإصلاح المضادة . غير أنه لما سئل الإسكندر كيف تقوم موارد البابوية : بغير المال الذى يدفع نظير التعيين فى المناصب الكنسية ، بالوفاء بنفقات الحكومة ، لم يجد جواباً شافيا . وكان لويس الثانى عشر يتأهب فى ذلك الوقت لغزو إيطاليا

مرة أخرى ، وعرض سيزارى بورچيا أن يسترد الولايات البابوية من « نائبي البابا » المعاندين : واستحوذ على روح البابا ذلك الأمل العظيم وهو إيجاد صرح قوى يهب الكنيسة سلطانا ماديا وماليا فى عالم متمرد غير مستقر . ولهذا أخذ يرجئ الإصلاح من يوم إلى يوم ؛ ثم نسبه آخر الأمر وسط الانتصارات المثيرة التى نالها . ولد له أخذ يفتح له مملكة ، ويجعله ملكا بحق .

الفصل الرابع

سيزارى بورجيا

وكان لدى الإسكندر أسباب كثيرة للفخر بالابن الذى أصبح الآن أكبر أبنائه ؛ فقد كان سيزارى أشقر شعر الرأس واللحية كما يريد كثير من الإيطاليين أن يكونوا ، حاد البصر ، فاره الطول ، معتدل القامة ، قوى البنية ، ثابت الجنان لا يعرف الخوف سبيلا إلى قلبه . ويقال عنه ، كما يقال عن ليوناردو إنه يستطيع أن يلوى حذاء فرس بيده العارية . وكان يمتطى صهوة الجياد الجامحة التى كان يجمعها لاسطبله . وكان يخرج إلى الصيد بتلهف الكلب الذى شم رائحة الدم . وقد أدهش جماعة من الناس فى أثناء عيد رومة حين قطع رأس ثور فى مصارعة للثيران فى أحد ميادين رومة بضربة واحدة من يمينه . وفى اليوم الثانى من شهر يناير سنة ١٥٠٢ ، ركب إلى حلبة مصارعة للثيران نظمها هو فى ميدان سان پيترو ، ومعه تسعة غيره من الاسپان ، وهاجم بمفرده وبيده حربته ثوراً من اثنين هما أشد الثيران وحشية أطلقا فى الحلبة ؛ ثم نزل عن جواده وأخذ يصارعه راجلا بعض الوقت ، حتى إذا أثبت ما يكفى من بسالته ومهارته ترك الحلبة إلى المحترفين(٥٤) . وقد أدخل هذا الصراع إلى رومانيا Ramagna كما أدخله إلى رومة ؛ ولكنه رد إلى أسپانيا بعد أن قتل فيه عدد من المصارعين الهواة .

ونحن إذا ما صورناه فى صورة وحش ضار أخطأنا فى هذا التصوير أشد الخطأ ؛ وقد وصفه أحد معاصريه بأنه : « شاب عظيم النشاط إلى حد لايضارعه أحد فيه ، وذو استعداد ممتاز ، بشوش ، بل قل مرح ، عالى الهمة على الدوام »(٥٥) . ووصفه آخر بقوله إنه « يفوق أخاه دوق

غنديا فى منظره وذكائه »(٥٦) . وقد أدرك الناس دماثة أخلاقه ، وأعجبوا بملبسه الغالى البسيط ، ونظرته المسيطرة الآمرة . وطلعة الرجل الذى يشعر بأنه قد ورث العالم . وكانت النساء يعجبن به ولكنهن لا يحببنه ، فقد كن يعرفن أنه يستخف بهن حين يتصل بهن وحين ينبذهن . وكان قد درس من القانون فى جامعة بروچيا ما يكفى لأن يقوى من حدة ذهنه الفطرية ؛ ولم يكن يجد إلا القليل من الوقت ينفقه فى قراءة الكتب أو فى « تثقيف » عقله ، وإن كتب الشعر من آن إلى آن كما كان يفعل كل الناس ، وبلغ منه أن كان يزدهى على شاعر بين موظفيه . وكان يقدر الفن تقدير العارف به القادر على التفريق بين الطيب منه والخبيث ؛ وشاهد ذلك أنه لما رفض الكردنال رفائلو رياريو أن يبتاع صورة الكيوپد لأنها لم تكن قديمة بل كانت من صنع شاب فلورنسى غير مشهور يدعى ميكل أنچيلو بيونارتى عرض فيها سيزارى ثمناً عالياً .

وما من شك فى أنه لم يخلق ليكون من رجال الدين : ولكن الإسكندر الذى كانت له أسقفيات لا إمارات تحت تصرفه عينه كبيراً لأساقفة بلنسية (١٤٩٢) ، ثم كردنالا (١٤٩٣) ؛ ولم يكن أحد من الناس يرى أن هذه مناصب دينية بحق ، بل كانت فى نظر الناس وسائل تدر دخلا على الشبان الذين لهم أقارب ذوو نفوذ ، والذين يستطاع تدريبهم لتصريف شئون أملاك الكنيسة والإشراف على موظفيها . وتدرج سيزارى فى المراتب الكهنوتية الصغرى . ولكنه لم يصبح قط قساً . ولما كان قانون الكنيسة يحرم الأبناء غير الشرعيين من الكردنالية ، فقد أعان الإسكندر بمرسوم صادر فى ١٩ من سبتمبر سنة ١٤٩٣ أنه ابن شرعى لڤانوسا ودارنيانو d'Arignano . ولم يكن من الأمور الهينة أن يصفه البابا سكستس الرابع فى مرسوم أصدره فى ١٦ أغسطس سنة ١٤٨٢ بأنه ابن « ردريجو ، الأسقف ونائب رئيس المحكمة » . وغض الجمهور النظر عن هذا التناقض ، واكتفى بالابتسام ،

فقد اعتاد أن يرى الأكاذيب القانونية تستر الحقائق التى لم يحن بعد وقت إعلانها .

وسافر سيزارى إلى نابلى فى عام ١٤٩٧ بعد قليل من وفاة چيوڤنى ، مندوباً من قبل البابا ، وكان من حظه أن توّج ملكاً من الملوك . ولعل لمس التاج قد أثار وقتئذ عواطفه ، فلما عاد إلى رومة ألح على أبيه أن يسمح له بالتخلى عن منصبه الكنسى ؛ ولم تكن ثمة وسيلة لتخليه عنه إلا بأن يعترف الإسكندر صراحة أمام مجمع الكرادلة بأن سيزارى ابن غير شرعى له . وهذا ما صرح به فعلا ، وأعقبه إعلان يقول إن تعيين النغل الشاب كردنالا مخالف للقانون (١٧ أغسطس عام ١٤٩٨)(٥٧) . ولما عادت إلى سيزارى بنوته غير الشرعية ، انهمك بكليته فى الأعمال السياسية .

وكان الإسكندر يرجو أن يرضى فدريجو Federigo الثالث ملك نابلى بسيزارى زوجاً لابنته كارلتا Carlotta ؛ ولكن فدريجو كانت له ميول غير هذه الميول . وساء ذلك البابا أشد إساءة ، فولى وجهه شطر فرنسا يرجو أن يستعينها على استعادة الولايات البابوية . وواتته الفرصة حين طلب إليه لويس الثانى عشر أن يبطل زواجاً أرغم عليه فى شبابه وادعى الآن أنه لم يصل إلى غايته . ولما حل شهر أكتوبر من عام ١٤٩٧ أرسل الإسكندر ابنه سيزارى إلى فرنسا يحمل إلى الملك مرسوماً بالطلاق ومائتى ألف دوقة يخطب بها زوجة له . وسر لويس هذا الطلاق ، وسره فوق ذلك إذن البابا له بزواج آن البريطانية أرملة شارل الثامن ، فعرض على سيزارى يد شارلوت دالبرت Chorlotte d'Albert أخت ملك نبرة ؛ ولم يكتف بهذا بل منح سيزارى لقب دوق ڤلنتنوا Valentinois وديوا Diois ، وهما مقاطعتان فرنسيتان للبابوية عليهما بعض الحق القانونى . وفى شهر مايو من عام ١٤٩٩ تزوج الدوق الجديد ڤلنتينو Valentino — وهو الاسم الذى تسمى به بعدئذ فى إيطاليا — شارلوت الثرية ، الحسناء ، الطيبة ؛ وأقامت رومة ،

حين أبلغها الإسكندر النبأ ، معالم الأفراح . وأطلقت الألعاب النارية ابتهاجاً بزواج أميرها . وأوجب هذا الزواج على البابوية أن نعقد حلفاً مع ملك يستعد علناً لغزو إيطاليا ويستولى على ميلان ونابلى . وبذلك لم يكن جرم الإسكندر فى عام ١٤٩٩ أقل من جرم لودوڤيكو وسفوناورولا فى عام ١٤٩٤ . وأفسد هذا الحلف جميع أعمال الحلف المقدس الذى كان للإسكندر يد فى عقده سنة ١٤٩٥ ومهد السبيل لحروب يوليوس الثانى . وكان سيزارى بورجيا من بين الأعيان الذين ساروا فى ركاب لويس الثانى عشر إلى ميلان فى السادس من أكتوبر سنة ١٤٩٩ ، وقد وصف كستچليونى الذى كان فيها وقتئذ دوق ڤلنتينو بأنه أطول رجال حاشية الملك قامة وأعظمهم جمالا(٥٨) . ولم يكن كبرياؤه يقل عن مظهره . وقد نقش على خاتمه : « افعل ما يجب أن تفعله ، وليكن بعد ذلك ما يكون » . أما سيفه فقد نقشت عليه مناظر من حياة يوليوس قيصر ؛ وكان يحمل شعارين : فكان على أحد وجهيه : « ألقى النرد » وعلى الوجه الآخر : « إما قيصر أو لا أحد »(٥٩)

ووجد الإسكندر أخيراً فى هذا الشاب الجرىء والمحارب السعيد القائد الذى ظل يبحث عنه زمناً طويلا ليقود قوات الكنيسة المسلحة ويستعيد بها الولايات البابوية . وأمده لويس بثلثمائة من حملة الرماح الفرنسيين ، وجند أربعة آلاف من الغسقونيين والسويسريين ، وألفين من المرتزقة الإيطاليين . وكان هذا جيشاً أقل مما يحتاج إليه للتغلب على اثنى عشر من الحكام المستبدين ، ولكن سيزارى كان تواقاً إلى هذه المغامرة . وأراد البابا أن يضيف الأسلحة الروحية إلى الأسلحة العسكرية ، فأصدر مرسوماً يعلن فيه ذلك الإعلان الخطير وهو أن كترينا اسفوردسا وابنها أناڤيانو يمتلكان إمولا وفورلى — وپندلفومالاتستا يمتلك ريمينى — وجويليوڤارانو Giulio Varano يمتلك كمرينو — وأستورى منفريدى Astorre Manfredi يمتلك فائندسا — وجويدوبالدو يمتلك أربينو — وچيوڤنى اسفوردسا يمتلك پزارو — لأنهم

اغتصبوا أرضين ، وأملاكاً ، وحقوقاً تختص بها الكنيسة قانوناً وعدلا ، وأنهم جميعاً طغاة مستبدون أساءوا استخدام سلطتهم ، واستغلوا رعاياهم ، وأن عليهم الآن أن يتخلوا عن أملاكهم أو يطردوا منها قوة واقتداراً[٦٠] . ولربما طاف بخاطر الإسكندر — كما يتهمه بعضهم — أن يضم هذه الإمارات كلها فى مملكة واحدة يحكمها ابنه . ولكنه لم يكن يفكر جدياً فى هذا العمل . ذلك أنه كان يدرك بلا ريب أن خلفاءه لن يسكتوا ، وأن الدولة الإيطالية لن تسكت ، زمناً طويلا على هذا الاغتصاب الذى هو أشد مخالفة للقانون ، وأكثر بغضاً لهم ، من أى حكم يراد أن يحل محله . وربما كان سيزارى نفسه يحلم ببلوغ هذه الغاية ، وكان مكيفلى يرجو تحقيقها ، ويسره أن يرى يداً قوية مثل يد سيزارى توحد إيطاليا وتخرج منها جميع الغزاة ؛ غير أن سيزارى نفسه ظل حتى آخر أيام حياته يعلن أنه لا غاية له غير أن يسترد ولايات الكنيسة للكنسية ، وأنه يقنع بأن يكون حاكماً على رومانيا Romagna من قبل البابا[٦١] .

وزحف سيزارى على رأس جيشه فى شهر يناير عام ١٥٠٠ على فورلى بعد أن اجتاز جبال الأبنين ؛ وسلمت إمولا من فورها لمندوبه ، وفتح أهل فورلى أبوابها ترحيباً ، ولكن كترينا اسفوردسا فعلت ما فعلته قبل اثنى عشر عاماً من ذلك الوقت فامتنعت هى وحاميتها فى القلعة ودافعت عنها دفاع الأبطال . وعرض عليها سيزارى شروطا سهلة . ولكنها آثرت أن تقاتل ، واستطاعت القوات البابوية بعد حصار قصير أن تقتحم القلعة وتعمل السيف فى رقاب المدافعين عنها . وأرسلت كترينا إلى رومة ، واستضيفت ضيافة لا ترغب فيها فى جناح بلفدير بقصر الفاتكان ، وأبت أن تنزل عن حقها فى حكم فورلى وإمولا ، وحاولت الفرار . فنقلت إلى سانت أنجيلو ، ثم أطلق سراحها بعد ثمانية عشر شهراً ؛ وآوت إلى دير للنساء . وكانت امرأة باسلة ، ولكنها كانت سليطة صخابة[٦٢] . وحاكمة

إقطاعية من أسوأ طراز ، وكان رعاياها وغيرهم من أهل رومانيا Romagna يرون أن قيصر منتقم بعثه الله ليطهر البلاد من الظلم والاستبداد اللذين داما عصوراً طوالا »[٦٣] .

ولكن انتصار سيزارى الأول كان قصير الأجل ، فقد تمرد جنوده الأجانب لأنه لم يجد ما يكفى من المال لأداء أجورهم ، وماكاد يسترضيهم ، حتى استدعى لويس الثانى عشر الفرقة الفرنسية لتساعده على استرداد ميلان التى استعادها لدوفيكو من وقت قريب . وسار سيزارى على رأس الباقين من جنوده إلى رومة ، واستقبل فيها استقبالا لايكاد يقل مهابة عن استقبال القواد الرومان المنتصرين . وابتهج الإسكندر بانتصار ابنه ، وفى ذلك يقول سفير للبندقية : « إن البابا أكثر ابتهاجاً مما رأيته فى أى وقت من الأوقات »[٦٤] . وعين سيزارى نائباً عن البابا فى المدن المفتوحة ، وشرع من ذلك الحين يدفعه الحب الشديد إلى قبول نصائح ولده ؛ وامتلأت خزائنه بالأموال التى جمعها من عيد رومة ومن بيع مناصب الكرادلة . واستطاع سيزارى بفضلها أن يضع خطة حملة أخرى . وكان أول ما عمله أن عرض مبلغاً مغرياً من المال على باولو أرسينى ليقنعه بأن ينضم هو ورجاله إلى القوات البابوية ؛ وجاء باولو كما جاء على أثره عدد آخر من النبلاء وبهذه الضربة الماهرة قوى سيزارى جيشه ، وحمى رومة من غارات البارونات أثناء غياب الجيوش البابوية وراء الأبنين . ولعل هذه المغريات نفسها ، وما بذله لمناصريه من وعود بالغنائم هى التى ضمن بها خدمات جيان پولو بجليونى سيد بروچيا وجنوده ، واستخدم بها ڤيتيلتسو ڤيتلى Vitelozzo Vitolli ليقود مدفعيته . وبعث إليه لويس الثانى عشر بلواء صغير من حملة الرماح ، ولكن سيزارى لم يعد يعتمد على الإمدادات الفرنسية . فلما تم له هذا الاستعداد هاجم فى سبتمبر من عام ١٥٠٠ بتحريض الإسكندر القصور التى يحتلها آل كولنا وسقلى المعادين له فى لاتيوم .

واستسلمت له هذه القصور الحصينة واحداً بعد واحد ، وسرعان ما كان في مقدور الإسكندر أن يطوف وهو آمن طواف المنتصر بالأقاليم التي فقدتها البابوية من زمن طويل ؛ واستقبل في كل مكان بالترحاب من الشعب(٦٥) ، لأن رعايا البارونات الإقطاعيين لم يكونوا يحبونهم .

ولما بدأ سيزاري حملته الكبرى الثانية (أكتوبر عام ١٥٠٠) كان تحت إمرته جيش مؤلف من ١٤٫٠٠٠ جندي ، ومعه حاشية من الشعراء ، وكبار رجال الدين ، والعاهرات لخدمة جنوده . وعرف پنديلفو مالاتستا أنهم زاحفون على ريميني فأخلاها قبل وصولهم إليها ، وفرچيوفي أسفوردسا من پيزارو ، ورحبت المدينتان بمقدم سيزاري وعدتاه محرراً لها . لكن استوري مانفريدي قاومه في فائندسا ، وأيده أهلها بإخلاص وولاء ؛ وعرض عليه بورچيا شروطاً للتسليم كريمة رفضها منفريدي ؛ ودام حصار المدينة طوال الشتاء ثم استسلمت فائندسا آخر الأمر بعد أن وعدها سيزاري بأن يكون رحيما بأهلها جميعاً . وكان مسلكه مع أهلها بعد استسلامها حسناً ، وأثنى على منفريدي ودفاعه القوي ثناء مستطاباً أحبه من أجله — كما يبدو — القائد المهزوم ولبث معه ضمن حاشيته أو أركان حربه . وفعل هذا الفعل نفسه أخ أصغر لأستوري ، وإن كان هو ومنفريدي قد أجيز لهما أن يذهبا إلى حيث شاءا(٦٦) ، وظلا شهرين يسيران في ركاب سيزاري في جميع تجواله ، ويعاملان معاملة كلها إجلال ولكنهما ما أن وصلا رومة حتى زج بهما فجأة في قصر سانت أنچيلو الحصين ، حيث بقيا عاماً كاملا ، حتى إذا كان اليوم الثاني من شهر يونية سنة ١٥٠٢ قذفت مياه نهر التبر بجثتيهما على الشاطئ . ولسنا نعرف السبب الذي من أجله قتلهما سيزاري أو الإسكندر ، وستظل هذه الحادثة كغيرها من الحوادث الكثيرة التي تبلغ المائة عداً من الأسرار الغامضة التي لا يسبر غورها إلا العارفون .

وأخذ سيزاري بعد أن أضاف « رومانيا » إلى ألقابه يدرس الخريطة ، وقرر بعد دراستها أن يتم الواجب الذي عهد به إليه أبوه . وكان

قد بقي عليه أن يستولى على كرينو وأربينو . ولا شك فى أن أربينو كانت بابوية فى شرائعها ، ولكنها كانت دولة نموذجية من جهة النظر السياسية فى تلك الأيام ؛ وبدا أن من العار أن يخلع عن عرشها شخصان محبوبان مثل جويدويلدو وإلزبتا ، ولعلها فى هذه الأيام الأخيرة كانا يقبلان أن يكونا نائبين عن البابا بالاسم وبالفعل معاً . ولكن سيزارى كان يدعى أن تلك المدينة تسد أسهل طريق له إلى البحر الأدرياوى ؛ وأن فى مقدورها إذا وقعت فى أيد معادية له أن تقطع عليه سبل الاتصال مع سيزارى وريمنى ؛ ولسنا نعرف هل وافق الإسكندر على هذه الحجج ، ويبدو أن ذلك بعيد احتمال ، لأنه أقنع جويدويلدو فى ذلك الوقت بأن يعير جيش البابوية مدافعه(٦٧) . وأقرب من هذا إلى العقل أن سيزارى خدع أباه ، أو بدل خططه . وسواء كان هذا أو ذاك فإنه بدأ حملته الثالثة فى الثانى عشر من يونيه عام ١٥٠٢ وبصحبته ليوناردو دافنتشى كبيراً لمهندسيه ؛ وكان متجهاً فى الظاهر نحو كميرينو Camerino . لكنه بدل خطته على حين غفلة . فاتجه نحو الشمال ، واقترب من أربينو بسرعة لم يجد معها حاكمها المريض متسعاً من الوقت للهرب إلا بشق الأنفس . وترك هذا الحاكم المدينة تسقط فى يدى سيزارى دون أن تدافع عن نفسها (٢١ يونيه) . وإذا كان هذا الفتح قد تم بعلم الإسكندر وموافقته ، فإنه يكون من أدنأ أنواع الغدر وأوجبها للاحتقار فى التاريخ ، وإن كان مكيفلى يبتهج بما ينطوى عليه من مكر ودهاء . وعامل المنتصر أهل المدينة شبيهة برقة السنانير ، ولكنه استحوذ على ما كان للدوق المغلوب من مجموعات فنية ثمينة وباعها ليؤدى بها رواتب جنده .

واستولى قائده ڤيتيلى Vitelli فى هذه الأثناء على أردسو التى كانت تابعة لفلورنس من زمن طويل ، ويبدو أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه وعلى مسئوليته . وارتاع مجلس السيادة لهذا العمل فأرسل أسقف ڤلتيرا ، ومعه مكيڤلى ، ليستغيث بسيزارى فى أربينو . واستقبلهم القائد بلطف كان له

الفضل فى بلوغه ما يصبو إليه . فقد قال لهم : « إنى لم آت إلى هنا لأكون طاغية مستبداً ، بل جئت لأقضى على الطغاة المستبدين »(٦٨) . ووافق على أن يمنع زحف ڤيتيلى ، وأن يعيد أردسو إلى طاعة فلورنس ، وطلب فى نظير هذا أن توضع سياسة محددة المعالم للصداقة المتبادلة بينه وبين فلورنس . وظن الأسقف أنه مخلص فى قوله ، وكتب مكيڤلى إلى مجلس السيادة بحماسة غير دبلوماسية يقول :

إن هذا السيد جليل عظيم ، وإنه ليبلغ من الجرأة حداً يبدو معه كل مشروع مهما عظم شأنه صغيراً فى عينه . وهو يحرم نفسه من الراحة ليظفر بالمجد ويستحوذ على الأمصار ، ولا يجد الخطر ولا التعب سبيلا إلى نفسه . وهو يصل إلى المكان الذى يريده قبل أن يدرك الناس نواياه ؛ وهو يكسب محبة جنوده ، وقد اختارهم من أحسن الناس فى إيطاليا . وأدى هذا كله إلى نصره وقوته ، وساعده على ذلك حظه الموفق على الدوام »(٦٩) .

وسلمت كمرينو فى ٢٠ يوليه إلى قواد سيزارى ، وعادت الولايات البابوية بابوية كما كانت قبل . وحكمها سيزارى بنفسه أو على أيدى نوابه حكماً صالحاً يبرر ما كان يدعيه من أنه ثل عروش الطغاة ؛ وبلغ من ذلك أن هـذه المدن كلها ، إذا استثنينا منها أربينو وفاتشلسا ، حزنت لسقوطه(٧٠) . وسمع سيزارى أن چيان فرنتشيسكو جندساجا (أخا إلزبتا وزوج إزبلا) ذهب هو وجماعة من الأشخاص البارزين إلى ميلان ليستعدوا عليه لويس الثانى عشر ، فأسرع باختراق إيطاليا ، وواجه أعداءه ، ولم يلبث أن استعاد رضاء الملك (أغسطس سنة ١٥٠٢) ؛ ومما هو جدير بالملاحظة أن يجمع أسقف ، ومليك ، ودبلوماسى اشتهر فيما بعد بالدهاء ، حتى ذلك الوقت ، وحتى بعد مغامرته المريبة ، أن يجمع هؤلاء على الإعجاب بسيزارى ويؤمنوا بعدالة مسلكه وأهدافه .

لكن إيطاليا كانت مع ذلك لا تخلو من رجال فى أماكن مختلفة منها يتمنون سقوطه . فالبندقية مثلا ، وإن كانت قد منحته مواطنيتها الفخرية ، لم يكن يسرها أن تعود الولايات البابوية قوية كما كانت من قبل ، وأن تسيطر على جزء كبير من شاطئ البحر الأدرياوى . وامتعضت فلورنس وهى تتذكر أن فورلى التى لا تبعد عن أرضها أكثر من ثمانية أميال كانت فى يدى شاب عبقرى فى شئون السياسة والحرب مجرد من الضمير ولا يحسب حساباً للعواقب . وعرضت پيزا عليه أن يتولى أمرها . فرفض هذا العرض فى أدب ؛ ولكن من يدرى ، فقد يبدل خطته كما بدلها وهو فى طريقه لكمبرينو . وربما كانت الهدايا التى بعثت بها إزبلا له ستاراً يخفى ما تشعر به هى وماتتوا من استياء لاغتصابه أربينو . ولقد خربت انتصاراته بيوت آل كولنا وساڤلى ، وكذلك آل أرسينى وإن لم يصب هؤلاء ما أصاب بيوت الأسرتين الأوليين ، وكانوا جميعاً يترقبون الساعة التى يستطيعون فيها أن يكونوا حلفاً معادياً له . ولم يكن « أحسن رجاله » ، الذين قادوا فيالقه ونالوا له النصر ، واثقين من أن خطوته التالية لن تكون هى الهجوم على بلادهم هم أنفسهم ، ومنها ما كانت تطالب به الكنيسة . وكان جيان پولو بجليونى ترتعد فرائصه فرقاً من استحواذ سيزارى على پروچيا ، كما كانت ترتعد فرائص چيوڤنى بنتيڤجليو لحكمه بولونيا ؛ وكان پاولو أرسينى ، وفرانتشيسكو أرسينى ، ودوق جراڤينو يتساءلون كم من الزمن يمضى قبل أن يفعل سيزارى بآل أرسينى ما فعله بآل كولنا . وقد ثارت ثائرة ڤيتيلى بعد أن اضطر إلى التخلى عن أرديسو ، فدعا هؤلاء ومعهم ألڤيرتو Oliveretto صاحب فرمو وبندلفو پيترونشى صاحب سيينا وممثلين لجويدوبلدو للاجتماع فى لاماجيونى La Mageone على بحيرة ترازمينى Lake Trasimene (سبتمبر سنة ١٥٠٢) . واتفقوا فى هذا الاجتماع على أن يوجهوا جيوشهم ضد

سيزارى ، فيقبضوا عليه ، ويخلعوه ، ويقضوا على حكمه فى رومانيا وأقاليم التخوم ، ويعيدوا الأمراء الذين ثلت عروشهم . وكانت هذه مؤامرة قوية واسعة النطاق ، لو أنها نجحت لكان نجاحها سبباً فى القضاء على الخطط التى أحسن تدبيرها الإسكندر وولده .

وبدأت المؤامرة بسلسلة من الانتصارات الباهرة . فقد نظمت الفتن فى أربينو وكمرينو واستعين على تنظيمها بأهل المدينتين ، وطردت الحاميات البابوية منهما ، وعاد جويدوبلدو إلى قصره (١٨ أكتوبر سنة ١٥٠٢) ، ورفع الأمراء الساقطون رءوسهم فى كل مكان ، وأخذوا يضعون الخطط لاستعادة ما كان لهم من سلطان .ووجد سيزارى فجأة أن قواده يعصون أوامره ، وأن قواه قد نقصت إلى حد يستحيل عليه معه أن يحتفظ بفتوحه ، وأسعفه الحظ فى هذه الأزمة فمات الكردنال فيرارى Ferrari ، وأسرع الإسكندر فاستولى على الخمسين ألفاً من الدوقات التى تركها وراءه ، وباع بعض المناصب التى كان الكردنال يتولاها ، وأعطى ما حصل عليه إلى سيزارى ، فبادر هذا بتجييش جيش جديد قوامه ستة آلاف جندى . وأخذ الإسكندر فى ذلك الوقت يتفاوض وحده مع المتآمرين ، وبذل لهم وعوداً سخية ، ورد الكثيرين منهم إلى طاعته ، فلم ينته شهر أكتوبر حتى عقدوا جميعهم الصلح مع سيزارى . وكان هذا عملا دبلوماسياً رائعاً مدهشاً ؛ وقبل سيزارى معذرتهم بصمت المتشكك المرتاب ، ولم يفته أن يلاحظ أن آل أرسينى لا يزالون يستولون على حصون دوقية أربينو وإن كان جويدوبلدو قد فر منها مرة أخرى .

وفى شهر ديسمبر حاصر قواد سيزارى تنفيذاً لأمره بلدة سنجاليا القائمة على البحر الأدرياوى ، وسرعان ما استسلمت المدينة ، ولكن قائد الحصن أبى أن يسلمه إلا لسيزارى نفسه ، فأرسل رسولا إلى الدوق فى سيسينا ، فاستحث خطى بإزاء الساحل ومن ورائه ثمانمائة من أشد جنوده إخلاصاً .

فلما بلغ سنجاليا حيا زعماء المؤامرة الأربعة ـ ڤيتيلدسو ڤيتلى ، وپاولو ، وفرانتشيسكو أرسينى ، وألڤرتو ـ تحية طيبة فى الظاهر ، ودعاهم إلى مؤتمر يعقدونه معه فى قصر الحاكم ؛ فلما جاءوا أمر بالقبض عليهم ، وأمر فى تلك الليلة نفسها (٣١ ديسمبر سنة ١٥٠٢) بخنق ڤيتلى وألڤرتو . أما پاولو وفرانتشيسكو أرسينى فقد أودعا السجن حتى يفاوض سيزارى أباه فى شأنهما ، ويبدو أن آراء الإسكندر كانت تتفق مع آراء ولده ، وفى اليوم الثامن عشر من يناير أعدم الرجلان .

وازدهى سيزارى بضربته الحاذقة فى سنجاليا ؛ فقد كان يظن أن من حقه على إيطاليا أن تشكره إذ أنجاها بهذه الوسيلة الطريفة من أربعة رجال لم يكتفوا بأن يكونوا إقطاعيين مغتصبين لأراضى الكنيسة ، بل كانوا فوق ذلك مستبدين رجعيين ظالمين لرعاياهم الضعفاء المساكين . ولربما أحس بقليل من وخز الضمير لأنه اعتذر عن فعلته لمكيڤلى بقوله : « إن من الخير أن نقتنص الذين أثبتوا براعتهم فى اقتناص غيرهم »(٧٢) . ووافقه مكيڤلى على هذا أتم الموافقة ؛ وكان فى ذلك الوقت يرى أن سيزارى أعظم الناس بسالة وحكمة فى إيطاليا كلها . ويرى باولو چيوڤيو Paolo Giovio ، المؤرخ والأسقف ، فى القضاء على المتآمرين الأربعة « حيلة من أظرف الحيل »(٧٣) . وأرادت إزبلا دست أن تضمن لنفسها النجاة فأرسلت تهنئ سيزارى على فعلته ، كما أرسلت إليه مائة قناع يتسلى بها « بعد كفاحه وتعبه فى هذه الحملة المجيدة » ، وأثنى لويس الثانى عشر على هذه الضربة ووصفها بأنها « عملا خليقاً بأيام رومة المجيدة(٧٤) » .

وكان فى وسع الإسكندر وقتئذ أن يعبر عن غضبه الشديد من المؤامرة التى دبرت ضد ولده ، من المدن التى استردتها الكنيسة ، فادعى أن لديه من الأدلة ما يثبت أن الكردنال أرسينى قد ائتمر مع أقاربه لاغتيال سيزارى(٧٥) ، ثم أمر باعتقال الكردنال وطائفة أخرى من المشتبه فيهم

(٣ يناير سنة ١٥٠٣) ، واستولى على قصره وصادر كل أملاكه . وقضى الكردنال نحبه فى السجن فى الثانى والعشرين من فبراير ، ولعل موته كان بسبب اهتياج أعصابه وانهيار قواه ، وإن كانت رومة تقول إن البابا قد سمه .

وأشار الإسكندر على سيزارى أن يستأصل شأفة آل أرسينى بأجمعهم من رومة وكمپانيا ؛ لكن سيزارى لم يكن مثله شديد الرغبة فى هذا العمل ، ولعله هو أيضاً كان منهوك القوى ؛ فأجل عودته إلى العاصمة بعض الوقت ، ثم شرع على كره منه[٧٦] فى محاصرة حصن جيوليو أرسينى الحصين فى تشيرى Ceri (١٤ مارس من عام ١٥٠٣) . واستخدم فى هذا الحصار — ولعله استخدم فى غيره أيضاً — بعض الآلات الحربية التى اخترعها ليوناردو . ومن هذه الآلات برج متحرك يتسع لثلاثمائة رجل ، ويمكن رفعه إلى أعلى أسوار العدو[٧٧] . واستسلم جويليو ، ورافق سيزارى إلى الفاتيكان يطلب إليها الصلح ؛ وارتضى الإسكندر أن يصطلح على شرط أن ينزل آل أرسينى عن جميع قلاعهم فى الأملاك البابوية ؛ وقبل جويليو هذا الشرط . وكان پروچيا وفيرمو قد قبلتا فى هدوء حاكمين عليهما بعث بهما سيزارى . ولم تكن بولونيا قد استردت بعد ، لكن فيرارا ارتضت مسرورة أن تكون لكريديسيا بورچيا دوقة لها . وإذا استثنينا هاتين الإمارتين الكبيرتين — وهما اللتان شغلتا خلفاء الإسكندر — استطعنا أن نقول إن البابوية استردت أملاكها بتمامها ، وبهذا وجد سيزارى بورجيا نفسه وهو فى الثامنة والعشرين من عمره يحكم مملكة لا يضارعها من حيث اتساع رقعتها فى شبه الجزيرة إلا مملكة نابلى ؛ وأجمع الناس كلهم على أنه أقوى رجال إيطاليا وأعلاهم شأناً .

وظل بعدئذ وقتاً ما هادئاً هدوءاً غير معتاد فى الفاتيكان ؛ ولقد كنا نتوقع أن يرسل فى ذلك الوقت فى طلب زوجته ولكنه لم يفعل . وكان قد تركها فى فرنسا عند أسرتها ، وكانت قد ولدت له طفلا فى أثناء غيابه

فى الحرب ؛ وكان يكتب إليها ويرسل لها الهدايا أحياناً ، ولكنه لم يرها بعد قط . وعاشت دوقة ڤالنتنوا عيشة متوسطة منعزلة فى بورج Bourge أو فى قصر لاموت فيي La Motte Feuilly فى الدوفينيه ؛ يداعبها الأمل فى أن يبحث فى طلبها أو أن يأتى هو إليها . ولما أن نكب وتخلى عنه من حوله حاولت أن تذهب هى إليه ، ولما مات علقت الستر السوداء على بيتها ، وظلت تلبث ثياب الحزن عليه حتى توفيت . ولعله كان يبعث فى طلبها فيما بعد لو أنه أتيحت له فترة من السلم دامت أكثر من بضعة أشهر ، وأكثر من هذا احتمالا أنه لم يكن ينظر إلى زواجه بها إلا على أنه صفقة سياسية لا أكثر ، وأنه لم يكن يشعر نحوها بشيء من الحنان . ويبدو أنه لم يكن بفطرته حنونا إلا بقدر معتدل ، وأنه كان يحتفظ بهذا النادر لاكريدسيا التى كان يحبها حباً هو كل ما يستطيع أن يحب به امرأة . وشاهد ذلك أنه وهو يسرع من أربينو إلى ميلان مع لويس الثانى عشر ليخادع بذلك أعداءه ، خرج عن خط سيره ليزور أخته فى فيرارا وكانت وقتئذ فى أشد حالات المرض . ووقف عند فيرارا مرة أخرى وهو عائد من ميلان ، واحتضنها بين ذراعيه ، بينما كان الأطباء يحجمونها ، وبقى معها حتى زال عنها الخطر(٧٨) . وجملة القول أن سيزارى لم يكن قد خلق للزواج وكانت له عشيقات ، ولكن عشـــقه لم يدم لأيهن طويلا ؛ وسبب ذلك أن حرصه على السلطان يستنفد كل جهوده ؛ فلا يترك لأية امرأة مكانا تنفذ منه إلى نفسه وتستولى على عواطفه .

ولما كان فى رومة كان يعيش معيشة العزلة ، ويكاد يكون مختفيا عن الناس ؛ وكان يقضى الليل فى العمل وقلما كان يراه أحد بالنهار . ولكنه كان يشتغل بجد حتى الوقت الذى يبدو أنه يستريح فيه من عناء الأعمال ؛ وكان يفرض رقابة شديدة على عماله فى الولايات البابوية ويعاقب من يسيئون استخدام سلطتهم ، وأمر بإعدام واحد منهم لقسوته

واستغلاله نفوذه ؛ وكان على الدوام يجد من الناس من يحتاجون إلى أن يعلمهم كيف يحكمون رومانيا أو يحافظون على النظام فى رومة . وكان الذين يعرفونه يقدرون ذكاءه ، وقدرته على أن ينفذ مباشرة للب الموضوع الذى يعالجه ، واغتنامه كل فرصة تتيحها له الظروف وإقدامه على العمل السريع الحاسم المثمر . وكان محبوباً من جنده ، لأنهم كانوا يعجبون فى السر بنظامه الذى ينجيهم من المهالك بقسوته : وكانوا يوافقون كل الموافقة على كل ما يلجأ إليه من الرشا ، وأساليب المكر والخداع التى قلل بها من عدد أعدائه وأضعف بها عنادهم ، وأنقص من عدد المعارك الحربية التى خاضها جنوده وعدد قتلاهم فيما خاضوه منها[٧٩] . وكان الدبلوماسيون يغضبون إذ يجدون أن هذا القائد الشاب السريع الحركة الذى لا يهاب الردى يفوقهم فى القدرة على التفكير والمحاجة والدهاء ، وأن فى مقدوره إذا دعت الحاجة أن يكون مثلهم فى الكياسة والمصاحة والفتنة .

وقد جعلته نزعته إلى السرية هدفاً سهلا للهجائين فى إيطاليا ، وللشائعات الوقحة التى كان فى وسع السفراء المعادين أو الأشراف الساقطين أن يخترعوها عنه أو ينشروها . وليس فى استطاعتنا الآن أن نميز الحقيقة من الخيال فى هذه التهم الفظيعة . ومن هذه الأقوال الواسعة الانتشار أنه كان من عادة الإسكندر وولده أن يعتقلا الأغنياء من رجال الكنيسة لتهم تذاع عنهم ، ثم يطلقاهم إذا أدوا مبالغ كبيرة من المال فدية أو غرامة ؛ فقد قيل مثلا إن أسقف تشيزينا سجن فى قلعة سانت أنجيلو بدعوى أنه ارتكب جريمة لم تذع حقيقتها . ثم أطلق سراحه بعد أن دفع للبابا عشرة آلاف دوقة[٨١] .

وليس فى وسعنا أن نقول أهذه عدالة أم لصوصية ؛ ولكننا إنصافاً للإسكندر يجب ألا ننسى أنه كان من عادة المحاكم الكنسية والمدنية فى

تلك الأيام أن تحكم فى الجرائم بغرامات كبيرة تؤدى للمحكمة بدل السجن الذى يكلف الدولة نفقات باهظة . ويقول جوستنيانى سفير البندقية وڤيتوربو سوديرينى سفير فلورنس إن اليهود كثيراً ما كانوا يعتقلون متهمين بالإلحاد ، وإن الطريقة الوحيدة التى يستطيعون بها إثبات إيمانهم هى أداء مبالغ ضخمة للخزانة البابوية[٨٢] . وقد يكون هذا صحيحاً ، ولكن رومة اشتهرت فى تلك الأيام بحسن معاملة اليهود ، ولم يكن أى يهودى يعد من الملاحدة ، أو يقدم لمحكمة التفتيش لأنه يهودى .

وتتهم كثير من الشائعات آل بورجيا بتسميم الكرادلة لتعجل بعودة نمياءهم إلى الكنيسة . وخيل إلى الناس أن بعض هذه الحوادث ثابت صحيح — يؤيد صحته التواتر لا البراهين — ولذلك ظل المؤرخون البروتستنت بوجه عام يصدقونه حتى زمن يعقوب بركهاردت (١٨١٨ — ١٨٩٧) الفطن الأريب[٨٣] ؛ وكان باستور Pastor المؤرخ الكاثوليكى يعتقد أن « من الأمور المرجحة كل الترجيح أن سيزارى سم ميشيل ليحصل بذلك على ما يريده من المال »[٨٤] . وقد بنى حكمه هذا على أن مساعد شماس فى عهد يوليوس الثانى (وهو الشديد العداء للإسكندر) يدعى أكوينو داكلوريدو Aquino da Colloredo أقر بعد أن عذب أنه سم الكردنال ميشيل بتحريض الإسكندر وسيزارى[٨٥] . وقد يعذر مؤرخ فى القرن العشرين إذا شك فى اعترافات تنتزع من صاحبها بالتعذيب ؛ ولقد أثبت إحصائى مغامر أن نسبة الوفيات بين الكرادلة لم تكن فى أيام الإسكندر أعلى منها فى العهود السابقة له أو اللاحقة[٨٦] ؛ ولكن الذى لا شك فيه أن رومة كانت فى الثلاث السنين الأخيرة من حكمه ترى أن من أشد الأخطار أن يكون الرجل كردنالا وغنياً[٨٧] . وقد كتبت إزبلا دست إلى زوجها تحذره بأن يكون حريصاً كل الحرص فيما يقوله عن سيزارى لأنه « لا يتردد مطلقاً فى أن يدبر المؤامرات للقضاء على ذوى قرباه »[٨٨] . والظاهر أنها

صدقت القصة التي تروى عن قتله دوق غنديا . وكان الثرثارون من أهل روما يتحدثون عن سم بطىء المفعول يسمونه الكنتريلا Cantarella أهم عناصره الزرنيخ . ويقولون إنه إذا وضع مسحوقه فى الطعام أو الشراب — وحتى فى نبيذ العشاء الربانى نفسه — فإنه يحدث موتاً بطيئاً يصعب تتبع سببه . غير أن المؤرخين فى هذه الأيام يرفضون بوجه عام ما يروى من القصص عن الموت البطىء فى أيام النهضة ويرون أنها من خلق الخيال ، وإن كانوا يعتقدون أن آل بورجيا فى حالة أو حالتين قد سموا بعض الكرادلة الأغنياء »(٨٩)(*) . وقد تؤدى البحوث فى مستقبل الأيام إلى تكذيب هذه الحالات بأجمعها .

ورويت قصص شر من هذه عن سيزارى . منها واحدة تؤكد لنا أنه أراد مرة أن يسلى الإسكندر ولكريدسيا فأطلق فى فناء عدداً من المسجونين حكم عليهم بالإعدام ، ثم وقف هو فى مكان أمين وأظهر حذقه فى الرماية بإطلاق سهام قاتلة عليهم واحداً بعد واحد بينا كانوا هم يتحدثون عن عاصم لهم من سهامه(٩٠) . والمصدر الوحيد لهذه القصة هو كاپيليو مندوب البندقية : ونحن فى هذه الحال بين اثنتين ، فإما أن السياسى كاذب فى قوله وإما أن سيزارى قد أتى هذا الأمر حقاً ، ولكن أول الفرضين أرجح فى رأينا من ثانيهما .

أما بعد، ففظائع آل بورجيا عن العقل فهى التى تظهر فى يوميات بيركهارد Burchard رئيس التشريفات فى عهد الإسكندر ، وهى يوميات

(*) يميل الباحثون بوجه عام إلى تبرئته من أفظع ما يرمى به من التهم الأخلاقية ، وإن كانوا ينبذون جميع الخرافات الباطلة التى يراد بها إظهار الإسكندر فى صورة المثل الأعلى للبابوات . وتبقى بعد هذا تهمة التسميم السرى بسبب جشعه المالى ، وهى تهمة يبدو أنها ثابتة ، أو قريبة من الثبوت ، فى حالة واحدة لا أكثر ، ولكن هذه الحالة قد يستدل منها على أن حالات أخرى صحيحة . « تاريخ كيمبردج الحديث Cambridge Modern History المجلد الأول ، ص ٢٤٢ ».

يوثق بها عادة . ففيها نجد تحت تاريخ ١٠ أكتوبر من عام ١٥٠١ وصفاً لعشاء فى جناح سيزارى بورچيا فى قصر الفاتيكان . أخذت فيه العاهرات العاريات يجرين وراء عدد من الكستناءات نثرت على الأرض والإسكندر والكريدسيا ينظران إليهن[٩١] . وتظهر هذه القصة أيضاً فى أقوال المؤرخ البروجى‌ما تارتسو الذى لم ينقلها عن بركهارد (لأن اليوميات كانت لا تزال سراً مكنوناً) بل أخذها عن الشائعات التى انتشرت من رومة فى أنحاء إيطاليا ويقول : « إن هذا كان معروفاً فى طول البلاد وعرضها »[٩٢] . فإذا كان هذا صحيحاً فإن من العجب ألا يرد له ذكر فى تقرير سفير فيرارا . وقد كان وقتئذ فى رومة ، وعهد إليه فيما بعد أن يفحص عن أخلاق لكريدسيا ، وهل تليق بأن تتزوج ألفنسو ابن الدوق إركولى . بل إن هذا السفير قد أثنى عليها أعظم الثناء فى تقريره هذا (كما نرى ذلك بعد) : فإما أن يكون الإسكندر قد رشاه وإما أنه لم يلتفت إلى الشائعات التى لا يقوم عليها الدليل . ولكن ترى كيف وصلت هذه القصة إلى يوميات بركهارد ؟ فهو لا يدعى أنه كان من الحاضرين فى هذا المجلس ، ومن أبعد الأشياء أن يكون من حاضريه لأنه كان من ذوى الأخلاق القويمـــة . وهو لا يضمن مذكراته عادة إلا ما يشهده من الحوادث ، أو ما ينقل إليه مؤيداً بالدليل . ترى هل أقحمت القصة إقحاماً فى المخطوط ؟ إن كل ما بقى من المخطوط الأصلى لا يزيد على ست وعشرين صفحة تبحث كلها فى أحوال الفترة التى أعقبت مرض الإسكندر الأخير . أما ما بقى من اليوميات فإنه لا توجد منه إلا نسخ منقولة عنها ، وكل هذه النسخ تذكر القصة ، ولربما كانت قد دسها فيها كاتب معاد ظن أنه يستطيع تفكهة التاريخ الجاف بقصة من القصص الطريفة ؛ أو لعل بركهارد قد أجاز مرة للشائعات أن تتسرب إلى مذكراته ، أو لعل النسخة الأصلية قد نبهت إلى أن هذه القصة من الشائعات لا أكثر ، وأكبر الظن أن هذه القصة تعتمد على مأدبة أقيمت فعلا وأن الزخرف المكفهر قد أضافه إليها الحقـــد أو الخيال . وقد كتب

فرنتشيسكو پيبى سفير فلورنس ، وهو الذى كان على الدوام من أعداء آل بورچيا لأن فلورنس كانت فى جميع الأوقات على خلاف معهم ، كتب فى غداة هذا الحادث يقول : إن البابا ظل إلى ساعة متأخرة من الليلة السابقة فى جناح سيزارى ، وإنه كان فى هذا الجناح « رقص وضحك »[٩٣] . ولم يرد فى قوله هذا ذكر للعاهرات . وليس من المعقول أن يخاطر البابا ، الذى كان يبذل غاية الجهد ليزوج ابنته من وارث دوقية فيرارا ، بإفساد سعيه فى هذا الزواج وفى عقد حلف دبلوماسى جليل الخطر بالنسبة له ، وذلك بأن يسمح للكريدسيا بأن تشهد مثل هذا المنظر[٩٤] .

ولننتقل الآن إلى لكريدسيا نفسها .

الفصل الخامس

لكريدسيا : ١٤٨٠ – ١٥١٩

كان الإسكندر يعجب بولده ، ولعله كان يخافه ، ولكنه كان يحب ابنته بكل ما فى الطبيعة البشرية من عاطفة قوية . ويبدو أنه كان يجد فى جمالها المتوسط ، وفى شعرها الذهبى الطويل (الذى بلغ من الثقل حداً يسبب لها الصداع) ، وفى قوامها الخفيف المتزن حين ترقص(٩٥) ، وفى إخلاصها البنوى له فى كل ما عاناه من تحقير وحرمان ، نقول يبدو أنه كان يجد فى هذا كله متعة أكثر مما وجده يوماً من الأيام فى مفاتن ڤانتسا أو جوليا . ولم تكن ذات جمال بارع غير معتاد ، ولكنها وصفت فى أيام شبابها بأنها حلوة الوجه dolce ciera ؛ وقد احتفظت بهذا « الوجه الحلو » إلى آخر حياتها التقية بين ما كان يحيط بها من فظاظة وانحلال ، وفى خلال ما مر بها من مرارة الطلاق ، وارتياعها وهى ترى زوجها يقتل ، وتقول إنها تكاد ترى متقلة بعينيها . ويدل على احتفاظها به أن ذلك من الأقوال التى تتردد على ألسنة الشعراء فى فيرارا .

وتتفق الصورة التى رسمها لها پنتو رتشيو والمحفوظة فى جناح آل بورجيا فى الفاتيكان مع وصفها هذا فى أيام شبابها .

وذهبت لكريدسيا إلى دير النساء لتتلقى فيه تعليمها كما كانت تذهب إليه كل من تستطع أداء نفقات هذا التعليم من البنات الإيطاليات ، وانتقلت فى سن غير معروفة من بيت أمها ڤانتسا إلى بيت دنا أدريانا ميلا ، وهى عمة للإسكندر . وفى هذا البيت عقدت صداقة وثيقة دامت طول حياتها مع جوليا فرنيزى Giulia Farnese كنة أدريانا ، وعشيقة والدها المزعومة . وقد وهبت لكريدسيا كل ما يستطيع الحظ الطيب أن يهبها إياه ما عدا

البنوة الشرعية ، ولهذا نشأت فى جو من الأنوثة المرحة المبتهجة ، وكان الإسكندر سعيداً لسعادتها .

وانتهى هذا الشباب الذى لم يتسرب إليه الهم بالزواج ؛ وأكبر الظن أنها لم يسؤها قط أن أباها هو الذى اختار لها زوجاً ؛ فقد كان هذا هو العادة المألوفة فى زواج البنات الطيبات ؛ ولم يكن لينشأ عن هذا الاختيار من الشقاء أكثر مما ينشأ عن اعتمادنا نحن على الحكمة الكامنة فى الاختبار القائم على الحب الغرامى . وكان الإسكندر يرى ، كما يرى أى حاكم سواه ، أن زواج أبنائه يجب أن يكون سبيلا لضمان مصالح الدولة ، وما من شك فى أن هذا أيضاً كان يبدو أمراً معقولا لا غبار عليه فى عينى لكريشيا . وكانت نابلى وقتئذ عدوة للبابوية ، وميلان عدوة لنابلى ، ولهذا فإن زواجها الأول قيدها وهى فى سن الثالثة عشر بجيوفنى اسفوردسا سيد بزارو ، وابن أخى لدفيكو ، ونائب حاكم ميلان (١٤٩٣) ؛ وكان وقتئذ فى سن السادسة والعشرين ، وأخذ الإسكندر يشبع حبه الأبوى بتهيئة بيت الزوجين فى قصر الكردنال دسينو القريب من الفاتيكان .

ولكن اسفوردسا كان مضطراً إلى الإقامة فى بزارو بعض الوقت ، ومن أجل ذلك اصطحب زوجته الشابة معه . وقد ذبلت نضرتها فى هذه الشواطئ النائية ، بعيدة عن أبيها المغرم بها ، ومباهج رومة ومتعتها . ولم تنقض على انتقالها إلا بضعة أشهر حتى عادت إلى العاصمة . ولحق بها جيوفنى فيها فيما بعـــد ، ولكنه ظل بعد عيد الفصح من عام ١٤٩٧ فى بزارو وبقيت هى فى رومة . وفى الرابع عشر من شهر يونية طلب إليه الإسكندر أن يفصم عرى الزوجية بحجة أن الزوج عنين — وهى الحجة الوحيدة التى يرى القانون الكنسى أنها تجيز فصم عرى الزواج ، وآوت لكريشيا بعدئذ إلى دير للنساء لتدفن فيها حزنها أو عارها ، أو لتقطع ألسنة الوشاة(٩٦) . ثم قتل أخوها دوق غنديا بعد بضعة أيام من ذلك الوقت ،

وتهامس المتكهون المظرفون من أهل روما أن مقتله كان بأيدى عملاء اسفوردسا لأنه حاول إغواء لكريدسيا(٩٧) . وأنكر زوجها أنه عنين ، وأشار إلى أن الإسكندر كان يضاجع ابنته . وعين البابا لجنة ، يرأسها اثنان من الكرادلة ، لتنظر هل بلغ الزواج غايته . وأقسمت لكريدسيا أنه لم يبلغها ، وأكدت اللجنة للإسكندر أنها لاتزال عذراء . وعرض لدفيكو على جيوفنى أن يثبت قدرته الجنسية أمام لجنة تضم المندوب البابوى فى ميلان ، ولكن جيوفنى رفض هذا العرض ، ولسنا نجد مأخذاً عليه فى رفضه . بيد أنه وقع وثيقة رسمية يعترف فيها بأن الزواج لم يبلغ غايته ، ورد إلى لكريدسيا بائنتها البالغ قدرها ٣١,٠٠٠ دوقة ، وفصمت عروة الزوجية فى ٢٠ ديسمبر من عام ١٤٩٧ . وولدت لكريدسيا لزوجيها التاليين أبناء وإن لم تلد أبناء لجيوفنى ؛ ولكن زوجة اسفوردسا الثالثة ولدت فى عام ١٥٠٥ ولداً يظن أنه ولده(٩٨) .

وكان يظن من قبل أن الإسكندر إنما فصم عقدة الزواج ، ليستطيع عقد زواج آخر أكثر فائدة سياسية من الزواج الأول . ولكنا لانجد دليلا يؤيد هذا الادعاء ؛ وأكثر من هذا احتمالا أن لكريدسيا قد أفصحت عن الحقيقة المحزنة . ولم يشأ الإسكندر أن يبقيها بلا زوج ؛ فأخذ يسعى إلى التقرب من نابلى ألد أعداء البابوية ؛ وعرض على الملك فدريجو أن يزوج لكريدسيا من دن ألفنسو دوق بستشجلى Besceglie ، وهو ابن نغل لألفنسو الثانى ولى عهد فدريجو . ووافق الملك على هذا العرض ، ووقع عقد الخطبة الرسمى (فى يونية سنة ١٤٩٨) . وكان وكيل فيدريجو فى هذا الزواج هو الكردنال اسفوردسا ، عم جيوفنى مطلق لكريدسيا . وشجع لدفيكو صاحب ميلان فيدريجو على قبول هذه الخطة(٩٩) ، ويبدو أن عم جيوفنى لم يسئه قط فصم عرى الزوجية الأولى ، واحتفل بالزفاف فى الفاتيكان فى شهر أغسطس التالى .

ويسرت لكريدسيا الأمور بأن أحبت زوجها ، ويسرها فوق ذلك أن تكون له بمنزلة الأم . فقد كانت هى وقتئذ فى الثامنة عشرة من عمرها وهو بعد طفل فى السابعة عشرة . ولكن كان من سوء حظهما أن يكونا شخصين ذوى شأن فى العالم ، وأن يكون للسياسة مكان فى فراشهما الزوجى. ذلك أن نابلى رفضت أن تقدم زوجة لسيزارى بورچيا فذهب إلى فرنسا يطالب فيها هذه الزوجة (أكتوبر سنة ١٤٩٨) . وتحالف الإسكندر مع لويس الثانى عشر عدو نابلى اللدود ؛ وساء بستشيجلى الشاب أن يجد رومة تتفاوض مع وكلاء ملك فرنسا ، فما كان منه إلا أن فر مسرعاً إلى نابلى ؛ وحطم هذا الفرار قلب لكريدسيا ؛ وأراد الإسكندر أن يسترضيها ، ويجبر قلبها المكلوم فعينها نائبة عنه فى اسپليتو (أغسطس عام ١٤٩٩) . وعاد ألفنسو فانضم إليها هناك ، وزارهما الإسكندر فى نبى ، وطمأن الشاب ، وعاد بهما إلى رومة ؛ وفيها وضعت لكريدسيا ولداً سمى ردريجو باسم أبيها .

ولكن سعادتهما كانت فى هذه المرة أيضاً قصيرة الأجل ؛ ذلك أن ألفنسو قد امتلأ قلبه بغضاً اسيزارى بورچيا ، وربما كان سبب ذلك البغض أن ألفنسو نفسه كان متوتر الأعصاب حاد المزاج ، أو لعل سببه أن سيزارى بورچيا كان فى نظره رمزاً للحلف الفرنسى مع البابوية ، وبادله سيزارى بغضاً ببغض وزاد عليه الاحتقار . وحدث فى مساء اليوم الخامس عشر من يولية سنة ١٥٠٠ أن هجم على ألفنسو جماعة من السفاحين المأجورين أثناء خروجه من كنيسة القديس بطرس . وأصيب ألفنسو بعدة جراح ، ولكنه استطاع أن يصل إلى بيت كردنال سانتا ماريا فى برتيكو . واستدعيت لكريدسيا له فلما رأته أغمى عليها ، ولكنها سرعان ما أفاقت ، وأخذت هى وأخته سانتشيا تعنى به أعظم عناية . وأرسل الإسكندر حرساً مؤلفاً من خمسة عشر رجلا ليدفع عنه أى أذى آخر ، ونقه ألفنسو على مهل ؛ وأبصر يوماً ما سيزارى يسير فى حديقة قريبة منه ، ولم يكن يخالجه أدنى شك فى

أن هذا هو الرجل الذى استأجر من كانوا يريدون قتله ، فأمسك بقوس وسهم وأطلق السهم يريد أن يقتله به . وأخطأ السهم الهدف خطأ يسيراً ، ولم يكن سيزارى بالرجل الذى يتيح لعدوه فرصة أخرى ، فاستدعى حراسه ، وبعث بهم إلى حجرة ألفنسو ، ويبدو أنه أمرهم بقتله . فوضعوا وسادة على وجهه وما زالوا يضغطون بها عليه حتى مات مختنقاً . وربما كان ذلك على مرأى من زوجته وأخته[١٠٠] . وصدق الإسكندر رواية سيزارى للقصة ، وأمر بدفن ألفنسو فى غير احتفال وبذل كل ما فى وسعه لمواساة لكريدسيا التى كان خطبها أفدح من أن يواسى .

وانزوت لكريدسيا فى بيبى ، وهناك كتبت رسائلها المسماه **أتعس الأميرات** وأمرت بإقامة الصلوات تطلب بها الرحمة لألفنسو . ومن الغريب أن سيزارى زارها فى بيبى (أول كتوبر سنة ١٤٩٩) ؛ ولما يمض على موت ألفنسو أكثر من شهرين ونصف شهر ، وأنها استضافته طول الليلة . ذلك أن لكريدسيا كانت صبوراً لينة الجانب . ويبدو أنها أخذت مقتل زوجها على أنه رد فعل طبيعى من أخيها على محاولة قتله . ويلوح أنها لم تكن تعتقد أن سيزارى هو الذى استأجر السفاحين الذين حاولوا اغتيال ألفنسو ولم يفلحوا فى محاولتهم ؛ وإن كان يخيل إلينا أن هذا هو أرجح التفاسير لهذه المأساة التى هى إحدى المآسى الغامضة فى عصر النهضة ؛ ولقد أظهرت فى المدة الباقية من حياتها كثيراً من الشواهد على أن حبها لأخيها لم تمحه جميع هذه المحن . ولعل حبه لها وحب أبيها ، اللذين يبلغان من القوة كل ما تستطيعه العاطفة الأسپانية الجائشة ، هو الذى جعل الفكهين من أهل رومة ، أو بالأحرى من أهل نابلى[١٠١] المعادية ، يتهمونها على الدوام بمضاجعة أبيها وأخيها ، حتى لقد وصفها أحد الكتاب ذلك الوصف الجامع الموجز بأنها : « ابنة البابا ، وزوجته ، وزوجة ابنه »[١٠٢] ؛ وصبرت على هذا أيضاً وهى هادئة مستسلمة ؛ ولقد أجمع المطلعون الباحثون

فى هذه الفترة أن هذه كلها اتهامات قاسية لا نصيب لها من الصحة[١٠٣] ، ولكن هذه المطاعن ظلت تدنس اسمها عدة قرون(*) .

ولسنا نرجح أن سيزارى قتل ألفنسو ليزوجها من بعده زواجا أكثر نفعا من الوجهة السياسية . فقد عرضت بعد فترة الحزن على كبير من أسرة ارسينى ، ثم على آخر من أسرة كولنا — وهما زواجان لا يبلغان من الفائدة السياسية مبلغ زواجها من ابن وارث عرش نابلى : ولسنا نسمع بأن الإسكندر عرض على إركولى دوق فيرارا أن يزوجها من ابنه ألفنسو[١٠٤] ، إلا فى نوفمبر من عام ١٥٠٠ ، كما أننا لم نسمع إلا فى سبتمبر من عام ١٥٠١ أنها خطبت له . ويلوح أن الإسكندر كان يأمل أن فيرارا التى يحكمها زوج ابنته ، ومنتوا التى ارتبطت مع فيرارا بالزواج من زمن بعيد ستكونان فى واقع الأمر ولايتين بابويتين ؛ وأيد سيزارى هذه الخطة لأنها تؤمن له فتوحه أكثر من ذى قبل ، وتضع فى يده قاعدة طيبة يهجم منها على بولونيا .. وتردد إركولى وألفنسو للأسباب التى سبق تفصيلها ؛ وكان ألفنسو قد عرضت عليه يد كونتة أنجوليم Angoulême ولكن الإسكندر أضاف إلى عرضه وعدا ببائنة ضخمة ، وبما يكاد يكون إلغاء تاماً للجزية التى كانت فيرارا تعطيها للبابوية . على أن أحدا رغم هذا كله لا يصدق أن أسرة من أقدم الأسر الحاكمة فى أوربا ، وأعظمها ثراء كان يقبل لكريدسيا زوجة لدوقها المرتقب لو أنها كانت تصدق القصص القذرة التى كان يذيعها سرا الكتاب النمامون فى رومة . وإذ لم يكن إركولى أو ألفنسو قد رأيا لكريدسيا حتى ذلك الحين ، فإنهما جريا على الخطة المألوفة فى هذا الزواج السياسى ، وطلبا إلى سفير فيرارا

(*) انظر تاريخ كيمبردج الحديث Cambridge Modern History المجلد الأول ص ٢٣٩ : « لا شىء أبعد عن لكريدسيا الحقيقية من لكريدسيا التى يصفها كتاب المسرحيات والروايات الغرامية .

فى رومة أن يبعث لها بتقرير عن شكلها وأخلاقها ، وميراتها . وجاءهما الرد الآتى :

سيدى العظيم : ذهبت اليوم مع دن جيراردو سراتشينى Gerardo Saraceni فى زيارة إلى السيدة العظيمة لكريدسيا لنبلغها احترامنا بوصفنا نائبين عن فخامتكم وعن جلالة دون ألفنسو . وتحدثنا إليها طويلا فى مختلف الشئون . وخرجنا من حديثنا معها على أنها غاية فى الذكاء والظرف ، وأنها سيدة غاية فى الرشاقة . والنتيجة التى وصلنا إليها أنك يا صاحب الفخامة ودن ألفنسو العظيم ستسرون منها غاية السرور . فهى فضلا عن رشاقتها الفائقة فى كل شيء ، متواضعة ، ودودة ، مؤدبة ، وهى إلى هذا كله مسيحية مؤمنة تخاف الله . وستذهب غداً للاعتراف ، وستتناول العشاء الربانى فى أسبوع عيد الميلاد . وهى فى منتهى الجمال ، ولكن سحر أدبها وظرفها ليدهشنا إكثر من جمالها ؛ وجملة القول أن أخلاقها تنفى عنها كل مظنة « السوء » . بل أننا على العكس من هذا لا نجد فيها إلا كل ما هو خليق بالثناء . . . رومة فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٥٠١ . . .

خادمكم

جوانس لوكاس Joannes Lucas (١٠٥)

واقتنع صاحبا الفخامة والجلالة من آل استنسى وبعثا بطائفة فخمة من الفرسان تصحب العروس من رومة إلى فيرارا . وأعد سيزارى بورچيا من عنده مائتى فارس لهذا الغرض عينه ، كما أعد طائفة من الموسيقيين والمهرجين لتسليتها فى رحلتها الشاقة . ودل الإسكندر على افتخاره وسعادته بأن أمدها بحاشية من ١٨٠ شخصا تضم خمسة أساقفة . وحمل جهازها على عربات صنعت لهذه الرحلة خاصة ، وعلى مائة وخمسين بغلا ؛ وكان من هذا الجهاز حلة تبلغ قيمتها ١٥٠٠٠ دوقة (١٨٧٥٠٠ ؟ دولار) ، وقبعة قيمها عشرة آلاف دوقة ، و٢٠٠ صدرة كلفت كل

واحدة منها مائة دوقة(١٠٦) . وبدأت لكريديسا سفرها فى اليوم السادس من يناير عام ١٥٠٢ بعد أن استأذنت سراً من والدتها ڤانندسا ، وعبرت إيطاليا للانضمام إلى خطيبها . وأخذ الإسكندر بعد أن ودعها يتنقل فى الموكب من مكان إلى مكان ، ليلقى عليها نظرة أخرى ممتطية صهوة جوادها الأسبانى الصغير المكسو كله بالجلد والذهب ، وظل يرقبها حتى اختفت عن الأنظار وحاشيتها التى تضم ألف رجل وامرأة ، ولعله كان يظن أنه لن يراها مرة أخرى .

وأكبر الظن أن رومة لم تشهد قط من قبل مثل هذا الموكب يخرج منها ، كما أن فيرارا لم تشهد قط موكبا مثله يدخلها . واستقبل لكريدسيا بعد رحلة دامت سبعة وعشرين يوما ، الدوق إركولى ودن ألفنسو على رأس موكب كبير من الأعيان ، والأساتذة ، وخمسة وسبعين من الرماة حملة الأقواس ، وثمانين من النافخين فى الأبواق والمزامير ، وأربع عشرة عربة مستوية السطح تحمل سيدات من بنات الأسر الكريمة فى ثياب فخمة . ولما بلغ الموكب الكنيسة الكبرى نزل من أبراجها رجلان ممن يمشون على الحبال ، وقدما التحية للكريدسيا . ولما بلغ الموكب قصر الدوق ، أطلق سراح جميع المسجونين ؛ وابتهج الشعب بجمال دوقته المقبلة وبسماتها ، وسعد ألفنسو بأن كانت له هذه الزوج العظيمة الفاتنة(١٠٧) .

الفصل السادس

انهيار سلطان آل بورجيا

يبدو وأن الإسكندر قضى سنى حياته الأخيرة سعيداً موفقا . فقد تزوجت ابنته فى أسرة من الأدواق ، وكانت فيرارا كلها تجاهها وتعظمها ؛ كذلك أنجز ولده ما عهد إليه بوصفه قائدا وحاكما ؛ وكانت الولايات البابوية مزدهرة ذات حكومة ممتازة . ويصف سفير البندقية البابا فى تلك السنين بأنه مرح نشيط ، يبدو أنه مرتاح الضمير « لا ينغص عليه حياته شيء » . وقد بلغ فى أول يناير من عام ١٥٠١ سن السبعين ولكنه ، كما يصفه السفير : « يخيل إلى من يراه أنه ينقص فى السن يوما عن يوم » (١٠٨) .

وحدث فى الخامس من شهر أغسطس من عام ١٥٠٣ أن كان الإسكندر ، وسيزارى ، وجماعة غيرهما يتعشون فى الهواء الطلق فى بيت الكردنال أدريانو دا كرنيتو Adriano da Corneto الحلوى غير البعيد عن الفاتيكان ، وبقوا جميعاً فى حديقة المنزل حتى منتصف الليل لأن حرارة الجو فى داخل الدار لم تكن تطاق . فلما كان اليوم الحادى عشر أصيب الكردنال بحمى شديدة دامت ثلاثة أيام ثم زالت . وفى اليوم الثانى عشر أصيب البابا وولده بحمى وقىء واضطرا لملازمة الفراش . وتحدثت رومة كعادتها عن السم وقال النمامون إن سيزارى أمر بدس السم للكردنال ليحصل على ماله ، وإن الضيوف كلهم تقريباً أكلوا خطأ من الطعام المسموم . لكن المؤرخين الآن متفقون مع الأطباء الذين عالجوا البابا على أن الحمى هى عدوى من الملاريا سببها طول التعرض لهواء الليل فى رومة فى منتصف الصيف(١٠٩) . وقد أصيب بهذا المرض نفسه نصف آل بيته

البابا ، وكان كثير من هذه الإصابات مميتا(١١٠) ، وقد مات بها فى رومة عدة مئات فى ذلك الفصل عينه .

وظل الإسكندر ثلاثة عشر يوماً بين الحياة والموت ، يستعيد صحته تارة حتى يستطيع عقد المجالس الدبلوماسية ؛ بل حدث فى الثالث عشر من أغسطس أن تسلى بلعب الورق . وحجمه الأطباء عدة مرار ، ولعلهم قد أخذوا من دمه فى إحداها أكثر مما يجب ؛ بحيث استنزفوا قواه الطبيعية . وتوفى البابا فى الثامن عشر من أغسطس ؛ وما لبثت جثته أن أصبحت سوداء اللون كريهة الرائحة ، تؤيد زعم من يشيعون بأنه مات مسموماً . ويقول بركهارد إن النجارين والمجدفين كانوا يتفكهون ، ويجدفون، وهم يجدون من الصعب عليهم أن يحشروا الجثة المنتفخة فى التابوت الذى أعد لها(١١١) ؛ ويضيف الثرثارون أنهم رأوا شيطانا صغيراً ساعة أن مات الإسكندر يحمل روحه إلى الجحيم(١١٢) ؛

وابتهج أهل رومة لموت البابا الأسبانى وانتشر الشغب فى المدينة ، وطرد « القطلانيون » منها أو قتلوا وهم فى طريقهم إلى خارجها ، ونهب الغوغاء بيوتهم ، وحرق مائة بيت منها . ودخل المدينة جنود آل كولنا وأرسينى المسلحون فى الثانى والعشرين والثالث والعشرين من أغسطس، غير عابئين باحتجاج مجمع الكرادلة . وفى ذلك يقول جوتشـيارديني الوطنى الفلورنسى .

« وتجمع أهل رومة بسرعة لا يكاد يصدقها الإنسان ، وتزاحموا حول جثة البابا فى كنيسة القديس بطرس ، ولم يكن فى مقدورهم أن يشبعوا عيونهم من منظر ذلك الأفعوان الهالك الذى طمس على قلوب العالم كله ، وأعمى بصائره بمطامعه التى تجاوزت كل حد ، وبغدره البغيض ، وما ارتكبه من أعمال القسوة الرهيبة التى لا يحصى لها عدد ، وفجوره الوحشى ، وعرضه للبيع كل ما هو مقدس وغير مقدس دون تفرقة بين هــذا

وذاك[١١٣] . ويتفق ميكڤلى مع جوتشياردينى فيقول إن الإسكندر :

لم يؤثر عنه إلا الخداع ، وإنه لم يكن يفكر فى غير هذا طول حياته كلها ، ولم يقسم قط إنسان إيماناً أقوى من إيمانه بإنجاز الوعود ثم ينقض هذه الأيمان فيما بعد . ولكنه مع هذا نجح فى كل شىء لأنه كان ملماً كل الإلمام بهذا الجزء من العالم[١١٤] .

وقد بنيت هذه الأحكام على فرضين أساسيين أولهما أن القصص التى كانت تروى فى رومة عن الإسكندر صادقة ، وثانيهما أن الإسكندر لم يكن محتماً فى سلوك السبل التى سلكها لاستعادة الولايات البابوية . ويشترك المؤرخون الكاثوليك فى الطعن على أساليب الإسكندر وأخلاقه ، وإن كانوا يدافعون عن حقه فى استعادة سلطان البابوية الزمنى . ومن ذلك ما يقول باستور الأمين .

« إن الناس بوجه عام يصفونه بأنه حيوان لا إنسان ، ويلصقون به كل أنواع الجرائم الشنيعة . ولكن البحث النقدى الحديث يحكم عليه حكما أعدل من هذا ، وينفى عنه بعض ما يلصق به من أشنع التهم ، غير أننا وإن كان من واجبنا أن نكون حذرين فى قبول القصص التى يرويها معاصرو الإسكندر عنه دون بحث وتحقيق ، وإن كان الفكهون الحاقدون من الرومان قد وجدوا متعة لهم فى أكل لحمه ميتاً دون رحمة ، فوصفوا حياته فى مطاعنهم الشعبية ونكاتهم الشعرية أوصافاً قذرة لا يصدقها إنسان ، نقول إنه وإن كان من واجبنا أن نكون حذرين فى قبول هذا كله فإن ما ثبت عليه من هذه التهم ليضطرنا إلى رفض ما يبذل فى هذه الأيام من محاولات ترمى إلى تبرئته ، لأن فى هذه المحاولات عبثاً بالحقيقة لا يليق . . . ويستحيل علينا من وجهة النظر الكاثوليكية أن نتجاوز الحد اللائق فى لوم الإسكندر وتعنيفه .

وكان المؤرخون البروتستنت كراماً فى حكمهم على الإسكندر ، فاصطنعوا

معه اللين فى بعض الأحيان . فقد كان وليم رسكو William Roscoe من أوائل الذين قالوا كلمة طيبة عن البابا وذلك فى كتابه الشهير **حياة ليو العاشر وبابويته** (١٨٢٧) :

« مهما تكن جرائمه ، فإن الذى لا شك فيه أنها قد بولغ فيها كثيراً ، فليس ثمة من ينكر أنه قد صرف جهوده فى رفع شأن أسرته ، وأنه استخدم السلطة التى أسبغها عليه منصبه فى فرض سيطرته الدائمة على إيطاليا فى شخص ابنه ؛ ولكن يبدو أننا نظلم الإسكندر إذا وصمناه بقسط خاص غير عادى من السفالة والإسفاف فى الوقت الذى كان فيه أمراء أوربا كلهم تقريباً يحاولون تحقيق مطامعهم بوسائل لا تقل إجراماً عن وسائله . فبينا كان لويس ملك فرنسا ، وفرديناند ملك أسپانيا يتآمران للاستيلاء على مملكة نابلى واقتسامها بينهما ، ويستخدمان فى ذلك أساليب من الغدر لا يمكن أن نوفيها ما تستحقه من المقت واللعنات ، فإن الإسكندر بلا ريب أن يظن نفسه محقاً فى كبح جماح البارونات المشاكسين ، الذين ظلوا أجيالا طوالا يمزقون أملاك الكنيسة بالحروب الداخلية ، وفى إخضاع صغار الأمراء فى رومانيا ، وهم الذين كانوا يعترفون له بحق السيادة عليهم ، والذين حصل معظمهم على أملاكهم بوسائل لا نجد لها ما يبررها ، وهى أبعد عن العدالة من الوسائل التى استخدمها هو ضدهم . أما التهم التى يعتقد بصدقها كثيرون من الناس ، وما يعزى إليه من الصلة الإجرامية بينه وبين ابنته . . . فليس من العسير أن نثبت بعدها عن الصواب . يضاف إلى هذا أن رذائل الإسكندر كان يصححها ، وإن لم يعوضها ، كثير من الصفات الطيبة العظيمة التى يجب ألا نمر بها صامتين فى حكمنا على أخلاقه . . . . وإن أشد الناس عداوة له لا ينكرون أنه ذو عبقرية فذة ، وذاكرة عجيبة ، وأنه كان فصيح اللسان ، يقظاً ، بارعاً فى تصريف جميع شئونه[١١٦] » .

وقد أوجز الأسقف كريتن Creighton أخلاق الإسكندر وأعماله

بما يتفق بوجه عام مع حكم رسكو عليه ، وكان أكثر رأفة به من باستور[١١٧].
وثمة حكم آخر متأخر عن حكم هؤلاء جميعاً وهو أرحم به منهم ونعنى به حكم العالم البروتستنى رتشرد جارنت Richard Garnett فى تاريخ كيمبردج الحديث :

« لقد كسبت أخلاق الإسكندر بلا ريب من بحوث المؤرخين المحدثين . ولقد كان من الطبيعى أن يظهر بمظهر الظلم والفجور رجل اتهم بهذه الجرائم الكثيرة ، وكان بلا ريب مصدر الكثير من الفضائح . غير أن هذا الوصف أو ذاك لا يليق به . لقد كان العامل الأساسى فى أخلاقه كلها فطرته الغزيرة الفياضة . ويسميه سفير البندقية الرجل « الجسدى » وهو لا يقصد بهذا أن يعزو إليه أية نقيصة من النقائص الخلقية ، بل يقصد أنه رجل حاد الطبع ، عاجز عن السيطرة على عواطفه وانفعالاته النفسية . وكانت طبيعته هذه مبعث الحيرة للإيطاليين الهادئين غير ذوى العواطف الجياشة من رجال الصنف الدبلوماسى الذين يكثرون بين الحكام ورجال السياسة ؛ وقد أساءوا كثيرا إلى الإسكندر بعجزهم عن فهمه على حقيقته ، مع أنه فى واقع الأمر لم يكن أقل إنسانية من معظم أمراء زمانه بل كان يفوقهم كثيراً فى هذا المجال . وكانت هذه الغريزة الجسدية العارمة مصدر كثير من الخير والشر فيه . ذلك أنها قد ساقته إلى شهوانية عارمة من نوع ما . وإن كان فى نواح أخرى معتدلا زاهداً ، وسبب ذلك أنه لم تكن تقيده مبادئ أخلاقية قوية أو أفكار روحية مستمدة من الدين . أما فى صورتها التى هى أدعى إلى الإجلال والتقدير ، وهى حبه لأسرته فقد ساقته هذه النزعة إلى الاعتداء على جميع مبادئ العدالة ، وإن لم يفعل حتى فى هذه الناحية أكثر من قيامه بعمل ضرورى محتوم لا يمكن أداؤه « بالماء المقدس » كما قال أحد عماله ؛ لكن دماثة أخلاقه ومرحه قد أبعداه عن الاستبداد بالمعنى العادى لهذا اللفظ ... فقد كان فى العادة يعنى بمصالح شعبه من الناحية المادية ، ولهذا يعد من

خير الحكام فى زمانه ، وكان فى حكمه يضارع خير حكام تلك الأيام من الناحية العقلية ؛ غير أن عدم تقيده فى سياسته بالمبادئ الأخلاقية قد أفسد عليه ما كان يستطيع أن يدركه ببصيرته القوية النفاذة ، ذلك أنه كانت تعوزه الحكمة العليا التى تمكنه من أن يدرك خصائص الفترة التى يعيش فيها ويتنبأ بمجريات أمورها ، ولم يكن يعرف للمبدإ معنى »(١١٨) .

والذين لهم ما للإسكندر من إحساس مرهف بمفاتن النساء ورشاقتهن لا تطاوعهم نفوسهم على أن يقذفوه بالحجارة بسبب عشقه وهيامه بالنساء ، ذلك أن ما يؤخذ عليه فى هذه الناحية قبل أن يرتقى عرش البابوية لم يكن فيه من الفضائح أكثر مما فى مغامرات إنياس سلفيوس **Aeneas Sylius** المحبب إلى المؤرخين ، أو يوليوس الثانى الذى أكرمته الأيام فغفرت له آثامه . ولم بسجل التاريخ أن هذين البابوين قد عنيا بعشيقاتهما وأبنائهما كما عنى الإسكندر بعشيقاته وأبنائه . والحق أن الجو الذى كان يحيط بالإسكندر كان فيه من خصائص الأسرة والمنزل ما كان يجعله رجلا خليقاً بالاحترام إلى حدما ، لو أن قوانين الكنيسة وعادات إيطاليا فى عصر النهضة ، وألمانيا وإنجلترا فى زمن الإصلاح الدينى ، قد أجازت زواج رجال الدين . ذلك أن خطاياه لم تكن خطايا ارتكبها ضد الطبيعة البشرية ، بل كانت ضد القواعد التى تلزم رجال الدين بأن يظلوا عزاباً ، وهى القواعد التى رفضها نصف العالم المسيحى بعد قليل من ذلك الوقت . وليس فى مقدورنا أن نقول إن صلته بجوليا فرنيزى كانت صلة جسدية ؛ ومبلغ علمنا أن ڤانندسا ، ولكريدسيا ، وزوج جوليا لم يعترضوا قط على هذه الصلة ؛ ولعلها لم تكن أكثر من المتعة البسيطة التى يجدها الرجل السوى فيما تستمتع به امرأة جميلة من جاذبية ومرح وحيوية .

ومن واجبنا حين نحكم على أعمال الإسكندر السياسية أن نفرق بين غاياته ووسائله . فأما غاياته فقد كانت كلها غايات مشروعة — هى استعادة

« ميراث الرسول بطرس » (وأهم ما فيه لاتيوم القديمة) من البارونات الإقطاعيين أصحاب النظام الفاسد المضطرب ، وأن يسترد من الطغاة المغتصبين الولايات التى هى من أملاك الكنيسة من أقدم الأزمنة . وأما الوسائل التى استعان بها الإسكندر وسيزارى على تحقيق هذه الغايات فقد كانت هى بعينها التى استعانت بها جميع الدول الأخرى فى ذلك الوقت وذلك المكان — الحرب ، والدبلوماسية ، والخداع ، والغدر ، وخرق المعاهدات ، والتخلى عن الحلفاء . لقد كان ترك الإسكندر الحلف المقدس ، وشراؤه الجنود الفرنسين والمعونة الفرنسية بتسليم ميلان لفرنسا . من الجرائم الكبرى فى حق إيطاليا ؛ وإن هذه الوسائل الدنيوية التى تستخدمها الدول فى غايات النزاع الدولى التى لا يعرف فيها معنى للقانون ، إن هذه الوسائل لتشمئز منها نفوسنا إذا استخدمها بابا تعهد أن يحافظ على مبادئ المسيح وأيا كان الخطر الذى تتعرض له الكنيسة فى أن تصبح خاضعة لسلطان حكومة مسيطرة عليها — كما خضعت لفرنسا أيام وجودها فى أفنيون — إذا ما فقدت أملاكها ، فقد كان أفضل لها أن تضحى بسلطتها الزمنية كلها ، وأن تعود فقيرة كما كان صيادو الجليل ، من أن تلجأ إلى الأساليب الدنيوية لتحقيق أغراضها السياسية . ذلك أنها حين لجأت إلى هذه الوسائل ووفرت لها ما يلزمها من المال فد كسبت دولة وخسرت ثلث العالم المسيحى .

ولنعد إلى سيزارى بورجيا فنقول إنه بعد أن شفى شفاء بطيئاً من المرض الذى قضى على حياة البابا ، وجد نفسة محوطاً بما لا يقل عن عشرة أخطار لم يكن يتوقعها . ومنذا الذى كان يتنبأ بأنه هو وأباه سيعجزان كلاهما عن العمل فى وقت واحد . فبينا كان الأطباء يحجمونه استرد آل كولنا وأرسينى مسرعين القلاع التى انتزعها منهم قبل ؛ وشرع الأمراء المخلوعون فى رومانيا ، تشجعهم البندقية يطالبون باستعادة إماراتهم ؛ وكان غوغاء رومة الذين أفلت الآن زمامهم بعد أن مات

الإسكندر يتحفزون لنهب الفاتيكان_في أية لحظة من اللحظات . وينهبون الأموال التى يعتمد عليها سيزارى فى أداء رواتب جنده . فلم ير سيزارى بدأ من أن يرسل عدداً من الرجال المسلحين إلى الفاتيكان ؛ وأرغم هؤلاء الكردنال كسانوڤا Cassanuova بقوة السيف على أن يسلمهم ما فى الخزانة من الأموال ؛ وهكذا فعل سيزارى ما فعله يوليوس قيصر قبل خمسة عشر قرناً من ذلك الوقت. فقد جاء إليه الجند بمائة ألف دوقة ذهباً ، كما جاءوا إليه بصحاف وجواهر قيمتها ثلثمائة ألف دوقة ، وأرسل فى الوقت عينه سفناً وجنوداً يمنع بها الكردنال جوليانو دلا روڤيرى أقوى أعدائه من الوصول إلى رومة ؛ وكان يحس بأنه إن لم يستطع إقناع المجمع المقدس بانتخاب بابا من أنصاره فقد ضاعت كل آماله .

وأصر الكرادلة على أن يجلو جنود سيزارى وآل أرسينى وكولنا عن رومة حتى يستطيعوا أن يختاروا البابا الجديد فى جو خال من الإرهاب : ووافق الأطراف الثلاثة على هذا المطلب ، فانسحب سيزارى ورجاله إلى تشيڤيتا كستلانا Civita Castellana ، فى الوقت الذى دخل فيه الكردنال جوليانو رومة ، وتزعم فى مجمع الكرادلة القوى المعادية لآل بورچيا . وفى الثانى والعشرين من سبتمبر عام ١٥٠٣ اختارت الأحزاب المتنافسة فى مجمع الكردنال فرانتشيسكو پكولوميني Francesco Piccolomini بابا مرضاة لجميع الأطراف المتنازعة ، وتسمى باسم پيوس الثالث ، تكريماً لعمه إينياس سلڤيوس . وكان پيوس رجلا غزير العلم طيب الخلق ، وإن كان أيضاً أباً لأسرة كبيرة(١١٩) . وكان وقتئذ فى الرابعة والستين من عمره مصاباً بخراج فى ساقه . وكان من أصدقاء سيزارى ولذلك سمح له بالعودة إلى رومة ، ولكن پيوس مات فى الثامن عشر من شهر أكتوبر :

وأيقن سيزارى أنه لا يستطيع وقتئذ أن يمنع انتخاب الكردنال دلا روڤيرى وهو بلا ريب أقدر رجل فى المجمع المقدس : لهذا عقد سيزارى

اجتماعا خاصا مع جوليانو وأزالا فى ظاهر الأمر ما كان بينهما من عداء : فقد وعد جوليانو بتأييد الكرادلة الأسبان (الأوفياء لسيزارى) ، ووعده جوليانو إذا اختير للبابوية بتثبيته دوقاً على رومانيا وقائداً للجيوش البابوية . وابتاع جوليانو أصوات بعض الكرادلة الآخرين برشا بسيطة(١٢٠) . وبذلك اختير جوليونو دلا روفيرى بابا (فى ٣١ أكتوبر سنة ١٥٠٣) واتخذ لنفسه اسم يوليوس الثانى كأنه يريد أن يكون هو نفسه قيصرا ، وأن يفوق الإسكندر . وأجل تتويجه حتى اليوم السادس والعشرين من نوفمبر لأن المنجمين تنبأوا باقتران بعض الكواكب فى ذلك اليوم اقتراناً يبشر بالخير .

ولم تنتظر البندقية مطلع نجم سعيد ، فقد استولت على ريمينى ، وحاصرت فاثندسا ، وكشفت عن نيتها فى أن تستولى على ما تستطيع الاستيلاء عليه من رومانيا قبل أن تتمكن الكنيسة من إعادة تنظيم قواها . وأمر يوليوس سيزارى بالتوجه إلى إمولا وتجييش جيش جديد لحماية الولايات البابوية . ووافق سيزارى على هذا وسار إلى أستيا معتزماً أن يبحر منها إلى بيزا . لكن رسالة جاءت إليه من البابا وهو فى بيزا تأمره بأن يسلم ما فى يديه من حصون رومانيا : وارتكب سيزارى فى تلك الساعة خطأً موبقاً يوحى إلينا بأن المرض قد أفسد عليه رأيه إذ رفض أن يطيع أمر البابا ، وإن كان من واجبه أن يعلم حق العلم أنه أمام رجل لا يقل عنه فى قوة إرادته إن لم يفقه . وأمره يوليوس أن يعود إلى رومة ؛ وأطاع سيزارى الأمر ، فلما عاد قبض عليه فى منزله . وجاءه جويدوبلدو الذى أعيد فى ذلك الوقت إلى أربينو ، ثم عين فوق ذلك قائداً للجيوش البابوية لبرى سليل آل بورچيا الساقط ، وأذل سيزارى نفسه أمام الرجل الذى خلعه ونهب أملاكه ، وأطلعه على كلمة السر فى الحصون ، وأعاد إليه بعض نفائس الكتب والستر المزركشة التى بقيت بعد نهب أربينو ، وتوسل

إليه أن يتوسط بينه وبين يوليوس . ورفضت تشيزينا Cesena وفورلى أن تطيعا كلمة السر حتى يطلق سراح سيزارى ، ولكن يوليوس رفض أن يطلق سراحه إلا بعد أن يقنع قلاع رومانيا بالتسليم إلى البابا . وتوسلت لكريدسيا إلى زوجها أن يساعد أخاها ؛ ولكن ألفنسو (ولم يكن وقتئذ قد جلس على عرش الدوقية بل كان فقط ولى عهد لها) لم يفعل شيئاً . فما كان منها إلا أن لجأت إلى إزبلا دست ؛ ولم يكن حظها معها بأحسن من حظها مع ألفنسو ، ولعلها هى وألفنسو قد عرفا أن يوليوس لن يتحول عن رأيه ، فلم ير سيزارى آخر الأمر بدا من أن يطلب إلى مؤيديه فى رومانيا أن يسلموا الحصون ؛ وأطلق البابا سراحه ؛ ففر إلى نابلى (١٩ إبريل سنة ١٥٠٤) .

ورحب به فيها جندسالو ده كردوبا (جندسالو القرطبى) الذى أمنه على حياته أثناء مروره بها . وعادت إليه شجاعته أسرع من عودة بصيرته ، فنظم قوة صغيرة ، وبينا كان يستعد إلى الإبحار بها پيومبينو Piombino (بالقرب من لغورن Leghorn) إذ قبض عليه جندسالو بأمر فرديناند ملك أسپانيا ؛ وكان يوليوس هو الذى دفع هذا « الملك الكاثوليكى » إلى العمل لأنه لم يشأ أن يثير سيزارى فى البلاد حربا أهلية . ونقل سيزارى إلى أسپانيا فى شهر أغسطس وظل يعانى مرارة السجن عامين كاملين ، وحاولت لكريدسيا مرة أخرى أن تطلق سراحه ولكنها لم توفق . كذلك دافعت عنه زوجته التى هجرها عند أخيها چان دالبرت Jean d'Albert ملك نبرة ، ودبرت له خطة الهرب ، وخرج سيزارى من السجن مرة أخرى وأصبح طليقا فى نبرة فى شهر نوفمبر من عام ١٥٠٦ . وسرعان ما واتته الفرصة ليرد لدا لبرت الجميل . ذلك أن كونت لرين Lirne ، وهو من أتباع الملك خرج على سيده ، فتولى سيزارى قيادة جزء من جيش چان وهاجم به حصن الكونت فى ڤيانا Viana . وخرج الكونت على رأس

الحامية من الحصن وهجم على سيزارى ، فصده هذا ، وتعقب القوة المهزومة بتهور وقلة مبالاة ؛ وجاء المدد إلى الكونت وقتئذ ، وهجم على عدوه ، وفر جنود سيزارى القلائل ، ولم يثبت إلا هو نفسه ورفيق له واحد، وحارب حتى أثخن بالجراح ومات فى القتال (١٢ مارس سنة ١٥٠٧) وهو فى سن الحادية والثلاثين .

وكانت هذه خاتمة شريفة لحياة تحيط بها الريب . ذلك أن فى حياة سيزارى بورجيا أشياء كثيرة لا تروقنا ، نذكر منها كبرياءه وتبجحه ، وإهماله زوجته الوفية ، ومعاملته النساء كأنهن أدوات للملذاته العابرة ، وقسوته على أعدائه فى بعض الأحيان — مثال ذلك حكمه بالإعدام على جويليو ڤارنو Giulio Varno صاحب كميرينو Camerino وعلى ولديه ؛ وقتله فيما يبدو اثنين من أبناء منفريدى Manfredi ، وهى قسوة تناقض كل التناقض رأفة الرجل الذى يتسمى باسمه(*) . وكان يعمل عادة بالمبدأ القائل إن تحقيق أغراضه يبرر فى رأيه كل وسيلة يستخدمها لهذه الغاية ، فالغاية فى رأيه تبرر الوسيلة . لكننا نذكر مع هذا أنه كان يجد نفسه محوطاً بالأكاذيب ، وأنه استطاع أن يتفوق فى الكذب على من عداه حتى كذب عليه يوليوس . ونكاد نجزم بأنه لم تكن له يد فى مقتل أخيه چيوڤنى ، ولكن أكبر الظن أنه هو الذى حرض السفاحين على قتل دوق بسترشيجلى Bisceglie ، ولعله كانت تنقصه — بسبب مرضه — القدرة على مواجهة مصائبه بشجاعة وكرامة ، وكان موته هو العمل الوحيد الذى شرفت به حياته .

ولكنه حتى هو كان يتصف ببعض الفضائل ، فما من شك فى أنه كان ذا كفاية غير عادية مكنته من أن يرقى هذا الرقى السريع ، وأن يتعلم بهذه السرعة فنون الزعامة ، والتفاوض ، والحرب ؛ ولما أن عهد إليه بذلك الواجب الشاق ، واجب استعادة سلطة البابا فى الولايات البابوية ، ولم يكن

(*) يريد يوليوس قيصر . (المترجم)

تحت لوائه إلا قوة صغيرة ، قام بهذا الواجب بحركة سريعة مدهشة ، ومهارة فى الفنون العسكرية ، واقتصاد فى الوسائل . ولما عهد إليه أن يحكم وأن يفتح حبا رومانيا بأكثر ما استمتعت به منذ قرون من عدالة فى الحكم ورخاء فى السلم . ولما أمر بأن يطهر الكمپانيا من الأتباع العصاة المتمردين المشاكسين ، قام بهذا العمل بسرعة يصعب على بوليوس قيصر نفسه أن يبزه فيها ؛ ولعله حين طافت هذه الأعمال العظيمة برأسه قد راوده الحلم الذى راود پترارك ومكيڤلى : وهو أن يهب إيطاليا ، بالفتح إذا لزم الأمر ، الوحدة التى تمكنها من أن تقف فى وجه قوتى فرنسا وأسپانيا المركزتين(*) . ولكن انتصاراته ، وأساليبه ، وقوته ، وأعماله السرية الخفية ، وهجماته السريعة التى لا يحصى لها عدد ، جعلته سوط عذاب على إيطاليا بدل أن تجعله عاملا على تحريرها . ذلك أن عيوبه الخلقية كانت سبباً فى القضاء على ما أنجزه من الأعمال بقوته العقلية . وكانت مأساته الأساسية أنه لم يتعلم قط أن يحب .

ولنقل مرة أخرى كلمة موجزة عن لكريشيا : ألا ما أكبر الفرق بينها وبين أخيها الذى هوى من حالق مجده ، فى تواضعها ، وهناءتها فى سنيها الأخيرة . ذلك أنها ، وقد كانت فى رومة مضغة فى فم كل نمام ،

(*) « أصبحت هذه الأمم » — فرنسا ، وأسپانيا ، وإنجلترا ، وهنغاريا — « وقتئذ دولا ملكية قوية ليس فى مقدور تلك الإضمامة المفككة من الدويلات » الإيطالية « أن تقف فى وجهها . ولقد كان يسع رجلا مثل سيزارى بورچيا ، فى أغلب الظن ، أن ينجيها لو أنه كان يتروم بأعماله فى أوائل القرن الخامس عشر لا فى نهايته . . . . وكان أقرب ما حدث إلى الوحدة فيها هو إقامة سلطة البابا الزمنية التى كان الإسكندر ويوليوس أكبر العاملين عليها . ولسنا ننكر أن ما استخدم من الوسائل لإنشائها كثيراً ما كان ذميما إلى أبعد حد ، ولكن إقامة هذه السلطة كان يبرره ما تؤول إليه البابوية من ضعف لو لم تنشأ ، والثمرة الطيبة التى أثمرها وجودها بعد أن أصبحت هى كل ما بقى فى إيطاليا من آثار الكرامة والاستقلال » . تاريخ كيمبردج الحديث ، المجلد الأول ص ٢٥٢ .

قد أحبها أهل فيرارا ورأوا فيها مثلا أعلى للفضائل النسوية[١٢١] . فقد حاولت فيها أن تنسى جميع محن ماضيها ومآسيه ؛ واستعادت مرح شبابها ولم تخرج فى ذلك عن حدود الاعتدال والأناة ، وأضافت إلى مرحها هذا اهتماماً كريماً بحاجات غيرها من الناس . وقد أثنى عليهـــا أريستو ، وتيبلديو Tibaldeo ، وبمبو وتيتو ، وإركولى اسفوردسا فى أشعارهم ثناء جنت منه أكبر الفائدة ؛ فقد وصفوها بأنها « أجمل فتاة » ولم يشر أحد منهم إليها بسوء . ولعل بمبو أراد أن يكون لها كما كان أبلار لهلواز Heloise (*) وقد أضحت لكريدسيا وقتئذ تجيد عدة لغات فتتكلم الأسبانية ، والإيطالية ، والفرنسية ، وتقرأ « قليلا من اليونانية وأقل منها من اللاتينية » . ويقول بعضهم إنها كانت تقرض الشعر بهذه اللغات جميعاً[١٢٢] ، وقد أهدى إليها ألدوس مانيتوس Aldus Manitius الطبعة التى أصدرها من ديوان استرتسى Strozzi وأشار فى المقدمة إلى أنها عرضت عليه أن تمول مشروعه العظيم فى الطباعة[١٢٣] .

وقد وجدت بين هذه المشاغل العلمية الكثيرة متسعاً من الوقت حملت فيه لزوجها الثالث ثلاثة بنين وبنتاً واحدة . وقد سر منها ألفنسو على طريقته الدافقة العارمة . من ذلك أنه لما دعاه الداعى إلى مغادرة فيراراً فى عام ١٥٠٦ أنابها عنه فى حكمها ، فقامت بواجبات الحكم فيها بحكمة وحسن بصيرة جعلتا أهل فيرارا يميلون إلى مسامحة الإسكندر إذ تركها فى وقت ما تشرف على شئون الفاتيكان .

(*) كان أبلار أول الأمر معلما لهلواز ، ثم هام بها وانتهى حبهما بأشد المآسى وأروعها فى التاريخ . وقد دارت بينهما رسائل أدبية تعد من أشهر الرسائل فى آداب العصور الوسطى . وقد ترجمت هذه الرسائل إلى كثير من اللغات ومنها اللغة العربية . انظر قصتهما ورسائلهما فى كتابنا : « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

وكرست جهودها فى السنين الأخيرة من حياتها لتربية أبنائها وتعليمهم ، ولأعمال البر والرحمة ، وأضحت راهبة فرنسيسية من الطبقة الثالثة : ووضعت فى الرابع عشر من شهر يولية عام ١٥١٩ طفلها السابع ، لكنه مات قبل أن يرى الضوء ، ولم تغادر قط فراش المرض ، حتى إذا كان اليوم الرابع والعشرون من ذلك الشهر ماتت وهى فى سن التاسعة والثلاثين لكريسيا بورجيا التى ظلمها الناس أكثر مما ظلمت هى نفسها :

الباب السابع عشر

يوليوس الثـــانى

١٥٠٣ – ١٥١٣

الفصل الأول

المحـــارب

إذا ما وضعنا أمامنا صورة رفائيل الفاحصة العميقة ليوليوس الثانى حكمنا من فورنا بأن جوليانو دلا روڤيرى كان من أقوى الشخصيات التى جلست على كرسى البابوية . ذلك أنا نرى فى الصورة رأساً ضخماً ينحنى من فرط الإجهاد ومن التواضع المتوالى ، وجبهة عريضة عالية ، وأنفاً كبيراً ينم عن العناد ، وعينين وقورتين ، عميقتين ، نفاذتين ، وشفتين منطبقتين تشهدان بالصلابة والعزيمة ، ويدين مثقلتين بأختام السلطة ، ووجهاً مكتئباً يكشف عما فى السلطة من خداع . وهذا هو الرجل الذى ظل عشر سنين يقذف بإيطاليا فى أتون الحرب والاضطراب ، والذى حررها من الجيوش الأجنبية ، وهدم كنيسة القديس بطرس القديمة ، واستدعى برامنتى ومائة غيره من الفنانين إلى رومة ؛ وكشف ، ونمى ، ووجه ميكل أنچيلو ورفائيل ، وقدم للعالم على أيديهم كنيسة للقديس بطرس جديدة ، وسقفاً جديداً لمعبد سستينى وقاعات الفاتيكان . ذلك رجل ليس كمثله كثيرون فى الرجال .

وأكبر الظن أن طبعه الحاد كان يميزه منذ نشأته . وكان مولده بالقرب

من سافونا Savona وهو ابن أخ لسكستس الرابع ، وقد وصل إلى الكردنالية فى السابعة والعشرين من عمره ، وظل فيها قلقا ساخطا ثلاثا وثلاثين سنة قبل أن يرقى إلى المنصب الذى كان يرى أنه حقه الواضح ، ولم تكن عنايته باليمين التى أقسمها بأن يبقى عزبا أكثر من عناية معظم زملائه(١) فقد قال كبير حجابه فى الفاتيكان بعدئذ أن يوليوس الثانى لم يكن يسمح بأن تقبل قدمه لأن « المرض الفرنسى » كان يشوهها(٢) . وكانت له ثلاث بنات غير شرعيات(٣) ، ولكن مشاغله الكثيرة فى محاربة الإسكندر لم تكن تتيح له وقتاما لإظهار العطف الأبوى الذى كان يظهره الإسكندر نفسه والذى كان يغضب المنافقين من بنى الإنسان . وكان يكره الإسكندر لأنه فى رأيه دخيل أسبانى ، ولا يرى أنه يليق للبابوية ، ويسميه نصابا ، ومغتصبا(٤) ، وقد بذل كل ما فى وسعه لخلعه ، ولم يتورع حتى من استعداء فرنسا على إيطاليا ودعوتها إلى غزوها . وكان الإسكندر يشن الحرب باسمه أما يوليوس فكان يخوضها بشخصه ، فقد أصبح البابا ابن الستين من العمر جنديا ، وكان ارتداء الثياب العسكرية أيسر له من المسوح البابوية ، وكان يحب المعسكرات وحصار المدن ، وتصويب المدافع ومشاهدة الهجمات توجه أمام عينيه . وكان يسع الإسكندر أن يعبث ويلعب ؛ أما يوليوس فكان يجد اللعب من أشق الأعمال لأنه يحب أن يواجه الناس برأيه فيهم ؛ « وكثيراً ما كانت لغته تتجاوز كل الحدود فى وقاحتها وعنفها » و « كان هذا العيب يزداد زيادة واضحة كلما تقدمت به السن »(٥) . ولم تكن شجاعته ، كما لم تكن لغته ، تعرف لها حدا ، وكان حين تنتابه العلة المرة بعد المرة أثناء حروبه يحير أعداءه إذ يستعيد صحته وينقض عليهم مرة أخرى .

وكان لابد له أن يفعل ما فعله الإسكندر فيبتاع بالمال عدداً قليلا من الكرادلة ليدسروا له سبيله إلى عرش البابوية ، ولكنه شهر بهذه العادة فى

مرسوم له أصدره عام ١٥٠٥ . وإذا لم يكن قد أسرع فى إصلاح هذه العادة إسراعا يسبب له المتاعب ، فإنه قد رفض التحيز للأقارب رفضا يكاد يكون تاما ، وقلما كان يعين أحداً من أقاربه فى منصب ما . بيد أنه كان يحذو حذو الإسكندر فى بيع المناصب الكنسية والترقى إلى الدرجات العلية فيها ، وقد أغضب ألمانيا ببيع صكوك الغفران وبناء كنيسة الرسول بطرس(٦) . وكان حسن الإدارة لموارده المالية ، وينفق المال فى شئون الحرب وعلى الفن فى وقت واحد ، وترك لليو فى خزانته بعض المال الزائد على حاجته . وقد أعاد النظام الاجتماعى إلى رومة بعد أن ضعف هذا النظام فى السنين الأخيرة من بابوية الإسكندر ، وحكم ولايات الكنيسة حكما صالحا امتاز بالحكمة فى تعيين الموظفين وحسن توجيههم ؛ وسمح لآل أرسينى وكولنا بالعودة إلى احتلال حصونهم ، وسعى لكسب ولاء هاتين الأسرتين القويتين بصلات الزواج بينهما وبين أقاربه .

ولما ارتقى كرسى البابوية وجد ولايات الكنيسة مضطربة ، ووجد أن نصف أعمال الإسكندر وسيزارى بورچيا قد تصدعت ؛ فقد استولت البندقية على فائندسا ، وراڤنا ، وريمينى (١٥٠٣) ؛ وعاد چيوڤنى اسفوردسا إلى پيزارو ، وأصبح آل بجليونى مرة أخرى سادة فى پروچيا ، وآل بنتيفجلى سادة فى بولونيا . وكان ما فقده من إيراد هذه المدن يهدد الإدارة البابوية بالإفلاس ، وكان يوليوس يتفق مع الإسكندر فى أن استقلال الكنيسة الروحى يتطلب امتلاكها الدائم للولايات البابوية ؛ وارتكب من أول الأمر الخطأ الذى ارتكبه الإسكندر إذ استعان بفرنسا — وبألمانيا وأسبانيا أيضاً — على أعدائه الإيطاليين . ووافقت فرنسا على أن ترسل ثمانية آلاف من جنودها نظير تعيين ثلاثة من رجالها الدينيين فى مناصب الكرادلة ؛ ووعدت ناپلى ، ومانتوا ، وأربينو وفيرارا ، وفلورنس بأن ترسل إمدادات صغيرة . وفى أغسطس من عام ١٥٠٦ خرج يوليوس

من رومة على قوته الصغيرة — المكونة من أربعمائة فارس ، ومن حرسه السويسرى ، وأربعة كرادلة . وعين جويدو بلدو ، دوق أربينو الذى عاد إلى حكمها ، قائداً عسكرياً للجيوش البابوية ، ولكن البابا سار على رأسها بنفسه — وكان ذلك منظرا لم تره رومة من عدة قرون . وظن چيان پاولو بجليونى أنه لا يستطيع هزيمة هذا الحلف ، فجاء إلى أرڤينو ، واستسلم للبابا ، وطلب إليه المغفرة . وزجر الإسكندر قائلا : « إنى أغفر لك خطاياك الجسدية ولكنى سأعاقبك عليها جميعا حين ترتكب أول خطيئة صغرى »[٧] . واعتمد يوليوس على سلطته الدينية فدخل پروچيا بحرس قليل العدد ، وكان فى استطاعة بجليونى أن يأمر رجاله بالقبض عليه وإغلاق أبواب المدينة وهو فى داخلها ، ولكنه لم يجرؤ على هذا العمل . ودهش مكيڤلى ، وكان وقتئذ قريباً منه ، إذ أضاع بجليونى هذه الفرصة التى يستطيع فيها أن « يعمل عملا خالد الذكر ؛ فقد كان فى وسعه أن يكون أول من يظهر للقساوسة عدم احترام الناس لمن يحيا حياتهم ويحكم مثل حكمهم ، وكان فى مقدوره أن يضرب ضربة تبلغ من العظمة حدا يرجح ما فيها من إثم ، وكل ما قد يعقبها من أخطار »[٨] . وكان مكيڤلى يعارض فى أن تكون للبابوية سلطة زمنية كما كان يعارض فى ذلك معظم الإيطاليين ، ويعارض كذلك البابوات الذين كانوا أيضاً ملوكا . ولكن بجليونى كان أيضاً يخشى على حياته ويعرف قيمها ، ولعله كان يرى أن نجاة روحه أجل شأناً من شئونه بعد موته .

ولم يقض يوليوس فى پروچيا إلا وقتاً قصيراً ، فقد كانت بولونيا هدفه الحقيقى ؛ ولهذا قاد جيشه الصغير فى الطرق الوعرة واجتازته به جبال الأپنين إلى سيزينا ، ثم انقض على بولونيا من الشرق ، بينما كان الفرنسيون يهاجمونها من الغرب . وأيد يوليوس هذا الهجوم بمرسوم بابوى يقضى بحرمان آل بنتيڤجلى وأشياعهم ، ويعرض فيه الغفران الشامل على كل من

يقتل أى واحد منهم . وكان هذا طرازا جديداً من الحرب ، يجد معه بنتيفجلى بدا من الفرار ، ودخل يوليوس المدينة فى هودج محمول على أكتاف الرجال ، وحياه أهلها تحية محررهم من الظلم والاستبداد (١١ نوفبر سنة ١٥٠٦) . فلما تم له ذلك أمر ميكل أنجيلو بأن يقيم له تمثالا فى مدخل سان پيترونيو San Petronio ، وعاد بعدئذ إلى رومة ، وسار فى شوارعها راكبا عربة النصر وحياه أهلها تحية قيصر المنتصر .

ولكن البندقية كانت لا تزال تمتلك فائنلسا ، وراڤنا ، وريمينى ، وكانت عاجزة عن أن تقدر روح البابا الحربية . وجازف يوليوس بإيطاليا فى سبيل الاستيلاء على رومانيا ، فاستنجد بفرنسا ، وألمانيا ، وأسپانيا لإخضاع البندقية ملكة البحر الأدرياوى . وسنرى فيما بعد مبلغ استجابتها حلف كمبريه (١٥٠٨) لهذه الدعوة ، وأنهم لم يحرصوا على مساعدة يوليوس بل كانوا يحرصون على تقطيع أوصال إيطاليا ؛ أما يوليوس فإنه بانضمامه إلى تلك الدول قد غلّب غضبه الحق من البندقية على حبه إيطاليا : وبينا كان حلفاؤه يهاجمون البندقية بجيوشهم وجه إليها يوليوس مرسوما بالحرمان واللعنة يعد من أصرح المراسيم وأقواها فى التاريخ كله . وكتب النصر ليوليوس ، وردت البندقية المدن المختلسة إلى الكنيسة ، وقبلت أشد الشروط إذلالا لها ، وتلقى مندوبوها غفران البابا ومحو اللعنة فى موكب طويل آلم أرجلهم وركبهم أشد الألم (١٥١٠) . وندم يوليوس فى ذلك الوقت على استنجاده بالفرنسيين ، فبدل سياسته معهم وأخذ يعمل على طردهم من إيطاليا ، وأقنع نفسه بأن الله يبدل سياسته المقدسة تبعا لهذا . ولما أن أبلغه السفير الفرنسى نبأ انتصار الفرنسيين على البنادقة ، وأضاف إلى هذا النبأ أن « هذه إرادة الله » رد عليه يوليوس مغضبا بقوله « إن هذه إرادة الشيطان » .

ثم حول نظراته العسكرية نحو فيرارا . فهاهى ذى إقطاعية بابوية لا ينكر

أحد تبعيتها له ، ولكن الإسكندر اكتفى منها بعد خطبة لكريلسيا بجزية رمزية ؛ يضاف إلى هذا أن الدوق ألفنسو ، بعد أن انضم إلى فرنسا فى الحرب ضد البندقية بناء على طلب البابا ، رفض أن يعقد الصلح معها بناء على طلب البابا نفسه ، وبقى حليفاً لفرنسا . ولهذا صمم يوليوس على أن تصبح فيرارا ولاية بابوية بقضها وقضيضها . وبدأ حملته بمرسوم بابوى بحرمانها من حظيرة الكنيسة (١٥٠١) ، وبهذا المرسوم أصبح صهر أحد البابوات ابناً جائراً ومصدر هلاك ودمار فى نظر بابا آخر . واستولى يوليوس على مودينا دون عناء كبير ، وبمساعدة البندقية . وبينا كان جنود البابا يستريحون فى المدينة ارتكب هو خطأ موبقاً بذهابه إلى بولونيا ، حيث وردت إليه الأنباء على حين غفلة بأن جيشاً فرنسياً يقف على أبوابها بأوامر تقضى بمساعدة ألفنسو . ولم يكن فى وسع الجيوش البابوية أن تقوم بمساعدته لبعدها وقتئذ عن المدينة ، ولم يكن فى داخل بولونيا أكثر من تسعمائة جندى ، كما أنه لم يكن من المستطاع الاعتماد على مقاومة أهل المدينة للغزاة الفرنسيين لأن المندوب البابوى الكردنال ألدوزى Alidosi كان قد سامهم الخسف . وتملك اليأس فترة من الوقت يوليوس وكان وقتئذ مصاباً بالحمى وطريح الفراش ، ففكر فى أن يتجرع السم (١٠) ، وأوشك أن يوقع مع فرنسا صلحاً مذلا ، وإذا المدد يصل إليه من أسبانيا والبندقية ، وارتد الفرنسيون ، وبعث يوليوس وراءهم بمنشور مقذع بحرمهم فرداً وجماعة من حظيرة الدين .

وكانت فيرارا فى ذلك الوقت قد سلحت نفسها تسليحاً قوياً رأى يوليوس معه أن قواه لا تكفى للاستيلاء عليها . غير أنه لم يشأ أن يحرم وقتئذ من مجده العسكرى فسار بنفسه على رأس جيشه إلى حصار ميراندولا Mirandola ، وهى مركز أمامى من مراكز دوقية فيرارا . (١٥١١) ومع أنه كان وقتئذ فى السادسة والثمانين من عمره ، فقد سار فوق الثلج الكثيف الطبقات ، وخالف السوابق الماضية بأن خاض غمار الحرب فى

الشتاء ؛ ورأس المجالس العسكرية الفنية ، ووجه العمليات الحربية ومواقع المدفعية ، وفتش على جنده بنفسه ، وأولع بحياة الجندية ، ولم يسمح لأحد بأن يفوقه فى الشتائم والنكات العسكرية[١١] . وكان الجنود أحياناً يسخرون منه ويضحكون ، ولكنهم كانوا فى الأغلب الأعم يثنون على بسالته . ولما أن قتلت نيران العدو جندياً كان بجانبه ، انتقل إلى موضع آخر من الميدان ، ولما أن وصلت قذائف مدفعية ميرندولا إلى هذا الموضع الثانى عاد إلى موضعه الأول ، وهز كتفيه المقوستين استخفافاً بخطر الموت . واستسلمت ميراندولا بعد مقاومة دامت أسبوعين ، وأمر البابا بأن يعدم جميع من يوجد فيها من الجنود الفرنسيين ؛ ولعل الطرفين قد دبرا معاً ألا يوجد فيها أحد من أولئك الجنود . وحمى البابا المدينة من النهب ، وفضل أن يطعم جيشه ويموله بأن يبيع ثمانى كردناليات جديدة[١٢] .

وذهب إلى بولونيا ينشد الراحة ، ولكنه ما لبث أن حاصره فيها الفرنسيون مرة أخرى ؛ ففر منها إلى ريمينى ، وأعاد الفرنسيون آل بنتيفجلى إلى الحكم ؛ ورحب الأهلون بعودة حكامهم الظالمين المطرودين ، ودمروا القصر الحصين الذى أنشأه يوليوس من قبل ، وحطموا التمثال الذى أقامه له ميكل أنجيلو ، وباعوا قطعه البرنزية إلى ألفنسو دوق فيرارا . وصب هذا الدوق الصارم ذلك البرنز وصنع منه مدفعاً سماه لاجويليا تكريماً منه للبابا . ورماه البابا بقرار آخر حرم فيه كل من اشترك فى القضاء على السلطة البابوية فى بولونيا . ورد الجنود الفرنسيون على هذا بالاستيلاء على ميرندولا من جديد ؛ ووجد يوليوس فى ريمنى وثيقة موقعاً عليها من الكرادلة ملصقة بباب كنيسة سان فرانتشيسكو ، تدعو إلى عقد مجلس عام فى مدينة پيزا فى أول سبتمبر من عام ١٥١١ ، لبحث مسالك البابا .

وعاد يوليوس إلى رومة محطم الجسم ، تكتنشفه المصائب من كل جانب ولكنه لم تذله الهزائم . وفى هذا يقول جوتشياردينى :

لقد وجد البابا نفسه وقد خدعته آماله الكاذبة أشد الخداع ؛ ولكنه كان يبدو فى مظهره شبيهاً بما وصف به كتاب الخرافات القديمة أناتيوس Anataeus الذى كان إذا لمس الأرض كلما قطع أوصاله البطل هرقول عادت إليه قواه ومرّته . فقد كان للشدائد على البابا هذا الأثر نفسه ؛ ذلك أنه حين كان يبدو فى أشد حالات الانقباض واليأس ، لا يلبث أن يستعيد نشاطه ، ويعود مرة أخرى أصلب مما كان عوداً وأكثر مما كان ثباتاً وأقوى إصراراً وعزيمة .

وأراد أن يقوم بحركة مضادة لحركة الكرادلة المتذمرين ، فدعا إلى عقد مجلس عام فى قصر لاتران فى التاسع عشر من إبريل سنة ١٥١٢ . وظل يكدح ليلا ونهاراً لينشئ حلفاً ضد فرنسا . وأوشك أن ينجح فى غرضه وإذا هو يصاب بحمى شديدة الوطأة (١٧ أغسطس سنة ١٥١١) . وظل بين الحياة والموت ثلاثة أيام كاملة ، حتى إذا كان اليوم الحادى والعشرون من شهر أغسطس أغمى عليه إغماءة بلغ من طولها أن استعد الكرادلة لعقد مجمع مقدس لاختيار خلفه . ودعا پمپيو كولنا Pompeo Colonna أسقف ريتى Rieti فى الوقت عينه أهل رومة إلى الثورة على حكم البابا مدينتهم وإعادة جمهورية رينسو Rienzo. ولكن البابا أفاق من الإغماء فى اليوم الثانى والعشرين ، وتغلب على أطبائه ، وشرب جرعة كبيرة من النبيذ ؛ ولشد ما أدهش جميع الناس ، وخيب ظن الكثيرين منهم ، بشفائه من مرضه ؛ وزالت الحركة الجمهورية وعفت آثارها من رومة . وأعلن يوليوس فى الخامس من أكتوبر أنه أنشأ حلفاً مقدساً من البابوية ، والبندقية ، وأسپانيا ، وفى السابع عشر من نوفمبر انضم إليه هنرى الثامن ممثلا إنجلترا . فلما حصل على هذا التأييد ، جرد الكرادلة الذين دعوا إلى مجلس پيزا من مناصبهم ، وحرم اجتماع هذا المجلس ؛ ولما أذن مجلس السيادة فى فلورنس بناء على أمر ملك فرنسا بأن يجتمع المجلس المحرم فى

بيزا ، أعلن يوليوس الحرب على فلورنس وأخذ يعمل فى الخفاء لعودة آل ميديتشى . واجتمع فى بيزا سبعة وعشرون من رجال الكنيسة وممثلون للملك فرنسا ، وبعض الجامعات الفرنسية ، (٥ نوفبر سنة ١٥١١) ؛ ولكن أهل المدينة غضبوا غضبة تنذر المجتمعين بالخطر ، ولم تكن فلونس نفسها راضية عن هذا العمل ، فاضطر المجلس للانتقال إلى ميلان (١٢ نوفبر). حيث كان فى مقدور المؤتمرين المنشقين أن يتحملوا وهم آمنون سخرية الشعب تحت حماية الجنود الفرنسيين :

ولما كسب يوليوس هذه المعركة . معركة الأساقفة ، عاد مرة أخرى إلى حرب السلاح ، واستعد لها بأن ابتاع التحالف مع السويسريين الذين سيروا جيشاً ليهاجم الفرنسيين فى ميلان ؛ ولكن هذا الهجوم أخفق ، وعاد السويسريون إلى بلادهم ، فلما حل عيد الفصح فى الحادى عشر من إبريل عام ١٥١٢ أوقع الفرنسيون بقيادة جاستن ده فوا Gaston de Foix وبمعونة مدفعية ألفنسو القوية هزيمة منكرة بجيش حاف راڤنا المختلط ، وانتقلت رومانيا كلها تقريباً تحت سيطرة فرنسا . وتوسل كرادلة يوليوس إليه أن يعقد الصلح ؛ ولكنه أبى ؛ واحتفل المجلس المنعقد فى ميلان بهذا النصر المؤزر بأن أعلن خلع البابا ؛ وضحك يوليوس من هذا الإعلان . وفى اليوم الثانى من شهر مايو حملوه فى هودج إلى قصر لاتران ، حيث افتتح مجلس لاتران الخامس ، ولم يلبث إلا قليلا حتى تركه يتطور تطوره البطىء ، وأسرع هو إلى ميدان القتال :

وفى اليوم السابع عشر من شهر مايو أعلن أن ألمانيا قد انضمت إلى الحلف المقدس ضد فرنسا . واشترى يوليوس السويسريين مرة أخرى فدخلوا إيطاليا عن طريق التيرول Tirol وزحفوا ليلقوا جيشاً فرنسيا أفسد نظامه النصر وموت قائده . وكان الزاحفون أكبر عدداً من الفرنسيين فترك هؤلاء راڤنا ، وبولونيا ، وميلان نفسها ، وانسحب الكرادلة المنشقون إلى

فرنسا ؛ وفر آل بنتيفجلى مرة أخرى ، وأصبح يوليوس سيد بولونيا وإقليم رومانيا ؛ وانتهز هذه الفرصة للاستيلاء أيضاً على پارما ، وپياتشندسا ، وكان يأمل الآن أن يستولى على فيرارا التى لم يعد فى وسعها أن تعتمد على مساعدة تأتيها من فرنسا . وعرض ألفنسو أن يأتى إلى رومة ويطلب الغفران وشروط الصلح إذا أمنه البابا على حياته فى الذهاب والعودة ؛ وأجابه يوليوس إلى طلبه ، وجاء ألفنسو ، وتفضل البابا فغفر له ؛ ولكنه لما رفض أن يستبدل بفيرارا بلدة أستى Asti الصغيرة ، أعلن يوليوس أن ما وعده به من الأمان غير قائم ، وأنذره بالسجن والاعتقال . وأحس فبريدسيوكولنا Fabrizio Colonna الذى كان مكلفاً بحراسة الدوق فى مجيئه أن شرفه قد مس ، فساعد ألفنسو على الهرب من رومة ؛ فعاد إلى فيرارا بعد أن قاسى أشد الأخطار فى الطريق ، وفيها عاد مرة أخرى يسلح حصونه وأسواره .

وفى ذلك الحين أخذ يضمحل ما كان يتمتع به البابا المحارب من نشاط جبار ، فآوى إلى فراش المرض فى أواخر شهر يناير من عام ١٥١٣ مصابا بعدة أدواء ، وقال الثرثارون النمامون الذين لا تعرف الرحمة سبيلا إلى قلوبهم إن مرضه هو النتيجة التى تعقب « الداء الفرنسى » ، وقال غيرهم إن منشأه الإفراط فى الطعام والشراب(١٤) : ولما لم يفلح كل علاج تخفيف وطأة الحمى ، استسلم للموت ، وأصدر التعليمات التى تتبع فى موكب جنازته ، وحث مجلس لاتران على أن يواصل عمله دون انقطاع ، واعترف بأنه من أشد الآثمين ، وودع الكرادلة ، ومات شجاعا كما عاش شجاعا (٢٠ فبراير سنة ١٥١٣) . وحزنت عليه رومة بأجمعها ، واحتشد لتوديع جثمانه وتقبيل قدميه جمع كبير لم يسبق له مثيل .

وبعد فليس فى وسعنا أن نقدر منزلته فى التاريخ إلا بعد أن ندرسه بوصفه محررا لإيطاليا ، ومشيدا لكنيسة القديس بطرس ؛ وأكبر نصير للفن عرفته البابوية فى تاريخها كله . غير أن معاصريه كانوا على حق حين

نظروا إليه على أنه حاكم ومحارب أولا وقبل كل شيء . فقد كانوا يخشون نشاطه الجبار ، واندفاعه ، ولعناته وغضبته الشديدة التى يبدو أنها إذا اندلع لهيبها لا تخمد أبداً . ولكنهم كانوا يشعرون أن وراء عنفه روحا فى وسعها أن ترحم وتحب(*) . ولقد رأوه يدافع عن الولايات البابوية بقسوة وشدة غير مقيدة بمبدإ أو ضمير كما كان آل بورجيا يفعلون ، ولكنه لم يكن يسعى إلى عظمة أسرته ؛ وكان الناس جميعاً ، إذا استثنينا أعداءه وحدهم ، يمجدون أهدافه ، حتى فى الوقت الذى كانوا يرتجفون فيه من ألفاظه ، ويأسفون لما يلجأ إليه من وسائل . ولم يحسن يوليوس حكم الولايات التى استردها كما كان يحسنه سيزارى بورچيا ، لأن ولعه الشديد بالحرب كان يحول بينه وبين إصلاح أداة الحكم ؛ ولكن فتوحه كانت فتوحا باقية على مدى الزمان ، حتى لقد بقيت الولايات البابوية من ذلك الحين موالية للكنيسة إلى أن قضت ثورة عام ١٨٧٠ على سلطة البابوات الزمنية . ولقد أخطأ يوليوس – كما أخطأت البندقية ، وكما أخطأ لدوڤيكو والإسكندر ، فى استدعاء الجيوش الأجنبية إلى إيطاليا ، ولكنه أفلح فيما لم يفلح فيه سابقوه ولاحقوه رهو تطهير إيطاليا من تلك القوات بعد أن أدت مهمتها . ولعله قد أضعف إيطاليا حين أنجاها من أعدائها ، وعلم « البرابرة » أن فى وسعهم أن يحاربوا حروبهم فى سهول لمباردى ذات الشمس الساطعة . ولقد كانت فى عظمته عناصر من القسوة ، وكانت الرغبة فى الكسب هى التى دفعته إلى مهاجمة فرارا والاستيلاء على پياتشندسا وپارما . ولم يكن يحلم بالاحتفاظ بأملاك الكنيسة المشروعة فحسب ، بل كان يحلم فوق ذلك بأن يجعل نفسه سيد أوربا ، والآمر المطاع للملوك . وقد شهر به جوتشياردينى لأنه « جاء للكرسى الرسولى بدولة استخدم فيها قوة السلاح ، وسفك فيها دماء المسيحيين ، بدل أن يعنى

(*) انظر حبه الشديد لفيدريجو ابن إزبلا دست ، وقد بلغ من هذا الحب أن المغتابين لم يستكموا أن يفسروه أقذر تفسير .

بأن يضرب للناس مثلا فى الحياة الصالحة »(١٦) . ولكننا يصعب علينا أن ننتظر من يوليوس ، فى زمانه ومكانه ، أن يتخلى عن الولايات البابوية للبندقية وغيرها من المعتدين ، وأن يجازف بجعل الكنيسة تعتمد على الأسس الروحية دون غيرها ، وذلك فى الوقت الذى لم يكن فيه كل العالم الذى حوله يعترف بحق ما إلا للذين يسلحون أنفسهم بالقوة المادية . لقد كان هو ما يجب أن يكونه فى ظروف وقته وفى الجو الذى كان يعيش فيه ، ولقد غفرت له الأيام ما ارتكبه من ذنوب .

الفصل الثانى

العمارة الرومانية : ١٤٩٢ — ١٥١٣

كان تشجيع الفن أبقى أعمال يوليوس ؛ ذلك أن حاضرة النهضة انتقلت فى أيامه من فلورنس إلى رومة ، وفيها وصلت النهضة فى الفن إلى ذروتها ، كما وصلت بعدئذ فى عهد ليو العاشر إلى ذروتها فى الأدب والعلم . ولم يكن يوليوس كثير العناية بالأدب ، لأن الأدب كان أهدأ وأكثر أنوثة من أن يوائم مزاجه ، أما الضخامة فى الفن فكانت توائم فطرته وحياته ، ولهذا أخضع للعمارة كل ما عداها من الفنون ، وترك وراءه كنيسة جديدة للقديس بطرس لتكون دليلا خالدا على روحه ، ورمزا للدين الذى أنجى سلطانه الزمنى . وإن من عجائب النهضة ومن أسباب الإصلاح الدينى أن يمد يوليوس بالمال برامنتى ، وميكل أنچيلو ورفائيل ومائة غيرهم من الفنانين ، وأن يجد المال اللازم لأكثر من عشر حروب ، ثم يترك وراءه فى الخزانة البابوية مائة ألف فلورين .

ولم يستقدم رجل غيره إلى رومة مثل هذا العدد الذى استقدمه هو من الفنانين ؛ فقد كان هو مثلا الذى استدعى جويوم ده مارسلات Guillaume de Marcillat من فرنسا ليركب النوافذ الزجاجية الملونة لكنيسة سانتا ماريا دل پوپولو . وكان مما يمتاز به تفكيره وإدراكه أنه حاول التوفيق بين المسيحية والوثنية فى الفن ، كما حاول ذلك نقولاس الخامس فى الأدب ؛ وهل مصورات رفائيل إلا تناسق مقرر بين الأساطير والفلسفة القديمتين ، وبين اللاهوت والشعر العبريين ، وبين العاطفة والعقيدة المسيحيتين ؟ وأى شىء يمكن أن يمثل اتحاد الفن والشعور الوثنيين والمسيحيين غير الباب والقبة ، والعمد الداخلية ، والتماثيل ، والصور الملونة ، ومقابر كنيسة

القديس بطرس ؟ وحذا حذو البابا كبار رجال الدين والأعيان ، ورجال المصارف والتجار الذين امتلأت بهم رومة بعد أن زاد فيها الثراء ، فشادوا القصور تكاد تضارع فى فخامتها قصور الأباطرة العظام ، ينافس بها بعضهم بعضاً فى الثراء ، وشقت شوارع رئيسية واسعة خلال المدينة وفيما كان عليه تخطيطها فى العصور الوسطى من فوضى واضطراب ، وفتحت مئات من الشوارع الفرعية الجديدة لا يزال واحد منها يحمل اسم البابا العظيم ، وقصارى القول أن رومة القديمة قامت من بين خرائبها وأنقاضها وأضحت من جديد موطناً لقيصر من القياصرة العظام .

وإذا ما استثنينا كنيسة القديس بطرس كان لنا أن نقول إن ذلك العصر كان فى رومة عصر القصور لا عصر الكنائس . وكانت هذه القصور من الخارج بسيطة متماثلة فى مظهرها ! فكانت واجهة القصر على شكل مستطيل كبير مقام من الآجر ، أو الحجر ، أو الجص ، وكان مدخله من الحجر يزين فى العادة برسوم ، وفى كل طابق صفوف متماثلة من النوافذ ، من فوقها قوصرات مثلثة إهليلجية الشكل ، وتكاد تعلوها على الدوام شرفة تكون رشاقة شكلها الخارجى محكاً خاصاً للمهندس وموضعاً لعنايته . وكان أصحاب الثراء الموفور يخفون وراء الواجهة المتواضعة ما لا حصر له من الزخرف والأبهة التى قلما تقع عليها عين الشعب الغيور الحاسدة : فقد كان من خلف هذه الواجهة بئر مركزية تحيط بها أو تفصلها عما حولها درج عريضة من الرخام ؛ وكانت فى الطابق الأرضى حجرات بسيطة تستخدم لإنجاز الأعمال أو خزن المتاع ، وفى الطابق الأول — أو الثانى كما يسميه الأمريكيون — حجرات الاستقبال والولائم الرحبة ، ومعارض الفن ، أرضها من الرخام أو القرميد الصلب الملون ، وفيها الأثاث ، والطنافس ، والأنسجة البديعة فى مادتها وأشكالها ، والجدران تقويها العمد المربوعة ؛ والسقف ذات اللوحات المزخرفة الغائرة مستديرة ، أو مثلثة أو ماسية الشكل أو مربعة ،

وعلى الجدران والسقف صور من صنع الفنانين الذائعي الصيت ، تمثل فى العادة موضوعات وثنية ، لأن الطراز الحديث فى تلك الأيام كان يقضى بأن يحيا السادة المسيحيون ، حتى رجال الدين منهم ، وسط مناظر مستقلة من الأساطير القديمة . وفى الأطباق العليا كانت الحجرات الخاصة بالسادة والسيدات ، والخدم أصحاب الأزياء الخاصة ، والأطفال والمراضع والمربيات ، والمعلمين الخصوصيين والمعلمات ، والوصيفات . وكان للكثيرين من الناس من الثراء ما يمكنهم من أن يتخذوا لهم فضلا عن تلك القصور بيوتاً خلوية فى الريف أو الضواحى يلجأون إليها من صخب المدينة أو حر الصيف . وقد تحوى هذه البيوت الريفية أيضاً الكثير من الجلال ، والزخرف ، وأسباب النعيم . والروائع الفنية التى أخرجتها أيدى رفائيل ، وبيروتشى ، وجويليو رومانو ، وسباستيانو دل بيمبو Sebastino del Piombo . . . ولقد كانت هندسة القصر والبيت الريفى السالفة الذكر فناً أنانياً فى كثير من نواحيه ؛ تظهر فيه الثروة المنتزعة من العمال الذين لا تقع عليهم عين الثرى . ولا يحصيهم عد ، ومن الأراضى القاصية ، وتفخر بالزخرف الزاهى الذى تستمتع به أقلية من أصحاب الثراء . ولقد كانت بلاد اليونان القديمة وأوربا فى العصور الوسطى أنبل روحاً وأرق طبعاً فى هذه الناحية . ذلك أن هذه أو تلك لم تكن تنفق ثروتها فى الترف والملاذ الخاصة ؛ بل كانت تنفقها فى تشييد الهياكل والكنائس التى كانت ملك الناس جميعاً ومصدر فخرهم وإلهامهم ، وكانت بيوت الشعب كما كانت بيوت الله .

وكان اثنان من بين المهندسين المعاريين فى رومة فى عهد الإسكندر السادس أخوين ، وكان ثالث ابن أخ لهما . وأحد هذين الأخرين هو جوليانو دا سنجلو Giuliano da Sangallo ، الذى بدأ حياته مهندساً عسكرياً فى جيش فلورنس ، ثم انتقل إلى خدمة فيرانتى صاحب نابلى ، وأصبح صديقاً لجوليانو دلا روفيرى ، فى الأيام الأولى من كردناليته .

وحول جوليانو المهندس لجوليانو الكردنال دير جرتافيراتا Grottaferrata إلى حصن حصين ؛ وهو الذى صمم السقف ذا اللوحات الغائرة المزخرفة فى كنيسة سانتا ماريا مجيورى ، وكفتها بأول ما جىء به من الذهب من القارة الأمريكية . ورافق الفنان الكردنال دلاروڤيرى فى منفاه ، وشاد له قصراً فى ساڤونا ، وانتقل معه إلى فرنسا ، ثم عاد إلى رومة لما اعتلى نصيره آخر الأمر عرش البابوية . وطلب إليه يوليوس أن يعرض عليه رسوماً لكنيسة القديس بطرس الجديدة ؛ فلما فضل البابا عليها رســوم برامنتى ، وجه المهندس الشيخ اللوم إلى البابا ، ولكن يوليوس كان يعرف ما يريده هو لاما يريده له غيره . وعاش سنجلو بعد أن مات برامنتى ويوليوس ، وعين فيما بعد مشرفاً على أعمال رفائيل ومساعداً له فى بناء كنيسة القديس بطرس ، ولكنه مات بعد عامين من تعيينه فى ذلك المنصب . وكان أخوه الأصغر أنطونيو دا سنجلو قد قدم فى هــذه الأثناء من فلورنس ليكون مهندساً معمارياً وعسكرياً للإسكندر السادس ، وشاد ليوليوس كنيسة سانتا ماريا دى لوريتو Santa Maria di Loreto ذات الروعة والفخامة ، وشرع كذلك أنطونيو بكونى دا سنجلو Antonio Picconi da Sangallo ابن أخيهما فى عام ١٥١٢ فى بناء أفخم قصور النهضة على الإطلاق وهو قصر فرنيزى Palazzo Farnese .

غير أن أعظم الأسماء كلها فى عمارة ذلك العصر هو اسم دوناتو برامنتى Donato Bramante . وكان قد بلغ السادسة والخمسين من عمره حين قدم إلى رومة من ميلان (١٤٩٩) ، ولكن دراسته للخرائب برومة ألهبت فى صدره حماسة الشباب وأثارت فيه رغبة قوية فى أن يطبق الأشكال الرومانية القديمة على مبانى النهضة ، وقد بدأ هذا التطبيق فى بناء دير للرهبان الفرنسيس قريب من سان بيترو San Pietro فى منتوريا Montoria إذ خطط معبداً صغيراً Tempietto ذا عمد وسقف مستدير شبيه كل الشبه بالمعابد الرومانية القديمة إلى حد دعا المهندسين إلى دراسته وقياس أبعاده ، كأنه آية من آيات الفن

القديم كشفت حديثاً . وانتقل برامنتى من هذه البداية إلى عدد من الروائع الفنية الأخرى : منها الطريق المقنطر المسقوف فى كنيسة سانتا ماريا دلا باتشى Santa Maria della Pace ، والبهو الظريف فى سان داماسو . . . وعمره يوليوس بالمطالب ، سواء منها ما يختص بالعمارة وما يختص بالهندسة العسكرية . فأنشأ طريق جوليا Via Giulia ، وأتم قصر بلفدير . وبدأ الشرفة المكشوفة فى قصر الفاتيكان ، ووضع رسماً جديداً لكنيسة القديس بطرس . وقد بلغ شغفه بعمله درجة لم يكن يعنى معها بالمال ، حتى اضطر يوليوس أن يأمره بأن يقبل مناصب تدر عليه إيراداً يفى بنفقاته(١٧) . لكن بعض منافسيه اتهموه باختلاس أموال البابا ، وباستخدام المواد الرخيصة فى مبانيه(١٨) . أما غيرهم فقد وصفوه بأنه شخص مرح كريم الطبع ، جعل بيته مقاماً مفضلا لبروجينو ، وسنيورى ، وبنتورتشيو ، ورفائيل وغيرهم من أهل الفن فى رومة .

وكان قصر بلفدير قصراً صيفياً مشيداً للبابا إنوسنت الثامن ، ويقوم على ربوة تبعد نحو مائة ميل عن سائر مبانى الفاتيكان ؛ وقد اشتق اسمه من البل فدير bel vedere أى المنظر الجميل الذى يمتد أمامه ، وتسمت باسمه بعدئذ عدة تماثيل وضعت فى حجراته أو فى فنائه . وكان يوليوس من زمن طويل مولعاً بجمع روائع الفن القديم ، وكان أثمن ما يملكه منها تمثال لأپلو كشف فى أثناء بابوية إنوسنت الثامن ، فلما ارتقى عرش البابوية وضعه فى فناء البلفدير ، وأصبح أبلو بلفدير من ذلك الوقت من أشهر تماثيل العالم على الإطلاق . وأنشأ برامنتى للقصر واجهة جديدة وفناء جديداً ذا حديقة ، ووضع خطة لتوصيله بقصر الفاتيكان نفسه بطائفة من المبانى والحدائق الجميلة ، ولكنه هو ويوليوس عاجلتهما المنية قبل أن تنفذ هذه الخطة .

وإذا ما عزونا سبب النهضة بوجه عام إلى بيع صكوك الغفران لتبنى بالمال الذى تجمع من هذا البيع كنيسة القديس بطرس ، كانت أهم حادثة

فى ولاية يوليوس هى هدم كنيسة القديس بطرس القديمة وبدء الكنيسة الجديدة . وتقول الرواية المأثورة إن الكنيسة القديمة قد بناها البابا سلفستر الأول Sylvester (٣٢٦) ، فوق قبر الرسول بطرس بالقرب من حلبة نيرون . وفى هذه الكنيسة توج كثير من الأباطرة من أيام شارلمان وما بعدها ، وكثير من البابوات . وقد وسعت رقعتها المرة بعد المرة حتى كانت فى القرن الخامس عشر باسلقا رحبة ذات صحن وجناحين مزدوجين تحيط بهما كنائس ، وأمكنة للصلاة ، وأديرة . ولكنها ظهر عليها قبيل أيام نقولاس الخامس أثر الأحد عشر من القرون التى مرت بها ، فظهرت شقوق طويلة فى الجدران ، وخشى الناس أن تنهار فى أى وقت من الأوقات . وقد تنهار على من فيها من المصلين . ومن أجل هـــذا كلف برناردو رسيلينو Bernardo Rosellino وليون باتستا ألبرتى Leon Battista Alberti فى عام ١٤٥٢ بأن يقويا هذا الصرح بإنشاء جدران له جديدة . وما كاد العمل يبدأ حتى توفى نقولاس ، ووقف من جاء بعده من البابوات العمل فيها لحاجتهم إلى المال فى الحروب الصليبية فلما كان عام ١٥٠٥ صمم يوليوس الثانى بعد أن فحص عدة رسوم مختلفة ورفضها جميعاً ، أن يهدم الكنيسة القديمة ويبنى ضرحاً جديداً كله فوق المكان الذى قيل إنه قبر القديس بطرس . ولهذا دعا عدداً من المهندسين أن يعرضوا عليه رسوماً لها . وفاز برامنتى وكان مشروعه يقضى ببقاء باسلقا جديد على شكل صليب يونانى (ذى ذراعين متساويتين فى الطول) ، وأن يتوج ملتقى الجناحين الفرعيين بقبة ضخمة ؛ وقال بالعبارة الذائعة الصيت التى تعزى إليه إنه سيقيم قبة البانثيون على باسلقا قسطنطين . وكان برامنتى يعتزم أن يمتد الصرح الفخم على ٢٨٫٩٠٠ ياردة مربعة — أى أكثر من الساحة التى تشغلها كنيسة القديس بطرس فى هذه الأيام بأحد عشر ألفاً وستمائة من الياردات المربعة . وبدئ فى حفر الأساس فى شهر إبريل من عام ١٥٠٦ ، وفى ١١ إبريل نزل

يوليوس ، وكان وقتئذ فى الثالثة والستين من عمره ، على سلم طويل مهتز من الحبال إلى عمق كبير ليضع حجز الكنيسة الأساسى : وسار العمل ببطء لأن يوليوس أخذ يزداد انهماكا فى الحرب وتزداد نفقاته عليها . ثم توفى برامنتى فى عام ١٥١٤ ، وهو لا يعرف لحسن حظه أن مشروعه لن ينفذ .

وصدمت مشاعر كثيرين من المسيحيين الصالحين حين فكروا فى أن الكنيسة الكبرى القديمة المعظمة سوف تهدم . وعارضت كثرة الكرادلة فى هدمها أشد المعارضة ، وشكا كثيرون من الفنانين من أن برامنتى قد حطم فى غير مبالاة ما كان فى صحن الكنيسة القديم من عمد وتيجان ظريفة ، وقالوا إنه لو بذل أكثر مما بذل من عناية لاستطاع أن يحتفظ بها سليمة . ونشر أحد الكتاب فيه هجاء بعد ثلاث سنين من موت المهندس قال إن القديس عنف برامنتى أشد التعنيف حين وصل إلى باب كنيسته ، وإنه منع من دخول الجنة . ويزيد الهجاء على ذلك قوله : ولكن برامنتى لم يعجبه نظام الجنة مطلقاً ، أو الطريق الشديد الانحدار الموصل إليها وقال : « سأنشئ طريقاً جديداً ، واسعاً ، مريحاً ، تستطيع الأرواح الضعيفة الطاعنة فى السن أن تسير فيه على ظهور الخيل ، ثم أنشئ بعد ذلك جنة جديدة تحوى مساكن مبهجة للصالحين الأبرار » . فلما رفض بطرس هذا العرض طلب برامنتى أن ينزل إلى جهنم ، ويبنى فيها جحيما خيرا من جحيمها القديم ، لأن هذا الجحيم قد طال به العهد فكاد بلا شك يحترق عن آخره . ولكن بطرس عاد فسأله : « قل لى بحق ، ما الذى دعاك إلى هدم كنيستى ؟ » وحاول برامنتى أن يهدئ من غضبه فقال : « إن البابا ليو سيشيد لك كنيسة جديدة » ، فرد عليه الرسول بقوله : « عليك إذن أن تنظر عند باب الجنة حتى يتم العمل »(١٩) .

وتم العمل فعلا فى عام ١٦٢٦ .

الفصل الثالث

رفائيـــل الشاب

١ – نشأته

لما مات برامنتى عيّن ليو العاشر خلفا له فى منصب المشرف على العمل فى كنيسة القديس بطرس الجديدة مصوراً شابا فى الحادية والثلاثين من عمره ، ينوء لصغرسنه بعبء ذلك العمل الضخم ، وهو إقامة قبة برامنتى ، ولكنه أصبح أسعد الفنانين فى التاريخ كله ، وأعظمهم نجاحا ، وأقربهم إلى القلوب .

وبدأ الحظ يبسم له من يوم أن ولد لجيـــوڤنى ده سانتى Giovanni de'Santi حامل لواء المصورين فى أربينو فى ذلك الوقت . وقد بقيت لدينا صور من عمل چيوڤنى ، وهى توحى بأنه ذو ذكاء عادى ؛ ولكنها تدل على أن رفائيل – وهو اسم أجمـــل الملائكة جميعاً – نشأ محباً أعظم الحب للتصوير ؛ وكثيراً ما كان بعض الفنانين يزورون چيوڤنى ويقيمون فى منزله . وكان چيوڤنى ملماً بفن زمانه إلماماً يمكنه من أن يكتب فى تاريخ أربينو المقفى كتابة تنم عن العقل والذكاء فى أكثر من عشرة من المصورين والمثالين الإيطاليين وأمثالهم من الفلمنكيين . وتوفى چيوڤنى ولما يتجاوز رفائيل السابعة من عمره ، ولكن يلوح أن الأب كان قد بدأ يغرس حب الفن فى نفس ولده . وأكبر الظن أن تيموتيوڤيتى Timoteo Viti ، وكان قد عاد من بولونيا إلى أربينو فى عام ١٤٠٥ بعد أن درس مع فرانتشيا Francia ، واصل تعليم رفائيل ، وجاء إليه بما كان قد أخذه عن فرانتشيا ، وتورا ، وكستا . ونشأ الغلام فى تلك الأثناء فى محيط من

يستطيعون الاتصال بالبلاط ؛ وكان المجتمع الرقيق الظريف الذى وصفه كستجليونى بعدئذ فى كتابه المسمى **رجل الحاشية** قد أخذ ينشر بين الطبقات المتعلمة فى أربينو دماثة الخلق ، ورقة الأدب ، والحديث ، وهى الصفات التى أظهرها رفائيل بفنه وبحياته . وفى المتحف الأشمولى **Ashmolean Museum** بأكسفورد صورة عجيبة تعزى إلى رفائيل فى الفترة الواقعة بين عامى ١٤٩٧ و ١٥٠٠ ، وتظن الرواية المتواترة أنها تمثله هو . ووجهه فى هذه الصورة يكاد يكون وجه أنثى ، أما عيناه فرقيقتان كعيون الشعراء . وهذه هى المعارف التى سنلتقى بها مرة أخرى فيما بعد ، وسنلتقى بها أكثر قتاما وفيها قليل من القلق والبلبال ، فى الصورة الجذابة التى رسمها لنفسه (فى عام ١٥٠٦ فى الغالب) والمحفوظة فى معرض پتى **Pitti** .

فليتصور القارئ ذلك الشاب كما تظهره الصورة الأولى وهو ينتقل فى السادسة من عمره من أربنو التى يسودها الهدوء والنظام إلى پروچيا حيث الإستبداد والعنف هما النظام المألوف . ولكن پروچيا كان فيها پروچينو الذى طبقت شهرته جميع أنحاء إيطاليا ؛ وأحس أعمام رفائيل الذين كانوا يتولون أمره أن مواهب الشاب البادية للعيان خليقة بأن تتلقى التعليم من أعظم المصورين فى إيطاليا . وكان يسعهم أن يرسلوه إلى ليوناردو فى فلورنس حيث يستطيع أن يتشرب ما فى فن ذلك الأستاذ من نزعة للغموض والخفاء ؛ ولكن الفنان الفلورنسى العظيم كان يتصف بشىء خاص به ، شىء غير مألوف أو ، بعبارة أخرى ، شىء يسارى ، شىء مشئوم — عشقه — لا يروق فى أعين كل الأعمام الصالحين ؛ يضاف إلى هـــذا أن پروچيا كانت أقرب إلى أربينو من فلورنس ، وأن پروجينو كان عائدا من پروچيا (١٤٩٩) ومعه جميع الحيل التطبيقية(٢) التى يعرفها المصورون الفلورنسيون ويطبقونها فى يسر ودون كلفة . وهكذا ظل الغلام الوسيم ثلاث سنين يعمل عند بيترو ڤانوتشى **Pietro Vannucci** ، ويساعده فى

زخرفة الكمبيو Cambio ، حتى ألم بجميع أسراره ، وعرف كيف يصور العذارى زرقاء خاشعة كعذارى پروچيو نفسه . وكانت تلال أمبريا Umbria ، وخاصة ما كان منها فوق أسيسى وحولها ، والتى كان فى وسع رفائيل أن يبصرها من هضبة پروچيا ، كانت هذه التلال تمد المعلم والطالب بفيض كامل من الأمهات الساذجات الوفيات ذوات الشباب الجميل ، ولكن الجو الفرنسيسى الذى يستنشقنه كان يصوغهن فيجعل منهن أمهات تقيات موثوق بتقواهن .

ولما عاد پروچينو إلى فلورنس (١٥٠٢) بقى رفائيل فى پروچيا ووقع عليه عبء المطالب التى نماها أستاذه فى أهل تلك البلدة للصور الدينية . فى عام ١٥٠٣ رسم لكنيسة القديس فرانسس صورة تمثل *تتويج العذراء* توجد الآن فى الفاتيكان : وفيها يقف الرسل ومعهم مجدلين حول تابوت خال ، ويتطلعون إلى أعلى حيث يقف المسيح فوق السحب ويضع تاجا على رأس مريم ، بينا يحييها الملائكة بالعود والرق . وتبدو فى هذه الصور شواهد كثيرة على عدم النضوج : فالرءوس ليس فيها ما يكفى من الانفرادية ، والوجوه قلية التعبير ، والأيدى ليست حسنة التشكيل ، والأصابع جامدة غير لينة ، والمسيح نفسه أكبر بلا شك من أمه الجميلة ، وهو يتحرك حركات سمجة كأنه ناشئ ، حديث التخرج . ولكن رفائيل أظهر فى صور الملائكة الموسيقيين — فى رشاقة حركاتهم ، وهفهفة أثوابهم ، وفى الخطوط الخارجية لمعارفهم — ما سوف يكونه فى المستقبل .

ويبدو أن الصورة لاقت نجاحاً ؛ وشاهد ذلك أن كنيسة أخرى تدعى كنيسة سان فرانتشيسكو فى تشتا دى كاستلو Citta di Castello تبعد نحو ثلاثين ميلا من پروجيا طلبت إليه أن يرسم لها صورة مثل الصورة السابقة هى صورة *الأسبوسالدسبو* Spoalizio أو *زواج العذراء* (المحفوظة فى بريرا Brera) . وتكرر فى هذه الصور بعض أشكال الصورة الأولى ،

وتحذو فى شكلها حذو صورة مماثلة لها من عمل پروچينو . ولكن العذراء نفسها تبدو عليها سمات نساء رفائيل ورشاقتهن — فى الرأس المائل فى تواضع ، والوجه الحنون الحيى ، والانحناء الخفيف فى الكتف والذراع والثياب ؛ ومن خلف العذراء امرأة أكثر منها مرحاً وحيوية ، شقراء جميلة . وإلى اليمين شاب فى ملابس ضيقة تدل على أن رفائيل قد عكف على دراسة الجسم البشرى ؛ والأيدى كلها الآن حسنة الرسم وبعضها جميل .

وكان پنتورتشيو قد تعرف حوالى ذلك الوقت برفائيل فى پروچيا فدعاه إلى سينا ليكون مساعداً له ؛ وفيها رسم رفائيل صوراً تخطيطية ؛ وأخرى تمهيدية . لبعض المظلمات الرائعة التى يقص بها پنتورتشيو فى مكتبة الكنيسة أجزاء من قصة إينياس سلڤيوس قصصاً خليقاً بالبابوات . واسترعت أنظار رفائيل فى تلك المكتبة طائفة من التماثيل القديمة الطراز . هى تماثيل ربات الجمال التى جاء بها الكردنال پكولوميني من رومة إلى سينا . ورسم الفنان الشاب صورة سريعة لهذه التماثيل ، ليساعد بها ذاكرته على ما نظن . ويبدو أنه وجد فى هذه الصور الثلاث العارية عالماً مختلفاً ، وأخلاقاً مختلفة ، عما انطبع فى ذهنه فى أربينو وپروچيا — عالماً كانت فيه المرأة إلهة مبتهجة من ربات الجمال ، بدل أن تكون أم الإله الحزينة ، وتعد فيه عبادة الجمال عملا مشروعاً لا يقل فى ذلك عن تعظيم العفة والطهارة . ونما فى ذلك الوقت الجانب الوثنى من رفائيل ، وهو الذى أمكنه فى مستقبل الأيام من رسم نساء عاريات فى حمام أحد الكرادلة ، ووضع الفلاسفة اليونان إلى جانب القديسين المسيحيين فى حجرات الفاتيكان ، وتطور هذا الجانب تطوراً هادئاً ملازماً لتلك الناحية من طبعه وفنه اللذين أنتجا فيما بعـــد صورتى قداس بلسينا Bolsena وعذراء سستين . وسنجد فى صور رفائيل أكثر مما نجده فى أى بطل آخر من أبطال النهضة الإيمان المسيحى والبعث الوثنى يعيشان جنباً إلى جنب فى سلام وانسجام .

وعاد رفائيل بعد زيارته سينا أو قبل هذه الزيارة بزمن قصير إلى أربينو حيث قضى قليلا من الوقت ؛ وهناك رسم لجويدو بلدو صورتين ترمزان فى أغلب الظن لانتصار الدوق على سيزارى بورچيا : وهما صورتا **القديس ميخائيل والقديس جورج** ، وكلتاهما فى متحف اللوفر . ومبلغ علمنا أن الفنان لم يفلح قبل ذلك الوقت فى تمثيل العمل والحركة مثل ما أفلح رفائيل فى هاتين الصورتين ؛ فصورة القديس جورج وهو يستل سيفه ليهوى به على الهولة ، بينا يقفز جواده على خلفيتيه من شدة الرعب ، وتنشب الهولة مخالبها فى ساق الفارس ، ذلك كله يدهش الناظر بقوته ولكنه مع ذلك يسر العين برشاقته ؛ وهكذا بدأ رفائيل الرسام يعرف قدر نفسه .

وتدعوه وقتئذ فلورنس كما دعت من قبله پروجينو ومائة غيره من المصورين الشبان . ويبدو أنه شعر بأنه إن لم يعش فترة من الزمان فى تلك الخلية العاملة الحافزة التى ديدنها التنافس والنقد ، فيتعلم فيها مباشرة وعن كثب آخر تطورات الخطوط والتأليف واللون ، فى المظلمات والتصوير الزلالى والزيتى ، إن لم يفعل هذا وذاك فلن يكون أكثر من رسام إقليمى ، موهوب ولكنه محدود المجال ، قدر عليه آخر الأمر أن يظل مغموراً فى بيته وفى المدينة التى ولد بها . ومن أجل هذا رحل إلى فلورنس فى أواخر عام ١٥٠٤ .

وفيها سلك كعادته مسلك الرجل المتواضع ، فدرس أعمال النحت القديمة ، وقطعاً من فن العمارة جمعت فى المدينة ، وذهب إلى الكارمينى Carmine ونقل صور ماساتشيو Masaecio ، وبحث عن الصور التمهيدية التى أعدها ليوناردو وميكل أنچيلو لتكون صوراً فى قاعة المجلس فى قصر ڤيتشيو . ولعله التقى هنا بليوناردو ، وما من شك فى أنه خضع وقتاً ما إلى تأثير هذا الأستاذ الذى يحير كل من يخضع له ؛ وبدا له وقتئذ أن جميع الصور التى أخرجتها مدارس الفن فى فيرارا ، وبولونيا ، وسينا ، وأربينو ،

إذا قيست إلى صورتى **عبادة المجوس** ، و**موناليزا** ، وصورة **العذراء والطفل** ، و**القديسة آن** بدت كأنها ميتة لا حياة فيها ؛ بل إن عذارى پروچينو لم تكن إذا قيست إليها إلا دمى جميلة ، أو فتيات غير ناضجات من بنات الريف وهن على حين غفلة قداسة غير موائمة لهن . تُرى كيف كانت لليوناردو هذه الرشاقة فى رسم الخطوط ، وهذه المهارة فى تصوير الوجوه ، وهذا الإتقان فى تمثيل ظلال الألوان ؟ وما من شك فى أن رفائيل

قلد صورة **موناليزا** فى صورة مدالينا دونى Maddalena Doni (المحفوظة فى پتى Pitti) ، وإن كان قد حذف منها ابتسامتها لأن سيدة دونى لم تكن فيما يبدو تبتسم ؛ ولكنه أجاد تصوير جسم السيدة الفلورنسية القوى المتين البناء ، ويديها الناعمتين ، المكتنزتين ، المتخمتين ، اللتين تمتاز بهما صاحبات المال المنعمات ، ونسيج الثياب الغالى ذى اللون الجميل الذى يكسب هذا الشكل إجلالا ومهابة . وصور رفائيل فى الوقت عينه زوجها أنچيلو دونى Angelo Doni أسمر اللون ، يقظاً ، صارماً .

وانتقل من عند ليوناردو إلى الراهب بارتولميو ، فزاره فى صومعته فى سان ماركو ، ودهش مما شاهده فى فن الراهب الحزين من حنان التعبير ، وحرارة الشعور ، ورقة الخطوط الخارجية ، وانسجام التأليف ، وعمق الألوان وكمالها . وزار الراهب بارتولميو رفائيل بعدئذ فى رومة عام ١٥١٤ ودهش هو أيضاً كما دهش رفائيل قبله من السرعة التى علا بها شأن الفنان المتواضع حتى بلغ ذروة المجد فى عاصمة العالم المسيحى . والحق أن رفائيل قد بلغ هذه الدرجة من العظمة لأنه كان فى مقدوره أن يسرق بنفس الطهارة التى يسرق بها شيكسپير ، ولأنه كان يستطيع أن يجرب وسيلة بعد وسيلة وطرازاً بعد طراز ، ويأخذ من كل طراز ما فيه من عناصر ثمينة ، ثم يخرج ما أخذه منها مدفوعاً بتحمسه للخلق وللإبداع فيجعل منه أسلوباً لا شك فى أنه أسلوبه الخاص دون سواه .

ولقد استحوذ على تقاليد التصوير الإيطالى الفنية جزءاً جزءاً وما لبث أن بلغ بها حد الكمال .

وكان فى هذه الفترة الفلورنسية (١٥٠٤ ــ ١٥٠٥ ، ١٥٠٦—١٥٠٧) قد شرع يرسم صوراً تطبق الآن شهرتها العالم المسيحى وغير العالم المسيحى . ففى متحف بودابست Budapest مثلا **صورة شاب** — لعلها صورة له هو — له نفس البيرية(*) ونظرة العينين الجانبية التى نشاهدها فى صورة معرض يتى . ورسم رفائيل وهو لا يزال فى الثالثة والعشرين من عمره صورة **مادونا دل غراندوقا** Madonna del Granduca أى سيدة الدوق الأكبر (معرض يتى) التى صور وجهها ذا الشكل البيضى الكامل ، وشعرها الحريرى ، وفمها الصغير ، وجفونها الشبيهة بجفون نساء ليوناردو وقد خفضتها فى حب حزين ، نقول إنه صور هذه المعارف ايعارض بها معارضة قوية قناعها الأخضر ورداءها الأحمر . وكان فرديناند الثانى دوق تسكانيا الأكبر يجد من السرور فى مشاهدة هذه الصورة ما يحمله على أن يأخذها معه فى أسفاره — ومن هنا اشتق اسمها . ولا تقل عن هذه جمالا صورة **مادونا دل كارديلينو** Madonna del Cardeilino أى سيدة الحسون(**) (فى متحف أفيزى) ، فالطفل المسيح فى هذه الصورة آية رائعة من آيات التفكير ، ولكن القديس يوحنا ، الذى يصل ظافراً بالطائر مقبوضاً عليه يلعب به ، بهجة للعقل والعين ، ووجه العذراء يمثل تمثيلا لا يمكن أن ينمحى من الذاكرة حنان الأم الشابة المتسامحة . وقد أهدى رفائيل لورندسو ناسى Lorenzo Nasi هذه الصورة بمناسبة زفافه ؛ ولكن زلزالا حدث فى عام ١٥٤٧ هدم بيت ناسى وحطم الصورة ؛ ثم جمعت قطعها بحذق وعناية لا يستطيع أحد معهما أن يحدس ما أصابها.

(*) Beret لباس للرأس . (المترجم)

(**) طائر أوربى صغير براق اللون من طيور الزينة . (المترجم)

إلا بيرينسون Berenson بعد أن شاهدها فى متحف أفيزى . لكنه كان فى صورة **السيدة فى المرج** (المحفوظة فى متحف ڤينا) أقل توفيقاً منه فى الصور السابقة ، وإن كان رفائيل يرسم لنا فيها منظراً طبيعياً فذا ، مغموراً فى ضوء المساء . الأزرق الخفيف المتساقط على الحقول الخضراء ، والمجرى الأملس المستوى السطح ، والمدينة ذات الأبراج ، والتلال النائيـــة . وصورة **البستانى الجميل** (متحف اللوڤر) لا تكاد تستحق أن توصف بأنها صورة أجمل السيدات الفلورنسيات . فهى تكاد تكون صورة طبق الأصل من صورة **سيدة المرج** ، وهى تمثل يوحنا المعمدان من أنفه إلى قدمه تمثيلا مضحكاً سخيفاً ، ولا يرفع من شأنها إلا صورة الطفل المثالية وهو واقف بقدميه المكتنزتين على قدم العذراء العارية ، رافعاً عينيه نحوها فى حب وثقة . وأحسن صور ذلك العهد وأعظمها طموحاً نحو الكمال صورة **مادونا دل بلدانشينو** (ســـيدة المظلة) Madonna del Baldacchino (المحفوظة فى معرض پتى) — وفيها ترى الأم العذراء جالسة فوق مظلة ، يفتح طياتها ملكان ، ويقف إلى جانبيها قديسان ، ويغنى عند قدميها ملكان آخران . والصورة كلها عمل تقليدى عرفى سبب شهرتها الوحيد أنها من صنع رفائيل .

وقطع مقامه فى فلورنس عام ١٥٠٥ ليزور پروچيا ويقوم فيها بعملين ، أحدهما هوستار المذبح الذى رسم عليه صورة لراهبات دير القديس أنطونيوس . وهو الآن من أنفس الصور فى معرض نيويورك الفنى . وفيه نجد العذراء فى داخل إطار منحوت نحتاً جميلا ، جالسة على عرش ، تشبه « راهبة » وردسورث Wordsworth التى « تنقطع أنفاسها من العبادة » ؛ والطفل فى حجرها يرفع إحدى يديه ليبارك الرضيع القديس يوحنا ؛ وفيها صورتان لسيدتين — هما القديسة تشيتشيليا والقديسة كترين الإسكندرية — تحيطان بالعذراء . ويرى فى مقدمة الصورة القديس بطرس

عابسا ، والقديس بولس يقرأ ، وفى مشكاة فى أعلاها يرى الله الأب يحيط به الملائكة ، ويبارك أم ابنه ويمسك العالم بإحدى يديه . وفى إحدى اللوحات يصلى المسيح على جبل الزيتون والرسل نائمون ، وفى لوحة أخرى ترفع مريم جسم المسيح الميت ومجدلين تقبل قدميه الجريحتين . وإن ما فى الصورة من تأليف كامل لأشتاتها ، وصورة القديسات التى تأخذ بمجامع القلوب ، وهن يفكرن فى قلق . والفكرة القوية التى أوحت بصورة بطرس المنفعل ، والمنظر الفذ للمسيح وهو على الجبل ، كل هذا يجعل هذه الصورة التى رسمت لآل كولنا أول الروائع التى أخرجها رفائيل لا ينازعها فى ذلك منازع . ورسم الفنان فى تلك السنة نفسها سنة ١٥٠٦ صورة أقل من هذه روعة : صورة سيدة (محفوظة الآن فى المعرض القومى بلندن) لأسرة أنسيدى Ansidei . فيها ترى العذراء على عرشها الضيق ، تعلم الطفل القراءة ، وإلى يسارها نقولاس قديس بارى Bari فى ثيابه الأسقفية الفخمة منهمك أيضاً فى الدرس ؛ وإلى يمينها يوحنا المعمدان وقد بلغ فجاءة سن الثلاثين بينما رفيقه فى اللعب لا يزال طفلا ، وهو يشير بإصبعه التقليدية إلى ابن الله .

ويبدو أن رفائيل سافر من پروچيا إلى أربينو مرة اخرى (١٥٠٦) ، وفيها رسم لجويدوبلدو صورة أخرى للقديس چورچ (توجد الآن فى لينينجراد) يمسك هذه المرة برمح ، وهو فى هذه الصورة فارس شاب وسيم مغطى بالزرد تكشف زرقته البراقة عن ناحية أخرى من براعة رفائيل . وأكبر الظن أنه فى هذه الزيارة نفسها قد رسم لأصدقائه أكثر صوره الذاتية شهرة (معرض پتى) وفيها يلبس بيرية سوداء فوق غدائر من الشعر الطويل الأسود ؛ ووجه لا يزال فى نضرة الشباب ، لم يظهر فيه بعد أثر لشعر اللحية ؛ وأنف طويل ، وفم صغير ، وعينين رقيقتين — وقصارى القول أن الوجه كله من الوجوه التى تطالعنا فى كل

حين وهو أشبه ما يكون بوجه كيتس Keats — ويكشف عن روح طاهرة ناضرة مرهفة الحس بكل ما فى العالم من جمال .

وعاد إلى فلورنس فى أواخر عام ١٥٠٦ ، وفيها رسم بعض صوره الأقل من الصور السابقة شهرة ومنها الصورة المعروفة باسم صورة نقولينى كوبر « Niccolini Cowper » ، وهى صورة العذراء والطفل (واشنجتن) . وسبب تسميتها بالاسم الأول أن إيرل كوبر الثالث خرج بها من فلورنس خلسة مخبأة فى بطانة فرش عربته . وليست هى من أحسن صور رفائيل ؛ ولكن أندرو ملون Andrew Mellon ابتاعها بمبلغ ٨٥٠,٠٠٠ دولار ليضمها إلى مجموعته (١٩٢٨)(٢٠) . وبدأ رفائيل وهو فى فلورنس عام ١٥٠٧ صورة أعظم من هذه كثيراً هى صورة دفن المسيح الموجودة فى معرض آل بورجيا وقد كلفته برسمها لكنيسة سان فرانتشيسكو فى بروجيا السيدة أطلنطا بجليونى Atalana Baglioni التى خرت راكعة فوق ابنها المحتضر فى شارع المدينة قبل سبع سنين من ذلك الوقت ، ولعلها أرادت أن تعبر عن حزنها بحزن مريم على ولدها . وقد اتخذ رفائيل صورة بروچيا التى تمثل الوديعة نموذجاً له ، فألف بين أجزاء صورته تأليفاً بارعاً لا يكاد يقل فى قوته عن تأليف منتينيا Montegna : ففيها يرى المسيح الميت الضامر الجسم يحمله فى غطاء شاب متين البنية قوى العضلات ورجل ملتح مجهد ، وفيها أيضاً صورة رائعة لرأس يوسف الأرمتيائى of Arimathea ، وصورة جميلة لمجدلين تنحنى وهى مروعة فوق الجثة ، ومريم أم المسيح فاقدة وعيها فى أحضان المحيطات بها من النساء . وقصارى القول أن كل من فى الصورة يختلف فى موقفه عن غيره ، ولكنهم جميعاً قد صوروا تصويراً دقيقاً من حيث تشريح الجسم . ورشيقاً لا يقل عن رشاقة كريچيو Corregio ، وقد امتزجت فيها الألوان الحمراء ، والزرقاء ، والبنية ، والخضراء امتزاجاً ألف منها وحدة متناسقة مشرقة ، بين منظر طبيعى جميل شبيه بمناظر

چورچيونى تظهر فيه صلبان جلجوثا Golgotha الثلاثة تحت سماء المساء ؛

وتلقى رفائيل وهو فى فلورنس عام ١٥٠٨ دعوة غيرت مجرى حياته . ذلك أن فرانتشيسكو ماريا دلا روفيرى دوق أربينو الجديد كان ابن أخى يوليوس الثانى ، وكان برامنتى الذى يمت بصلة القرابة البعيدة لرفائيل من المقربين وقتئذ للبابا ؛ ويلوح أن الدوق والمهندس أوصيا يوليوس برفائيل ، وسرعان ما تلقى المصور الشاب دعوة بالمجيء إلى رومة . وقد سره أن يسافر إليها لأن رومة لا فلورنس ، كانت وقتئذ المركز المثير الحافز لعالم النهضة ؛ وكان يوليوس قد مل رؤية جوليا فرنيزى تمثل كذباً صورة العذراء على جدران جناح آل بورچيا بعد أن أقام فى هذا الجناح أربع سنين ، ورغب لذلك أن ينتقل إلى الحجرات الأربع التى كان يسكنها فى وقت ما نقولاس الخامس العظيم . وأراد أن تزين هذه الحجرات بصور تواثم ما فطر عليه من بطولة وما يبتغيه من أغراض . وسافر رفائيل إلى رومة فى صيف عام ١٥٠٨ .

٢ — رفائيل ويوليوس الثانى : ١٥٠٨ — ١٥١٣

قلما اجتمع فى مدينة عدد من الفنانين العظام منذ أيام فيدياس مثل العدد الذى اجتمع منهم فى رومة فى تلك الأيام . لقد كان فيها ميكل أنچيلو يحفر صوراً للقبر الضخم المنشأ ليوليوس ، كما كان ينقش سقف معبد سستينى ؛ وكان برامنتى ، يخطط كنيسة القديس بطرس الجديدة ؛ والراهب چيوفنى فنان ڤرونا البارع فى الحفر على الخشب يحفر أبواباً وكراسى ، ومقاعد ، للحجرات ؛ وكان پيروچينو ، وسنيوريلى ، وپرودسى ، وسودوما ، ولتو ، وپنتورتشيو ، كان هؤلاء قد نقشوا بعض الجدران ؛ وكان أمبروچيو فپا Ambrogio Foppa المسمى كرادسا Caradossa تشيلينى زمانه يصنع الذهب على اختلاف أشكاله ؛

وعهد يوليوس إلى رفائيل بنقش حجرة التوقيعات Stanza della Seqnatora التى سميت بهذا الاسم لأن البابا كان يستمع فيها لاستئناف الأحكام ويوقع العفو عمن صدرت عليهم أحكام نهائية . وقد سرته النقوش الأولى التى قام بها الشاب فى هذه الحجرة ، ورأى فيه عاملا له ممتازاً طيعاً ، فى مقدوره أن ينفذ الأفكار العظيمة التى يمتلئ بها ذهن البابا ؛ وبلغ من هذا السرور أن فصل من خدمته پرچينو ، وسنيوريلى ، وسودوما ؛ وأمر أن تغطى رسومهم بالجير ، وعرض على رفائيل أن ينقش هو جميع جدران الحجرات الأربع . غير أن رفائيل أقنع البابا بأن يحتفظ ببعض الأعمال التى قام بها الفنانون الأولون ؛ لكن معظم هـــذه النقوش غطيت حتى تكون للنقوش الكبرى وحدة التفكير والتنفيذ . ونال رفائيل على نقش كل حجرة ١٢٠٠ دوقة (١٥,٠٠٠ دولار) ، وقضى فى الحجرتين اللتين نقشهما ليوليوس أربعة أعوام ونصف عام ؛ وبلغ وقتئذ السادسة والعشرين من العمر .

وكان تصميم حجرة التوقيعات فخماً سامياً ؛ فقد كان المراد من النقوش أن تمثل اتحاد الدين والفلسفة ، والثقافة القديمة والدين المسيحى ؛ والكنيسة والدولة ، والأدب والقانون ، اتحاد هذه كلها فى حضارة النهضة ، ولعل البابا هو الذى تصور الفكرة العامة ، واختار الموضوعات بعد استشارة رفائيل وعلماء بلاطه — إنغيرامى Inghirami وسادوليتو Sadoleto ثم بمبو وبيبنا Bibbiena فيما بعد . وقد رسم رفائيل ، فى نصف الدائرة الكبرى التى يكونها أحد الجدران الجانبية ، الدين ممثلا فى أشخاص الثالوث والقديسين ، اللاهوت فى صورة أباء الكنيسة وعلمائها وهم يبحثون طبيعة الدين المسيحى مركزاً فى عقيدة العشاء الربانى . وفى وسعنا أن ندرك مقدار ما بذله من العناية فى إعداد نفسه لهذا الاختبار الأول الذى امتحنت به مقدرته على أن يرسم صوراً على مقياس واسع ، فى وسعنا أن ندرك هذا

من الدراسات الثلاثين المبدئية التى قام بها لكى يستعد لرسم صورة النقاش فى موضوع العشاء الربانى . فقد درس لهذا الغرض صورة **يوم الحساب** التى رسمها الراهب بارتولميو فى كنيسة سانتا ماريا نوفا فى فلورنس ، والصورة التى رسمها هو لعبادة الثالوث فى كنيسة سان سفيرو فى پروچيا ، وعلى أساس هاتين الصورتين وضع خطته .

وكانت النتيجة التى تمخض عنها هذا العمل منظراً كاملا فخماً رائعاً ، يكاد يحيل أكثر المتشككين عناداً إلى رجل مؤمن بأسرار الدين . وقد رسم فى قمة العقـــد خطوطاً متشععة تتقارب حتى تجتمع إلى أعلى ؛ ويخيل معها إلى الناظر أن الصور العليا تنحنى إلى الأمام ؛ أما فى أسفل العقد فإن الخطوط المجتمعة فى الطوار الرخامى تكسب الصورة عمقاً . وفى القمة يرى الله الأب — فى صورة إبراهيم الوقور الرحيم — يمسك الكرة الأرضية بإحدى يديه ، ويبارك المنظر باليد الأخرى : ويجلس الابن أسفل منه ، عرياناً إلى وسطه ، كأنه فى قوقعة ؛ وإلى يمينه مريم خاشعة متعبدة ؛ وإلى يساره المعمدان وهو لا يزال ممسكاً بعصا الراعى يتوجها الصليب ، وأسفل منه يمامة تمثل الروح القدس وهو الشخص الثالث من الثالوث المقدس ؛ فكأنك ترى فى هذه الصورة كل شىء . وجالس على سحابة زغبية حول المسيح المنقذ اثنا عشر شخصاً عظيما ممن ورد ذكرهم فى العهد القديم أو التاريخ المسيحى : آدم فى صورة رجل رياضى كأشخاص ميكل أنچلو ، يكاد يكون عارياً من الثياب ؛ وإبراهيم ؛ وصورة فخمة لموسى ، وفى يده ألواح الشريعة ؛ وداود ويهوذا مكابيوس : وبطرس ، وبولس ، والقديس يوحنا يكتب إنجيله ؛ ويوحنا الأكبر ، والقديس اسطفانوس ، والقديس لورنس ، وشخصان آخران لا تعرف هويتهما على وجه التحقيق ، وبين هؤلاء جميعاً وفى السحب يقفز ملائكة من مختلف الطبقات والأصناف يدخلون فى هذه السحب ويخرجون ، ومنهم من

يدورون فى الهواء على أجنحة الأغانى . ويفرق هذا الجمع السماوى ويضمه ملكان الحشد الأرضى الأسفل منه يمسكان بالإنجيل ، ومسهدة(*) تحتوى على القربان المقدس . وتجتمع حول هذا المشهد طائفة مختلفة من رجال الدين لتبحث المشاكل اللاهوتية : وتضم هذه الطائفة القديس چيروم ، ومعه ترجمته اللاتينية للإنجيل وأسده ؛ والقديس أوغسطين يملى كتابه مدينة الله ؛ والقديس أمبروز فى ثيابه الأسقفية ، والبابا أنكليتس Anaciltus والبابا إنوسنت الثالث ؛ والفلاسفة أكويناس وبناڤنتوا ، ودنزاسكوتس ، ودانتى العنيد ، متوجاً بما يشبه الشوك ؛ والراهب أنچيلكو الظريف ؛ وسڤنرولا المغضب (وتمثل صورته انتقاماً آخر ليوليان من الإسكندر السادس) ؛ وأخيراً نجد فى ركن من الصورة برامنتى صديق رفائيل وحاميه أصلع الرأس دميم الخلقة . وقد وصل الفنان الشاب فى جميع هذه الصور البشرية إلى درجة مدهشة من الانفرادية ، جعلت كل وجه من وجوههم ترجمة لصاحبه لا يرى العقل ما يمنعه من قبولها ؛ وخلع على كثيرين منهم كرامة فوق الكرامة الآدميـــة تسمو بالصورة كلها وبالموضوع كله وتكسبه جلالا ونبلا . وأكبر الظن أننا لا نجد فى كل ما رسم قبل ذلك الوقت صورة نجحت فى تمثيل ملحمة عظمة العقيدة المسيحية كما نجحت فى تمثيلها هذه الصورة .

ولكن هل يستطيع هذا الشاب نفسه ، وهو الآن فى الثامنة والعشرين من عمره ، أن يمثل — بهذه العظمة ذاتها — الدور الذى يضطلع به العلم والفلسفة بين الآدميين ؟ إنا لا نجد دليلا على أن رفائيل كان واسع القراءة والاطلاع على الكتب ؛ لقد كان يتحدث بفرشاته ، ويستمع بعينيه ، ويعيش فى عالم من الأشكال والألوان ليس للألفاظ فيه إلا شأن حقير ، إلا إذا عبرت عنها الأعمال ذات الخطر التى يقوم بها الرجال والنساء .

(*) وعاء كنسى يعرض فيه القربان المقدس . (المترجم)

وما من شك فى أنه قد أعد نفسه لهذا العمل بالقراءة السريعة ، وبالانغماس فى كتابات أفلاطون وديوجين لبرتيوس ، ومارسيليو فتشينو Marsilio Ficino ، وبالحديث القليل غير ذى الخطر مع العلماء ، وذلك لكى يسمو فى ذلك الوقت إلى فكرته العليا فيصور *مدرسة أثينة* — المشتملة على نحو خمسين صورة لخص فيها قروناً غنية بالتفكير اليونانى جمعها كلها فى لحظة خالدة تحت عقد ذى لوحات غابرة ، فى رواق معمد وثنى ضخم . وهناك على الجدار وفى مواجهة صورة تأليه الفلسفة مباشرة التى تحتويها صورة الجرل نرى تمجيد الفلسفة : نجد أفلاطون ذا الجبهة الشبيهة بجبهة الإله جوپتر ، والعينين الغائرتين ، وشعر الرأس واللحية الأبيض الطويل المرسل ، يرفع إصبعه إلى أعلى مشيرا بها إلى مكانته الكاملة ؛ ونرى أرسطو يسير هادئاً ساكناً بجواره وهو أصغر منه بثلاثين عاماً ، وسيما مبتهجا ، يمد يده وراحتها إلى أسفل ، كأنه يريد أن ينزل بمثالية أستاذه العليا فيرجعها إلى الأرض وإلى حدود الممكنات ، ونرى سقراط يعد نقط نقاشه على أصابعه ، وألقبيادس المسلح يصغى إليه وهو بادى الحب ، وفيثاغورس يحاول أن يحصر فى جداول مؤتلفة متوافقة موسيقى الأكوان ، وسيدة حسناء قد تكون أسپازيا ؛ وهو قليطس يكتب ألغازاً إفيزية Ephesian ، وديوجين وقد رقد عارياً فى غير مبالاة على الدرج الرخامية ؛ وأرخميدس يرسم أشكالا هندسية على لوح من الاردواز ليعلم أربعة غلمان مكبين على الدرس وبطليموس الفلكى وزرادشت يتبادلان كرات سماوية ؛ وغلاماً إلى اليسار يهرول فى اهتمام شديد متأبطاً كتباً ، وهو بلا شك يبحث عمن يكتب له ذكرياته ، وصبياً مجدا جالساً فى أحد الأركان يدون مذكرات ، ونرى إلى اليسار فيدريجو مانتو ابن إزبلا ، ومدلل يوليوس ، يطل بنصف عين ونرى كذلك برامنتى مرة أخرى ؛ ثم نرى رفائيل نفسه متواضعاً مختفيا لا يكاد يرى ، وقد طر الآن شاربه . وهناك غير هؤلاء كثيرون

لنترك للعلماء ممن يتسع وقتهم للنقاش والجدل أن يتناقشوا فى حقيقة أشخاصهم ، وكل ما نقوله هنا أن مجتمعنا من الحكماء مثل هذا المجتمع لم تضمه من قبل صورة من الصور ، بل لعل أحدا لم يفكر قط فى أن تضمه ، وأكثر من هذا أن هذه الصورة ليس فيها كلمة واحدة عن الالحاد ، ولا فيلسوف واحد ممن حرق بسبب آرائه ؛ بل إن هذا المسيحى الشاب الذى كان يتمتع بحماية بابا أكبر من أن يشغل نفسه بالفروق بين خطأ وآخر ، قد جمع فجاءة بين كل أولئك الوثنيين ، وصورهم بأخلاقهم وبإدراك عجيب وعطف كبير ، ووضعهم حيث يستطيع علماء الدين أن يروهم ويتبادلوا الأخطاء معهم ، وحيث يستطيع البابا ، خلال الفترات التى بين كل وثيقة وأخرى . أن يتدبر سير التعاون بين أفكار البشر ونشأتها . وتمثل هذه الصورة هى وصورة الجدل المثل الأعلى لتفكير النهضة — تمثل عهد الوثنية القديم والدين المسيحى يعيشان معاً مؤتلفين منسجمين فى حجرة واحدة . وإذا نظر الإنسان إلى هذه اللوحات المتنافسة فى تفكيرها وتأليفها ، وفنها رأى فيها ذروة فن التصوير الأوربى التى لم يرق أحد إليها حتى يومنا هذا .

بقيت بعد ذلك حجرة ثالثة ، أصغر من الحجرتين السابقتين تتخللها نافذة يبدو معها أن وحدة الموضوع فى الصورة التى ترسم عليها مستحيلة . ولهذا كان من الاختيار الرائع الموفق أن يمثل على سطح هذا الجدار الشعر والموسيقى . وهكذا خفف من ثقل الحجرة المثقلة باللاهوت والفلسفة وأضفى عليها كثيراً من البهجة واللألاء المستمد من عالم الخيال المطرب المنسق ، بحيث تستطيع الألحان اللطيفة أن ترسل نغماتها الصامتة خلال القرون فى أرجاء تلك الحجرة التى تصدر منها أحكام بالحياة أو الموت لا تقبل نقضاً . وفى مظلم فرناسوس Parnassus هذا نرى أپلو جالسا تحت أشجار الغار على قمة الجبل المقدس يستمد من كمانه الكبير « ترانيم خالية من النغم » ؛ وإلى جانبه إحدى ربات الشعر متكأة فى رشاقة وراحة ،

تكشف عن صدرها الجميل إلى القديسين والحكماء المصورين على الجدران المجاورة ؛ ونرى هومر ينشد أشعاره السداسية الأوتاد فى نشوة المكفوفين ؛ وترى دانتى ينظر فى صرامة لا تقبل مسالمة أو مهادنة إلى هذه الزمرة الطيبة من الشعراء والظرفاء ، وترى سابفو ، وهى أجمل من أن تكون لزبية Lesbian ، تضرب على قيثارتها ، وفرجيل وهوراس ، وأوفد ، وتيبلوس ، وغيرهم من المغنين الذين اختيروا ليمثلوا عصوراً متعاقبة ، تراهم يختلطون مع بترارك ، وبوكاتشيو ؛ وأريستو ، وسنادسارو وغيرهم من شعراء إيطاليا الأحدث منهم عهداً والأقل منهم شأناً . وهكذا يوحى الفنان الشاب بأن « الحياة إذا خلت من الموسيقى كانت خطأ من الأخطاء »(٢١) ، وأن نغمات الشعر ، وخيالاته قد ترفع الآدميين إلى درجات لا تقل سمواً عن درجات الحكمة القصيرة النظر ، واللاهوت وما فيه من وقاحة .

وعلى الجدار الرابع الذى تخترقه أيضاً نافذة كرّم رفائيل مكانة القانون فى الحضارة . فقد صور فى مشكا صوراً تمثل الفطنة ، والقوة ، والاعتدال ؛ وصور على أحد جانبى النافذة القانون المدنى فى صورة **الإمبراطور جستنيان** ينشر **مجموعات القوانين** ، وعلى جانبها الآخر القانون الكنسى فى صورة **البابا جريجورى العاشر** ينشر **المراسيم البابوية** . وأراد هنا أن يتملق سيده المحنق الغاضب فصور جريجورى فى صورة يوليوس ، وكانت هذه أيضاً صورة قوية ذات روعة . ورسم الفنان فى دوائر السقف المزخرف ، وأشكاله السداسية ومستطيلاته ، آيات صغيرة من آياته الفنية مثل **حكم سليمان** وأشكالا رمزية تمثل اللاهوت والفلسفة ، وفقه القانون ، وعلم الهيئة ، والشعر . وبهذه الصور وأمثالها من النقوش على الأصدا وبعض المدليات التى تركها سوروما تمت زخرفة **حجرة التوقيعات** .

وأفرغ رفائيل فى هذا العمل كل ما كان له من جهد ، ولم يبلغ بعد

قط ما بلغه فيه من مستوى رفيق ممتاز ، ولهذا فإنه حين بدأ فى عام ١٥١١ يزخرف الحجرة الثانية التى تسمى الآن حجرة إليودورو باسم أهم صورة فيها ، بدا أن الإلهام التصورى للبابا والفنان قد فقد قوته وناره . ولم يكن من السهل أن ينتظر من يوليوس أن يخصص جناحه كله لتمجيد الاتحاد بين الثقافة الرومانية واليونانية القديمة من جهة والدين المسيحى من جهة أخرى ؛ وكان من الطبيعى وقتئذ أن يخصص عدداً قليلا من الحجرات لتخليد ذكريات من الكتب المقدسة وقصة المسيحية . ولعله أراد أن يرمز إلى ما يتوقعه من طرد الفرنسيين من إيطاليا ، فاختار لإحدى نواحى الحجرة الوصف الحى الواضح الموجود فى كتاب المكابيين الثانى والذى يقول إن هليودورس وجماعته الوثنيين حاولوا اختلاس كنوز معبد أورشليم (١٨٦ ق . م) فهجم عليهم ثلاثة من الملائكة المحاربين . ونرى فى هذه الصورة الكاهن الأكبر أنياس Onias راكعاً عند المذبح أمام خلفية معمارية من العمد العظيمة ، واللوحات الغائرة ، يطلب العون من الله . وإلى اليمين ملاك راكب شديد الغضب يدوس القائد السارق ، ويتقدم منقذان سماويان غيره ليهاجما الكافر الساقط ، الذى تتناثر على الأرض نقوده المسروقة . وإلى اليسار يجلس يوليوس الثانى فى جلال هادئ يرقب طرد الغزاة ، ويحتقر الفنان بوضعه هذا الدقة التاريخية احتقاراً لا يسعنا معه إلا أن نشهد له بالسمو فى التفكير . ويختلط عند قدميه جماعة من النساء الهولنديات برفائيل (وهو الآن رجل ملتح وقور) وبصديقيه مركنتونيو رايمندى Morcantonia Raymondi الحمار ، وچيوڤنى دى فلياری Giovanni di Foliari أحد أمناء البابا . ولا يرتفع هذا المظلم إلى الدرجة التى يرتفع إليها مظلم الجدل أو مدرسة أثينة فقد خصص كله تخصصاً واضحاً لا خفاء فيه لتمجيد حبر واحد من الأحبار وموضوع واحد سريع الزوال ، مضحياً فى ذلك بالوحدة فى التأليف ، ولكنه مع ذلك آية فنية بلا ريب ، تنبض بالأعمال ، ذات فخامة معمارية ، ويكاد ينافس ميكل

أنچيلو فى إظهار التشريح العضلى وقت الغضب .

وصور رفائيل على جدار آخر قداس بلسينا Bolsena . فقد حدث حوالى عام ١٢٦٣ أن ارتاع قسيس بوهيمى من بلسينا (القريبة من أرڤيتو) ، كان يرتاب فى أن الخبز المقدس يتحول حقاً إلى جسد المسيح ودمه ، إذ رأى نقطاً من الدم تنضح من الخبز الذى كرسه تواً فى القداس . وأراد البابا إربان الرابع أن يخلد هذه المعجزة فأمر ببناء كتدرائية فى أرڤيتو ، كما أمر بأن يحتفل فى كل عام بعيد الجسد الطاهر . ورسم رفائيل هذا المنظر رسماً رائعاً عظيما ، ترى فيه نظرات القس المرتابة فى الخبز المقدس ينضح منه الدم ، والقندلفت الذى خلفه يدهش من هـــذا المنظر ؛ وفى أحد الجوانب نساء وأطفال وفى الجانب الآخر الحرس السويسرى ، وهؤلاء يعجزون عن رؤية المعجزة ، فلا يتحركون . ويبدو عجزهم عن هذا التحرك واضحاً لا خفاء فيه . ويحدق الكردنالان رياريو واسكنر Schinner وغيرهما من رجال الكنيسة فى هذا المنظر إحداقاً تمتزج فيه الدهشة بالرعب . وفى الجهة المقابلة للمذبح يرى يوليوس الثانى راكعاً على مركع نحتت عليه صور مضحكة عجيبة يتطلع فى مهابة وهدوء ، كأنه قد عرف طوال الوقت أن الخبز المقدس سيسيل منه الدم . وإذا نظرنا إلى هذه الصورة من الناحية الفنية حكمنا أنها من أحسن مظلمات الجير : فقد وزع رفائيل أشخاصه بمهارة حول النافذة التى فى الجدار وفوقها ؛ رصورهم بثبات فى الخطوط وعناية فى التنفيذ ، وخلع على أجسادهم وثيابهم جدة فى العمق وقوة فى التلوين . وتمثل صورة يوليوس الراكع البابا نفسه فى آخر سنة من حياته . ومع أنه لا يزال هو المحارب القوى الصارم ، وملك الملوك الفخور ، فإنك تراه رجلاً أنهكه الكدح والجهد والكفاح تلوح عليه سمات الموت واضحة .

وأخرج رفائيل وهو يقوم بهذه الأعمال الكبرى عدة صور السيدات ذات روح خليقة بالخلود ، منها صورة العذراء ذات التاج التى يعود فيها إلى

طرازه التقى المتواضع ، ومنها مادنا دلا كاسا ألبا Dadonna della Casa Alba أى « سيدة البيت الأبيض » — وهى دراسة طريفة فى ألوان قرنفلية ، وخضراء ، وذهبية ، خطوطها كبيرة منسابة كخطوط عرافات ميكل أنچيلو . وقد ابتاع أندرو ملن Andrew Mellon هذه الصورة من حكومات السڤيت بمبلغ ٤٠٠ر١٦٦ر١ دولار . وصورة مادنا دى فولينو Madonna di Foligno المحفوظة فى الفاتيكان هى صورة عذراء جميلة وطفلها فوق السحاب ، يشير إليها المعمدان المصفر الوجه ، ويقدم لها القديس چيروم البدين واهب هذه الصورة : سجسمندو ده كنتى سيد فولينو وروما . ويرقى رفائيل فى هذه الصورة إلى مجد جديد فى الألوان الزاهية متأثراً فى ذلك بنفوذ سبستيانو دل پيمبو Sebastiano del Piombo الفنان البندقى . ومادنا دلا بيسنشى Madonna della Pesce أى « سـيدة السمك » (المحفوظة فى برادو) جميلة فى جميع أجزائها : فى وجه العذراء ومزاجها ، وفى الطفل — الذى لم تسم على صورته صورة غيرها من رسم رفائيل ، وفى صورة طوبيت الشاب يقدم لمريم السمك الذى ردت صورته قوة البصر لأبيه ، وفى ثوب الملاك الذى يقوده ، وفى صورة رأس الأب القديس چيروم . وتضارع هذه الصورة من حيث التأليف ، واللون ، والضوء صورة مادنا سستينى نفسها .

وآخر ما نقوله فى هذا المجال أن رفائيل قد ارتقى بالتصوير الملون هذه الفترة إلى مستوى لم يرق إليه أحد غيره فيما بعد إلا تيشيان . لقد كانت الصورة الملونة من نتاج عصر النهضة المميزة له ، وهى صورة أخرى من تحرر الفرد تحرراً نبيلا عزيزاً على النفس فى هذا العصر عصر المباهاة والتفاخر . وليست الصور التى رسمها رفائيل كثيرة العدد ولكنها كلها ترقى إلى أعلى مستوى فى الفن ، ومن أجملها كلها صورة بندو ألتوفيتى . ومنذا الذى تستطيع نفسه أن تحدثه بأن هذا الشاب الظريف ، اليقظ رغم ظرفه ،

الصحيح الجسم النافذ البصر ، الجميل جمال الفتيات ، لم يكن شاعراً بل كان مصرفياً ، وأنه كان من أنصار الفنانين من رفائيل إلى تشيليني ؟ وكان هذا الشاب حين صوره رفائيل فى الثانية والعشرين من عمره ؛ ثم وافته المنية فى رومة عام ١٥٥٦ بعد أن بذل جهداً نبيلا مضنياً جر عليه الوبال ليحفظ به استقلال سينا من اعتداء فلورنس . وكانت هذه هى الفترة التى أخرج فيها رفائيل أعظم صوره على الإطلاق وهى صورة يوليوس المحفوظة فى معرض أفيزى (حوالى ١٥١٢) ؛ ولسنا نستطيع أن نقول إن هذه هى الصورة الأصلية التى خرجت من يد رفائيل ، فقد تكون نسخة أخرى منها الصورة احتفظ بها فى المرسم ، وقد رسم النسخة العجيبة الفذة من هذه الصورة فى قصر پتى منافسه الكبير المصور تيشيان . أما الصورة الأصلية فلم يعرف مصيرها بعد .

وتوفى يوليوس نفسه قبل أن تتم صور **حجرة أليودورا** ولم يكن يدرى هل يستطيع إتمام المشروع العظيم مشروع نقش الحجرات الأربع . ولكن كيف يستطيع بابا مثل ليو العاشر المفتتن بالشعر والفن افتتاناً لا يقل فى عمقه عن افتتانه بالدين ، أن يتردد فى إتمام المشروع ؟ وقد قدر للشاب الآتى من اربينو أن يجد فى ليو أو فى صديق له ، وهكذا عرف صاحب عبقرية السعادة الحية تحت رعاية بابا سعيد أسعد سنى حياته .

الفصل الرابع

ميكل أنچيلو

١ - الشاب: ١٤٧٥ - ١٥٠٥

تركنا إلى آخر هذا الباب الحديث عن أحب المصورين والمثالين إلى يوليوس، أى عن الرجل الذى يضارعه فى مزاجه ورهبته، وفى قوة روحه وعمقها، أعظم الرجال فى السجلات البشرية وأكثرهم حزناً.

كان والد ميكل أنچيلو هو لدوڤيكو دى ليوناردو بوناروتى سيمونى Lodovico di Lionardo Buonerroti Simoni محافظ بلده كبريسى Caprese الصغيرة القائمة على الطريق الذى يصل فلورنس بأردسو، وكان لدوڤيكو يقول إنه يمت بصلة القرابة البعيدة إلى كونتات كانوسا Canossa وقد تفضل واحد منهم فاعترف بهذه الصلة؛ وكان ابنه ميكل أو ميخائيل أو ميكائيل يفخر على الدوام بأن فى عروقه لترا أو لترين من دم النبلاء، غير أن البحث الذى لا يرحم قد أثبت أنه مخطئ فى هذا[٢٢].

وكان مولده فى كبريسى فى السادس من شهر مارس عام ١٤٧٥، وقد سمى باسم أحد الملائكة الكبار كما سمى رفائيل باسم واحد منهم: وكان ميكل أنچيلو رابع إخوة أربعة؛ وربى بالقرب من محجر للرخام عند ستنيانو Settignano فتنفس بذلك تراب النحت منذ مولده. وقد قال فيما بعد إنه رضع الأزاميل والمطارق مع لبن مرضعته[٢٣]. ثم انتقلت الأسرة إلى فلورنس حين بلغت سنه ستة أشهر، وفى هذه البلدة تلقى من التعليم ما مكنه فيما بعد من أن يكتب شعراً إيطالياً جيداً. ولم يتعلم اللغة اللاتينية، ولم يخضع كل الخضوع لسحر العهود القديمة كما خضع له كثير

من الفنانين فى ذلك العصر ، بل كان ذا نزعة عبرية لا رومانية أو يونانية قديمة ؛ وكان فى رومة بروتستنياً أكثر مما كان كاثوليكيا .

وكان يفضل الرسم عن الكتابة — التى هى — فى رأيه إفساد للتصوير . وأسف والده لهذه النزعة ، ولكنه خضع لها آخر الأمر ، ووضع ميكائيل وهو فى سن الثالثة عشرة ليتتلمذ على دمنيكو غيرلندايو Dominico Ghirlandaio ، أشهر المصورين فى فلورنس وقتئذ . وكان العقد يلزم الشاب بأن يقيم مع دمنيكو ثلاث سنين « ليتعلم فن التصوير » ؛ على أن يتقاضى أجرا قدره ستة فلورينات فى السنة الأولى . وثمانية فى الثانية ، وعشرة فى الثالثة ، بالإضافة إلى الطعام والمسكن فيما نظن . وكان الشاب يكمل ما يناله من التعليم على يدى غيرلندايو بأن يظل على الدوام مفتوح العينين أثناء تجواله فى فلورنس فيرى فى كل شىء تحفة فنية . وفى ذلك يقول صديقه كنديفى Condivi : « فكان لذلك يتردد على سوق السمك ، يدرس فيها أشكال زعانفه وظلال ألوانه ، وألوان عيونه وكل ما يتصل به ؛ وقد أبرز كل هذه التفاصيل بأعظم ما يكون من الجد والمهارة فى صوره »(٢٤) .

ولم يكد يتم العام مع غرلندايو حتى اجتمعت عليه الفترة والمصادفة فحولته إلى النحت ؛ وكان له ، كما كان لكثيرين غيره من طلاب الفن ، أن يدخل بكامل حريته الحدائق التى وضع فيها آل ميديتشى مجموعات التماثيل والعمارة القديمة . وما من شك فى أنه قد نسخ صوراً من بعض الألواح الرخامية باهتمام خاص وحذق خاص ، وشاهد ذلك أنه لما أراد لورنتسو أن ينشئ فى فلورنس مدرســة للنحت طاب إلى غرلنداديو أن يبعث إليه بعض الطلاب الذين تلوح عليهم مخايل النجابة فى هذه الناحية ، فبعث إليه دمتيكو بفرانتشيسكو جانتشى Francesco Granacci وميكل أنجيلو بوناروتى . وتردد والد الغلام فى السماح له بالانتقال من

فن إلى فن ، وكان يخشى أن ينتهى الأمر بولده إلى أن يكلف بقطع الحجارة ؛ والحق أن ميكائيل قد استخدم بعض الوقت فى القيام بهذا العمل ، فكان يقطع الحجارة للمكتبة اللورنتيه . ولكن الغلام ما لبث أن أخذ ينحت التماثيل . والعالم كله يعرف قصة تمثال فاون(*) الرخامى . وكيف نحت ميكائيل قطعة من الرخام عثر عليها مصادفة فى صورة فاون عجوز ، وكيف لاحظ لورندسو وهو مار بهذا التمثال أن هذا الشيخ الطاعن فى السن يندر أن تكون أسنانه كاملة كما تظهر فى التمثال ، فما كان من ميكائيل إلا أن أصلح هذا الخطأ بضربة واحدة خلع بها سنا من فكه الأعلى . وسر لورندسو من إنتاج الغلام وحسن استعداده ، فأخذه إلى بيته وعامله فيه معاملة الآباء للأبناء . وظل الفنان الشاب عامين كاملين (١٤٩٠ — ١٤٩٢) يقيم فى قصر آل ميديتشى ، يطعم دائماً على مائدة واحدة مع لورندسو ، وبولتيان ، وبيكو ، وفتشينو ، وبلشى Pulci ، ويستمع إلى أكثر الأحاديث استثارة فى السياسة والأدب ، والفلسفة ، والفن . وخصه لورندسو بحجرة طيبة ، ووظف له خمس دوقات (٦٢ر٥٠ ؟ دولار أمريكى) كل شهر لمصروفه الخاص . وكان كل ما يخرجه ميكائيل من التحف الفنية يبقى ملكا خاصا به يتصرف فيه كما يشاء .

ولولا بيترو ترجيانو Pienro Torrigiano لكانت هذه السنون التى قضاها ميكائيل فى قصر آل ميديتشى سنى نشأة سعيدة فى حياة الشاب . وتفصيل ذلك أن بيترو ساءه فى يوم من الأيام استهزاء ميكائيل « فما كان منى ؛ (كما قال هو نفسه لسليني) » إلا أن قبضت يدى ولكمته لكمة على أنفه أحسست معها أن عظمه وغضروفه قد تحطما تحت عظام أصابعى كأنهما بقسماط هش ، وسيحمل أثر ضربتى هذه إلى قبره »[٢٥] . وهكذا كان ؛ فقد كان أنف ميكل أنچيلو يبدو طوال الأعوام الأربعة والسبعين

(*) Faun رب الحراج عند الرومان الأقدمين . (المترجم)

التالية مكسور العرنين ولم يكن هذا الحادث ليرقق من طبعه .

وفى هذه السنين نفسها كان سفنرولا يذيع تعاليمه المتزمتة النارية التى يدعو فيها إلى الإصلاح . وكثيراً ما كان ميكائيل يذهب ليستمع إليه ، ولم ينس قط تلك المواعظ أو الرجفة الباردة التى كانت تسرى فى دمه الغض حين تنفذ فى سكون الكتدرائية الغاصة بالمستمعين صيحة رئيس الدير الغاضبة معلنة ما سوف يحل بإيطاليا الفاسدة من دمار . وبقى شىء من روح سفنرولا بعد موته فى نفس ميكل أنچيلو : بقى منها الرعب مما يراه حوله من فساد خلقى ، وكراهيته الشديدة للاستبداد ، وشـــعوره الحزين من سوء المصير . واجتمعت هذه الذكريات والمخاوف فكانت من العوامل التى شكلت أخلاقه ووجهت منحته وفرشاته ، فكان وهو مستلق على ظهره فى نقش معبد يذكر سفنرولا ؛ وكان وهو يرسم صورة **يوم الحساب** يستعيده حياً فى خياله ، ويقذف بإرعاد الراهب وإبراقه خلال القرون .

وتوفى لورندسو فى عام ١٤٩٢ وعاد ميكل بعد موته إلى بيت أبيه ، وواصل عمله فى النحت والتصوير ، وأضاف وقتئذ تجربة عجيبة إلى ما تلقاه من تعليم . ذلك أن رئيس مستشفى سانتو اسپريتو (الروح القدس) Santo Spirito سمح له أن يشرح الأجسام البشرية فى حجرة خاصة ؛ وبلغت الأجسام التى شرحها من الكثرة حداً غثيت منه معدته ، فظلت بعض الوقت لا تستبقى فيها طعاماً أو شراباً . ولكنه تعلم التشريح ولاحت له فرصة سخيفة يظهر فيها علمه هذا حين طلب إليه پيرو ده ميديتشى أن يصنع من الثلج تمثال رجـــل فى بهو القصر ؛ فأجابه ميكل إلى ما طلب ، وأقنعه پيرو بأن يعود إلى الحياة فى قصر ميديتشى (يناير سنة ١٤٩٤) .

وحدث فى عام ١٤٩٤ أن هرب ميكل أنچيلو فى إحدى نوبات اضطرابه . الكثيرة إلى بولونيا مخترقاً ثلوج جبال الأپنين . وتقول إحدى القصص إن صديقاً له رأى فيما يرى النائم تحذيراً له من سقوط پيرو ؛ ولكن

لعل فطنته هى التى نبهته مقدماً إلى هذا المصير ؛ ومهما يكن من شىء فإن فلورنس قد لا تكون فى هذه الحال مكاناً أميناً لشخص له ما لميكل أنچيلو من الحظوة عند الميديتشيين . وأخذ وهو فى بولونيا يعنى عناية كبيرة بدراسة النقوش التى صورها ياقوپو دلا كويرتشيا على واجهة سان پترونيو ؛ ثم طلب إليه أن يتم قبر القديس دمنيك ، فنحت له ملكاً راكعاً رشيقاً ؛ وأنذره فى ذلك الوقت مثالو بولونيا المجتمعون فى منظمة لهم بأنه ، وهو الشخص الأجنبى المتطفل ، إذا ظل ينتزع العمل من أيديهم ، فإنهم سيتخاصون منه بإحدى الأساليب الكثيرة التى ابتكرها عصر النهضة . وكان سفنرولا فى ذلك الوقت قد أصبح صاحب السيادة فى فلورنس ، وامتلأ جو المدينة بالفضيلة وبالحديث عن الفضيلة . وعاد إليها ميكل فى عام ١٤٩٥ .

ووجد فيها نصيراً له فى شخص لورندسو دى پيرفرانتشيسكو Lorenzo di Pierfrancesco الذى ينتمى إلى فرع آخر من أسرة ميديتشى .

وقد نحت له تمثال كيوبد النائم الذى كان له تاريخ عجيب . فقد اقترح عليه لورندسو أن يعالج سطح التمثال حتى يبدو كأنه تمثال قديم ، ووافق ميكل على هذا الاقتراح ؛ ثم بعث لورندسو بالتمثال إلى رومة حيث بيع لأحد التجار بثلاثين دوقة وباعه هذا التاجر إلى روفائلو رياريو Raffaello Riario كردنال ده سان چورچيو بمائتى دوقة . وبيع بعدئذ إلى سيزارى بورچيا ، وباعه سيزارى إلى جويدو بلدو صاحب أربينى ؛ واسترده سيزارى حين استولى على تلك المدينة ، وأرسله إلى إزبلا دست ، ووصفته إزبلا هذه بأنه « لا نظير له بين جميع أعمال الأيام الحديثة »(٣٦) . ولسنا نعرف شيئاً من تاريخه بعدئذ .

وقد صعب على ميكل ، رغم كفاياته المتعددة ، أن يكسب قوته بأعماله الفنية فى مدينة يكاد عدد الفنانين فيها يبلغ عدد سكانها . ودعاه أحد عمال رياريو إلى رومة ، وأكد له أن الكردنال سيعهد إليه بعمل ، وأن

رومة مليئة بأنصار الفن أصحاب الثراء . وهكذا انتقل ميكل أنجيلو فى عام ١٤٩٦ إلى العاصمة وهو مفعم القلب بالأمل ، وخص بمكان فى بيت الكردنال . وتبين أن رياريو غـــير كريم ؛ غير أن ياقوپو جالو Iacopo Gallo . أحد رجال المصارف عهد إلى ميخائيل أن ينحت تمثالا لباخوس وآخر لكيوپيد . يوجد أولهما الآن فى متحف برجيلو Bargello بفلورنس والآخر بمتحف ڤكتوريا وألبرت بلندن . وتمثال باخوس صورة غير ممتعة لإله الخمر الشاب وهو فى حالة سكر شديد ؛ ورأس التمثال صغير لا يتناسب مع جسمه ، كما يليق بالسكير ، ولكن الجسم متقن التصوير أملس ناعم نعومة خنثوية . وكيوپيد شاب جاثم أكثر شبهاً بالشاب الرياضى منه بإله الحب ، ولعل ميكل أنجيلو لم يسمه بهذا الاسم الذى لا يتفق مع صورته ؛ وإذا نظرنا إليه من حيث هو تحفة من تحف النحت حكمنا من فورنا بأنه تحفة ممتازة . فقد ميز فيه الفنان من البداية أو فيما يكاد يكون من البداية ، عمله بأن أظهر صاحب التمثال فى لحظة من لحظات العمل وفى موقف من مواقفه . ذلك أنه لم يكن كاليونان ينضل فى الفن مواقف الراحة وعدم العمل ، لا نستثنى من ذلك إلا تمثال پييتا Pietà ؛ ومثل هذا يقال — مع الاستثناء ذاته — عن حب اليونان للتعميم أى تصوير أنماط عامة ؛ أما ميكل أنجيلو فكان يؤثر تصوير الفرد خيالياً فى فكرته ، واقعياً فى دقائقه ، ولم يقلد الأشكال القديمة ، إلا فى ملابسها ؛ أما بقية أعماله فكانت خاصة به ، فهى لم تكن مولداً جديداً للصور القديمة ، بل كانت خلقاً فذاً وإبداعاً على غير مثال يحتذيه .

وأعظم ما أخرجه الفنان أثناء مقامه الأول فى رومة هو تمثال پييتا وهو الآن أحد الآيات الفنية التى تفتخر بها كنيسة القديس بطرس . وقد وقع العقد الذى أنشئ بمقتضاه هـــذا التمثال الكردنال چان ده ڤلييه Jean de Villier سفير فرنسا فى البلاط البابوى (١٤٩٨) . وكان الأجر

المتفق عليه هو ٤٥٠ دوقة (٨٥٢٥ ؟ دولاراً) ؛ والزمن الذى يتم فيه سنة واحدة ، وأضاف المصرفى صديق ميكائيل ضمانه الكريم :

أتعهد ، أنا ياقوبو جالو ، بشرفى إلى السيد المبجل ، أن المدعو ميكل أنجيلو سيتم العمل المذكور فى خلال عام واحد ، وأنه سيكون أجمل عمل فى الرخام تستطيع أن تتباهى به رومة فى هـــذه الأيام ، وأن أستاذاً أياً كان فى أيامنا هذه لن يستطيع أن يصنع خيراً منه . . . وأتعهد كذلك بشرفى إلى المدعو ميكل أنجيلو أن الكردنال المبجل سيؤدى الأجر حسب المواد المدونة المبينة فى هذا العقد[٢٧] .

وإنا لنجد بعض العيوب فى هذه المجموعة الرائعة من صورة الأم العذراء التى تمسك بابنها الميت فى حجرها : فالثياب فيها تبدو كثيرة مسرفة فى الكثرة ، ورأس العذراء صغير لا يتناسب مع جسمها ، وهى تمد يدها اليمنى فى حركة لا تناسبها ، ووجهها وجه امرأة فى مقتبل العمر لا يشك أحد فى أنها أصغر من ابنها . ويقول كنديفى Condivi إن ميكل أنجيلو رد على هذه الشكوى الأخيرة بقوله :

ألا تعلمون أن النساء الطاهرات يحتفظن بنضرتهن أكثر مما يحتفظ بها غير الطاهرات منهن ؟ وأكثر ما يكون هذا فى حالة عذراء لم تتسرب إلى قلبها فى يوم من الأيام شهوة يمكن أن يتأثر بها الجسم ! بل إنى لأذهب إلى أبعد من هذا فأجازف بالاعتقاد بأن نضرة الشباب الطاهرة ، التى احتفظت بها لأسباب طبيعية ، ربما فاضت عليها لتقنع العالم بأن الأم عذراء طاهرة إلى غير أجل محدود[٢٨] .

ذلك خيال يبعث فى النفس السرور خليق بأن نغفر لصاحبه ما فيه من بعد عن المعقول ، ولا يلبث معه الإنسان أن يألف الوجه الظريف ، الذى لا تمزقه الآلام ، والهادئ فى حزن صاحبته وألمها ، كما يألف صورة الأم المستسلمة لإرادة الله ، والتى يعزيها عن آلامه أن تحتفظ

فى تلك اللحظات الأخيرة بالجسم العزيز الذى طهر من جراحه ، وتحرر من عوامل حقده ؛ يرقد فى حجر المرأة التى حملت به ولم يفارقه جماله حتى فى ساعة موته . وإنا لنجد فى هذه المجموعة الساذجة كل ما تتضمنه الحياة من لباب ، ومآس ، وفداء ! نجد فيها سلسلة التوالد التى تخلد بها المرأة حياة الجنس البشرى ، ونجد فيها الموت الذى لا مفر منه والذى هو العقاب المحتوم لكل مولد ؛ والحب الذى يسمو بالفناء بما يخلعه عليه من رحمة وحنان ويتحدى كل موت بمولد جديد . ولقد كان فرانسس الأول محقاً حين قال إن هذه الصورة هى أجمل ما أبدعه ميكل أنجيلو على الإطلاق(٢٩) ؛ ذلك أنها لم يخرج أحسن منها فان آخر فى تاريخ النحت كله ، ولربما جاز لنا أن نستثنى من هذا التعميم الفنان اليونانى غير المعروف الذى نحت تمثال دمتر المحفوظ فى المتحف البريطانى .

ولم يكن نجاح بيبتا سبباً فى شهره ميكل أنجيلو فحسب — وهى شهرة خليقة بأن يستمتع بها كل إنسان ، بل إن هذا النجاح قد در عليه المال الكثير الذى كان أهله على استعداد لأن يستمتعوا معه به . ذلك أن أباه قد فقد بسبب سقوط آل ميديتشى المنصب الصغير الذى حباه به لورندسو الأكبر ؛ وكان الأخ الأكبر لميكائيل قد دخل أحد الأديرة ، وأما الأخوان الصغيران فكانا فتيين مسرفين ، وبذلك أصبح ميكائيل عماد تلك الأسرة ؛ وكان يشكو من هذه الحال التى فرضتها عليه الظروف ولكنه كان كريماً سخياً مع أسرته .

وأكبر الظن أن اضطراب أحوال أسرته المالية هو الذى دعاه إلى فلورنس ، فعاد إليها فى عام ١٥٠١ حيث عهد إليه فى شهر أغسطس من ذلك العام نفسه بعمل فذ . ذلك أن مجلس الأعمال (الأپراى Operai) فى كتدرائية المدينة كان يملك كتلة كبيرة من رخام كراراً ارتفاعها ثلاث عشرة قدماً ونصف قدم ، ولكنها ظلت مطروحة على الأرض لا ينتفع بها

مائة عام كاملة لعدم انتظام شكلها . وسأل المجلس ميكل أنچيلو هل يستطاع نحت تمثال منها ، فوافق على أن يحاول ذلك ، ووقع معه مجلس الكنيسة ونقابة الصوف عقد القيام بالعمل وقد جاء فيه :

إن الأستاذ الجليل ميكل أنچيلو . . . قد اختير لكى يصور ، ولينجز ويتم إلى حد الكمال تمثالا لرجل وهو التمثال المسمى الضخم Il gigante والذى يبلغ ارتفاعه تسع أذرع . . . على أن يتم العمل فى خلال عامين يبدآن من شهر سبتمبر ، وأن يتقاضى مرتباً قدره ستة فلورينات فى الشهر ، وأن يمده المجلس بما يحتاجه لإنجاز هذا العمل ، والخشب وما إلى ذلك ؛ وحين يتم صنع التمثال يقدر مستشارو النقابة ومجلس العمل . . . هل يستحق مكافأة أكثر ، على أن يترك هذا لذمتهم(٣٠) .

وظل المثال يكدح فى هذه المادة القاسية عامين ونصف عام ، حتى انتزع منها بجده وبطولته تمثال داود، وانتفع بكل إصبع من ارتفاعها ، ثم دعا مجلس العمل فى ٢٥ يناير سنة ١٥٠٤ مجلساً من كبار رجال الفن فى فلورنس ليقرروا أين يوضع التمثال الضخم كما كانوا يسمون تمثال داود . وكان المجتمعون هم كوزيمو روزيلى Cosimo Roselli ، وساندرو بتيتشلى ، وليوناردو داڤنتشى ، وجليانو وأنطونيو داسينجلو ، وفليبينولى ، وداڤد غرلنداير ، وپروچينو ، وچيوڤنى پفيرو Giovanni Piffero (والدتشلينى) ، وپيرو دى كوزيمو . ولم يتفق هؤلاء على المكان ، فتركوا ذلك آخر الأمر لميكل أنچيلو ، فطلب أن يقام التمثال على رصيف قصر ڤيتشيو ؛ ووافق مجلس السيادة على هذا الطلب ؛ ولكن عملية نقل التمثال الضخم من المصنع القريب من الكنيسة إلى القصر تطلبت أن يعمل فى ذلك أربعين رجلا أربعة أيام ؛ وكان لابد من تعلية أحد المداخل بهدم جدار فوقه كى يمر فيه التمثال ، وتطلب رفعه فى مكانه واحداً وعشرين يوماً أخرى . وظل

قائماً فى فراغ مدخل القصر المكشوف معرضاً للجو ، وعبث الأطفال ، وللثورة عليه ، ونقول للثورة لأنه كان بمعنى ما إعلاناً صريحاً للتقدمية المتطرفة ، ورمزاً للجمهورية الفخورة التى عادت إلى الوجود . وتهديداً صارماً للمغتصبين . ولما عاد آل ميديتشى إلى السلطة فى عام ١٥١٣ لم يمسوه بسوء ؛ ولكن لما قامت الثورة التى انتزعت السلطة منهم مرة أخرى (١٥٢٧) سقط عليه مقعد ألقى من إحدى نوافذ القصر فحطم ذراع التمثال اليمنى . وجمع فرانتشيسكو سالفياتى Francesco Salviati وچيورچيو ڤاسارى ، وكانا وقتئذ غلامين فى السادسة عشرة من العمر ، القطع المحطمة واحتفظا بها ، وضم عضو آخر من أسرة ميديتشى جاء فيما بعد ، وهو الدوق كوزيمو ، هذه الأجزاء وثبتها فى مكانها . وفى عام ١٨٧٣ نقل داود بعد جهد جهيد ، إلى مجمع الفنون الجميلة Accademea della Bell Arti بعد أن أثر فيه الجو فشوه معالمه . ولا يزال فيها يحتل مكان الشرف ، وهو أحب التماثيل إلى الشعب فى فلورنس .

لقد كان هذا العمل من أعمال البطولة ، وهو بهذا الوصف لا يمكن أن نوفيه حقه من الثناء ، تغلب فيه الفنان بحذق كبير على الصعاب الآلية ، وإذا ما حكم عليه الإنسان من ناحية الحاسة الجمالية استطاع أن يجد فيه بعض العيوب ! فاليد اليمنى أكبر مما ينبغى أن تكون ، والعنق مفرط فى الطول ، والساق اليسرى أطول فى جزئها التى تحت الركبة مما يليق ، والإلية اليسرى ليست متضخمة بالقدر الذى يجب أن تتضخم به أية إلية سليمة ، وكان پيروسادرينى رئيس الجمهورية يرى أن الأنف مفرط فى الضخامة ، ويروى ڤاسارى قصة — لعلها مختلقة — تقول إن ميكل أنجيلو صعد سلماً وهو يمسك فى يده بعض التراب ، وتظاهر بأنه سينحت قطعة من أنف التمثال ، وأن يتركه سليما كما كان ، ثم أسقط تراب الرخام من يده أمام رئيس الجمهورية ، وأن الرئيس آمن بعدئذ أن التمثال قد صلح . والأثر

العام الذى يحدثه التمثال فيمن ينظر إليه يقطع لسان كل نافذة ! فالهيكل الرائع ، الذى لم يضخمه ميكل أنجيلو كما ضخم التماثيل التى نحتها لأبطاله المتأخرين ، وبنية الجسم المصقول ، والمعارف القوية الرقيقة رغم هـــذه القوة ، والخياشيم المتوترة من الاهتياج ، والتجهم المنبعث من الغضب ، ومظهر العزيمة المشوبة بشىء من الحياة حين يواجه الشاب جالوت الرهيب ويستعد لملء مقلاعه والقذف به ــ كل هذه أشياء تجعل داود أشهر تمثال فى العالم كله إذا استثنينا من ذلك تمثالا واحداً لاغير (*) . ويرى ڤاسارى أنه « يفوق كل ما عداه من التماثيـــل قديمها وحديثها لاتينية كانت أو يونانية »(٣١) .

وأدت لجنة الكنيسة إلى ميكل أنچيلو أربعمائة فلورين أجراً لتمثال داود وإذا أدخلنا فى اعتبارنا انخفاض النقد فيما بين عامى ١٤٠٠ و ١٥٠٠ جاز لنا أن نقدر هذا المبلغ بما يقرب من ٥٠٠٠ دولار حسب قيمة النقد فى عام ١٩٥٢ . ويبدو أن هذا أجر قليل لعمل دام ثلاثين شهراً ، ونحن نظن أنه قام فى خلال تلك المدة بمهام أخرى . والحق أن المجلس ونقابة الحرف قد استخدماه أثناء عمله فى نحت تمثال داود فى نحت تماثيل أخرى ، يبلغ ارتفاع الواحد منها ست أقدام ونصف قدم ، للرسل الاثنى عشر كى توضع فى الكتدرائية ، وقد أمهل اثنتى عشرة سنة للقيام بهذا العمل ، واتفق على أن يؤدّى له فلورينان كل شهر ، وأن يبنى له بيت يقيم فيه من غير أجر . ولم يبق من هذه التماثيل الأخيرة إلا تمثال الرسول متى الذى لا يظهر إلا نصفه من الكتلة الحجرية كأنه تمثال من عمل رودين Rodin . وإذا نظرنا إليه فى مجمع فلورنسى العلمى أدركنا أحسن من ذى قبل ما كان يعنيه ميكل أنچيلو حين عرّف النحت بأنه الفن « الذى يعمل بقوة الانتزاع » ،

(*) يجب أن يكون هذا الاستثناء هو تمثال دومص اركتاير . ولكن أغلب الظن أن الناس يرون أنه تمثال الحرية المقام فى ميناء نيويورك .

وما قاله مرة أخرى فى إحدى قصائده : « إن مجرد إزالة السطح من الحجر الصلب الخشن يكفى لأن يخلق منه صورة تزيد وضوحاً كلما واصل الإنسان النحت(٣٢) » وكثيراً ما كان يقول عن نفسه إنه يبحث عن الصورة المخبوءة فى الحجر ، فيزيل سطحه كأنه يسعى للعثور على عامل منجم دفن تحت أنقاض الصخور الهاوية .

ونحت حوالى عام ١٥٠٥ لتاجر فلمنكى تمثال العذراء الجالسة فى كنيسة نتر دام فى بروج . وقد أثنى على هذا التمثال ثناء جماً ، ولكنه من أضعف ما أخرجته يد الفنان — فالثياب بسيطة تخلع على صاحبها الوقار ، ورأس الطفل لا يتناسب مطلقاً مع جسمه ، ووجه العذراء عابس حزين ، كأنها تحس أن كل ما وقع خطأ فى خطأ . وأعجب من هذا شكل العذراء فى الصورة الملونة التى رسمت (١٥٠٥) لأنجيلو دونى Angelo Doni . والحق أن ميكل أنجيلو لم يكن يعنى كثيراً بالجمال ، بل كان يهتم بالأجسام ؛ ويفضل منها أجسام الذكور ، وكان يمثلها فى بعض الأحيان بكل ما فى أشكالها الظاهرة من عيوب ، وفى أحيان أخرى لكى تنقل إلى الناس عظة أو فكرة ، ولكنه قلما يهدف إلى التقاط الجمال وحبسه فى الحجر الخالد . وهو فى هذه الصورة الأخيرة يسىء إلى الذوق السليم بوضعه صفاً من الشبان العارين على سور خلف العذراء . ولسنا نقصد بهذا أنه كان يتحول إلى النزعة الوثنية ، ، فهو يبدو مسيحياً مخلصاً بل قل متزمتاً ، غير أن افتتانه بالجسم الآدمى فى هذه الصورة قد تغلب على تقواه كما تغلب عليها فى صورة يوم الحساب . كذلك كان شديد الاهتمام بتشريح الأجسام فى أوضاعها المختلفة ، وفيما يحدث للأعضاء ، والأطراف ، والهيكل والعضلات حين يغير الجسم وضعه . فهنا مثلا تتكئ العذراء إلى الخلف ، لتتاقى ، فيما يبدو ، الطفل يسلمه لها القديس يوسف من وراء كتفها . والتمثال منحوت نحتا ممتازاً ولكن الصورة لا حياة فيها ، وتكاد تكون تصويراً خالياً من اللون ؛ وكثيراً

ما قال ميكل أنجيلو إن التصوير لم يكن هو العمل الذى يبرع فيه .

لهذا نعتقد أنه لم يغتبط قط حين دعاه سدرينى (١٥٠٤) ليرسم له نقشاً جدارياً فى ردهة المجلس الكبير بقصر ڤيتشيو ، بينا كان بغيضه ليوناردو دا ڤنتشي ينقش جداراً مقابلا له . وكان ميكل أنجيلو يبغض ليوناردو لأسباب كثيرة — لآدابه الأرستقراطية ، وثيابه الغالية التى يتباهى بها ، وأتباعه من الشبان الحسان ، ولعله كان يبغضه كذلك لأنه كان حتى ذلك الوقت أكثر منه نجاحاً وأوسع شهرة فى التصوير . ولم يكن أنجيلو واثقاً من أنه وهو المثال يستطيع أن ينافس ليوناردو فى التصوير ، ولكنه قرر أن يجرب حظه وكان ذلك دليلا على الشجاعة . وكانت الصورة التخطيطية الأوليه عبارة عن لوحة من الورق على قماش من التيل مساحتها ٢٨٨ قدماً مربعة . ولم يكد يتقدم بضع خطوات فى هذه الصورة التخطيطية حتى تاتى دعوة من رومة : ذلك أن يوليوس كان فى حاجة إلى أحسن المثالين فى إيطاليا كلها . واستشاط مجلس السيادة غضباً ، ولكنه سمح لميكل أنجيلو بأن يلبى الدعوة . ولعله هو لم يأسف لترك القلم والفرشاة ، والعودة إلى العمل المجهد الذى كان يحبه .

٢ — ميكل أنجيلو ويوليوس الثانى : ١٥٠٥ — ١٥١٣

وما من شك فى أنه قد أدرك لأول وهلة أنه سيكون من أشقى الناس مع يوليوس ، فقد كانا متماثلين إلى حد كبير . فكلاهما متقلب المزاج ذو أهواء ؛ والبابا متغطرس حاد الطبع والفنان مكتئب فخور . وكلاهما جبار فى روحه وهدفه ، لا يقر لغيره بالتفوق عليه ولا يتقبل التراضى أو النزول عن بعض مطالبه يتنقل من هدف عظيم إلى آخر مثله ، ويطبع شخصيته على زمنه ويجد ويكدح بنشاط جنونى إلى حد خيل إلى الناس بعد وفاتهما أن إيطاليا قد خارت قواها فلم تبق لها جهود .

وسار يوليوس على السنة التى جرى عليها الكرادلة من زمن بعيد ، فأراد أن ينشئ لعظامه تابوتا يشهد حجمه وفخامته بما كان له من عظمة ويخلدها للأجيال الطويلة من بعده . وكان ينظر بعين الحسد إلى القبر الجميل الذى فرغ أندريا سان سوڤينو Andrea Sansovino تواً من نحته للكردنال أسكانيو اسفوردسا Ascanio Sforza فى كنيسة سان ماريا دل پوپولو . وعرض ميكل أنجيلو أن يكون هذا القبر أثراً ضخماً طوله سبع وعشرون قدماً وعرضه ثمان عشرة ، يزينه أربعون تمثالا : يرمز بعضها إلى الولايات البابوية التى استردت ، ويمثل بعضها فنون التصوير . والهندسة المعمارية ، والنحت ، والشعر ، والفلسفة ، واللاهوت — أسرها كلها البابا القوى الذى لا تقف قوة ما أمام سلطانه ؛ وترمز تماثيل أخرى إلى أسلافه الكبار كموسى مثلا ، ومنها اثنان يمثلان ملكين ، أحدهما يبكى لانتقال يوليوس من الأرض ، والآخر يبتسم لدخوله الجنة ، وفى أعلى هذا النصب الضخم ينشأ تابوت جميل تحفظ فيه رفات البابا المتوفى . واقترح أن تنقش على أوجه هذا النصب نقوش من البرنز تروى جلائل أعمال البابا فى الحرب ، والحكم ، والفن . وكان فى النية إقامة هذا كله عند منبر كنيسة القديس بطرس ، وكان هذا المشروع يتطلب كثيراً من أطنان الرخام ، وآلاف الدوقات ، ويحتاج نحته إلى عدد كبير من السنين تقتطع من حياة المثال . ووافق يوليوس على المشروع ، وأعطى أنجيلو ألفى دوقة ليبتاع بها الرخام المطلوب ، وأرسله إلى كرارا وأمره أن يختار منها أحسن عروق الرخام ، وأبصر ميكل وهو فيها تلا مطلا على البحر ، وفكر فى أن ينحت هذا التل نفسه فى صورة إنسان ضخم ، إذا أضيء من أعلاه كان منارة يهتدى بها الملاحون من بعيد ؛ غير أن قبر يوليوس أعاده مرة أخرى إلى رومة . ولما وصلها ما اشتراه من الرخام ، ووضع فى كومة كبيرة بالقرب من مسكنه بجوار كنيسة القديس بطرس ، عجب الناس

من ضخامة حجمه وكثرة ما ابتيع به من المال ، وابتهج لذلك قلب يوليوس .

لكن المسرحية استحالت إلى مأساة . ذلك أن برامنتي كان يحتاج إلى المال ليشيد به كنيسة القديس بطرس الجديدة ، فكان ينظر شزرا إلى هذا المشروع الضخم ؛ هذا إلى أنه كان يخشى أن يحل ميكل أنجيلو محله فيصبح فنان البابا المقرب إليه ، ولهذا استعان بنفوذه على تحويل أموال البابا وحماسته إلى غير طريق الضريح المقترح . وكان يوليوس نفسه يعد العدة لشن الحرب على پروچيا وبولونيا (١٥٠٦) ؛ ورأى أن الحرب تتطلب الكثير من المال ، وأن الضريح يمكن أن يؤجل حتى تسود السلم . ولم يكن أنجيلو في هذه الأثناء قد أعطى مرتبه ، وكان قد أنفق في شراء الرخام كل ما أعطاه يوليوس من المال مقدما ، وأنفق من ماله الخاص ما يحتاجه لتأثيث البيت الذي أعده له البابا . ولهذا ذهب إلى قصر الفاتيكان في يوم سبت النور من عام ١٥٠٦ يطلب المال ، فقيل له إن عليه أن يعود في يوم الاثنين التالي ؛ فلما عاد قيل له أن يجيء في يوم الثلاثاء . وأجيب هذا الجواب نفسه في أيام الثلاثاء ، والأربعاء ، والخميس ؛ ولما جاء يوم الجمعة طرد وقيل له في غلظة إن البابا لا يحب أن يراه . فعاد إلى منزله وكتب إلى يوليوس الرسالة التالية :

أيها الأب المبارك : لقد طردت اليوم من القصر بناء على أوامرك ؛ ومن أجل هذا أبلغك أنك إذا احتجت إلى بعد هذه الساعة فعليك أن تطلبني في غير رومة(٢٣) .

وأمر ميكل أن يباع ما اشتراه من أثاث لبيته . وركب الجواد إلى فلورنس ، فلما بلغ پجبنسي Poggibonsi لحقه بعض الرسل ، ومعهم رسالة من البابا يأمره فيها أن يعود من فوره إلى رومة . وإذا كان لنا أن نصدق روايته هو (ولقد كان رجلا غاية في الصدق والأمانة) فإنه رد على البابا بقوله إنه لن يعود إلا إذا وافق البابا على أن يوفي بالشروط التي تعاهدا عليها لبناء الضريح ، ثم واصل السير إلى فلورنس .

وهناك عاد إلى العمل فى الرسم التمهيدى لمعركة بيزا . ولم يختر لموضوعه حرباً حقيقية بالذات ، ولكنه اختار لها اللحظة التى دعى فيها فجاءة الجند الذين كانوا يسبحون فى نهر الآرنو إلى القتال . ذلك بأن ميكل لم يكن يهتم بالمعارك ، بل كان يرغب أن يدرس ويصور أجسام الرجال العارية فى كل وضع من الأوضاع ؛ وقد أتاح له هذا الموضوع فرصته المرتقبه ، فقد أظهر رجالا يخرجون من النهر ، وآخرين يخرجون لأخذ أسلحتهم ، وغيرهم يحاولون أن يلبسوا جوارب فى سوقهم المبتلة ؛ وبعضهم يقفزون أو يركبون الخيل ، وبعضهم يعدلون دروعهم ، وآخرين يجرون إلى المعركة عرايا كما ولدتهم أمهاتهم : ولم يكن فى هذه الصورة منظر طبيعى خلفى ، لأن ميكل أنجيلو لم يكن يعنى قط بالمناظر الطبيعية ، أو بشىء ما فى الطبيعة عدا الأجسام البشرية . ولما أتم الصورة التمهيديةو ضعها إلى جانب صورة ليوناردو فى بهو البابا فى كنيسة سانتا ماريا نوفلا ، وظلت الصورتان المتنافستان فيها مدرســـة يتلقى منها دروساً فى التصوير مائة من الفنانين أمثال أندريا دل سارتو ، وألنسو بيرجويتى **Alonso Berruguete** ورفائيل ، وياقوبو سان سنوڤينو **Iacopo San Sanovino** ، وپيرينو دل ڤاجا **Perino del Vaga** ، ومائة غيرهم . ونقل تشيلنى **Cellini** صورة ميكل أنجيلو التمهيدية حوالى عام ١٥١٣ ، ووصفها وصف الشاب المتحمس بقوله إنها : « بلغت من الروعة درجة ليس فى كل ما بقى من آيات الفن القديم أو الحديث ما يرقى إلى الذروة التى سمت إليها . ولم يصل ميكل أنجيلو القدسى أيام تقواه فيما بعد إلى نصف الذروة من القوة التى وصل إليها فى هذه الصورة ، وإن كان قد أتم معبد سستينى العظيم »(٣٤) .

تلك مبالغة لا نقول بها نحن . إن الصورة نفسها لم ترسم الرسم النهائى ، والرسم التمهيدى قد فقد ، ولم يبق من النسخ التى نقلت عنه إلا قطع صغيرة . وبينا كان ميكل أنجيلو يعمل فى الرسم التمهيدى بعث البابا يوليوس بالرسالة

تلو الرسالة إلى مجلس السيادة فى فلورنس ، يأمره فيها بأن يعيده إلى رومة . وكان سدرينى يحب الفنان ويخشى عليه إذا عاد إلى رومة ، فأخذ يحاور ويداور ؛ حتى إذا جاءته الرسالة الثالثة من البابا ، رجا أنجيلو أن يلبى الأمر ، وقال إن عناده يعرض السلام بين فلورنس والبابا للخطر . وطلب أنچيلو أن يعطى ضماناً بسلامته يمضيه كردنال فلتيرا Volterra . وحدث فى أثناء هذا الأخذ والرد أن استولى يوليوس على بولونيا (نوفمبر سنة ١٥٠٦) ؛ فلما تم له ذلك أرسل إلى فلورنس أمراً باتاً صريحاً يطلب فيه قدوم ميكل أنچيلو إلى بولونيا للقيام بعمل هام . وعبر ميكل مرة أخرى ثلوج الأپنين مسلحاً برسالة من سدرينى إلى يوليوس يرجو فيها البابا « أن يظهر له حبه ، وأن يعامله بالحسنى » . غير أن يوليوس قابله وهو عابس مقطب الوجه ، وأخرج من الحجرة أسقفا جرؤ على أن يؤنب الفنان على عدم امتثاله أمر البابا ، وعفا عن أنچيلو بألفاظ خشنة غليظة ، وعهد إليه بمهمة تتفق مع ما جبل عليه البابا من الصفات فقال : « أريد منك أن تجعل تمثالى ضخماً وأن تصبه من البرنز ، وأنا أريد أن أقيمه على واجهة سان پترونيو »[٣٥] . وسر ميكل أن يعود إلى فن النحت ، وإن لم يكن واثقاً من قدرته على أن ينجح فى صب تمثال لشخص جالس يبلغ ارتفاعه أربع عشرة قدماً . وخص يوليوس هذا العمل بأربعة آلاف دوقة ، ولكن ميكل أبلغه فيما بعد أنه أنفق المبلغ جميعه عدا أربعة دوقات فى شراء المواد اللازمة للعمل ، وبذلك لم ينل جزاء له على كدحه سنتين كاملتين فى بولونيا سوى هذا الجزاء الضئيل وكان العمل شاقاً موئساً لا يقل فى ذلك عن الجهد الذى وصفه تشيلينى والذى تطلبه صب تمثال برسيوس وإقامته فى شرفة لكنيسة ؛ فقد كتب هذا المثال إلى أخيه بونروتو Buonarroto يقول : « إنى أكد ليلا ونهاراً ؛ وإذا اضطررت إلى أن أبدأ العمل كله من جديد ، فلست أظن أن حياتى تطول حتى أتمه »[٥٦] . وأقيم التمثال فى مكانه فوق المدخل الرئيسى للكنيسة فى شهر فبراير من عام ١٥٠٨ ؛ وعاد ميكل إلى فلورنس فى شهر مارس ،

وأكبر الظن أنه كان يتمنى ألا يرى يوليوس مرة أخرى . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت صهر التمثال كما سبق القول لتصنع منه مدافع .

ولم يكد يفرغ من العمل حتى استدعاه البابا فرجع إلى رومة ؛ وساءه أن يعرف أن يوليوس لا يرغب فى نحت الضريح العظيم ، بل يطلب إليه أن ينقش معبد سكستس الرابع . وتردد ميكل فى أن يواجه مشكلاتى المنظور والتناسب والتصغير فى نقش سقف يعلو فوق الأرض ثمانى أقدام وستين قدماً ؛ فاحتج مرة أخرى بأنه مثال لا مصور ، وأوصى باستخدام رفائيل فى هـــذا العمل لأنه أجدر به منه . ولكن البابا لم يأبه لوصيته . وأخذ يوليوس يأمره ويتملقه ، ويتعهد بأن يؤجره ثلاثة آلاف دوقه (٣٧ر٥٠٠ ؟ دولار) . وكان ميكل يخشى البابا ويحتاج إلى المال ؛ فقبل المهمة الشاقة التى لا توافق هواه ، وهو كاره يردد قوله : « ليست هـــذه صناعتى » . وبعث إلى فلورنس يطلب خمسة مساعدين مدربين على الرسم ، وأنزل المحالات السمجة التى نصبها برامنتى ، وأقام محالاته مكانها ، وبدأ العمل ، فأخذ يقيس ويرسم السقف الذى تبلغ مساحته عشرة آلاف قدم مربعة ، ووضع الخطة العامة ورسم الصور التمهيدية لكل جزء من أجزائه ، بما فى ذلك البندريلات ؛ والحلى البارزة والهلالية . وقدر عدد الأشكال كلها بثلثمائة وثلاثة وأربعين شكلا ؛ وقام بدراسات أولية كثيرة بعضها دراسات للأحياء . ولما تم إعداد الرسم التمهيدى الأخير حمل فوق المحالات ووضع فى السقف ؛ متجهاً بوجهه إلى الخارج ملتصقاً بالسطح الذى طلى حديثاً بالجص ، كل جزء منه فى المكان المقابل له . ثم حفرت خطوط فى الجص من فوق الرسوم ، ورفعت بعدئذ الصور التمهيدية ، وبدأ يلون الرسوم .

وظل أنچيلو يعمل فى سقف سستينى أكثر من أربع سنين — من مايو ١٥٠٨ إلى أكتوبر ١٥١٢ . ولم يكن العمل يدوم بلا انقطاع ، فقد كانت تتخلله فترات تطول وتقصر يقف فيها ؛ حال ذلك الفترة التى ذهب

فيها إلى بولونيا ليلح على يوليوس فى طلب المال : ولم يكن يعمل وحده ، فقد كان له معاونون يطحنون الألوان ، ويعدون الجص ، ولعل منهم من كان يرسم أو يلون بعض الأشكال الصغيرة . وإن بعض المظلمات لتدل على أنها من صنع أيد أقل من يديه حذقا . ولكن الفنانين الخمسة الذين استدعاهم إلى رومة سرعان ما فصلوا من العمل ؛ ذلك أن طراز أنچيلو فى التفكير ، والتخطيط ، والتلوين ، كان يختلف عن طرازهم وعن تقاليد فلورنس اختلافاً رأى معه أنهم يعطلونه أكثر مما يعينونه . هذا إلى أنه لم يكن يعرف كيف يتوم بالعمل مع غيره من الأعوان ، وكان من أسباب سلواه ، وهو فوق المحالات أنه بمفرده يستطيع أن يفكر وهو هادئ وإن يكن وهو متألم ، ويستطيع أن يحقق بشخصه قول ليوناردو : « إن كنت وحدك كان لك السلطان الكامل على نفسك » . وزاد يوليوس الصعاب الفنية بصعاب خلقها بنفسه ، وذلك بتعجله إتمام العمل العظيم وإظهاره للناس . فى وسع القارئ أن يتصور البابا الشيخ ، يصعد الإطار الواهن الذى نصب ليؤدى إلى مكان الفنان ، ثم يبدى له إعجابه ويسأله فى كل مرة : « متى ينتهى العمل ؟ » فيكون الجواب درساً فى الشرف والاستقامة : سينتهى حين أفعل كل ما أعتقد أن الفن يتطلبه ويرتضيه »[٣٧] فيرد عليه يوليوس مغضباً : « أتريد أن أقذف بك من فوق هذه المحالة ؟ » [٣٨] . ويخضع أنچيلو فيما بعد لإلحاح البابا واستعجاله فأنزل المحالات قبل أن يصقل العمل الصقل الأخير . وفكر يوليوس وقتئذ فى أن من الواجب أن يضاف قليل من الذهب إلى هذا المكان أو ذاك ، ولكن الفنان المتعب أقنعه بأن الزخارف الذهبية لا تليق بصور الأنبياء أو الرسل . ولما نزل ميكل عن المحالة آخر مرة ، كان منهوك القوى هزيل الجسم ، شيخاً قبل الأوان . وتقول إحدى القصص إن عينيه لم تكونا تقويان على مواجهة ضوء الشمس لطول ما اعتادتا من الضوء الضعيف فى المعبد[٣٩] ، كما تقول قصة أخرى إن القراءة وهو ناظر

إلى أعلى كانت وقتئذ أيسر له من أن يقرأ وهو يمسك الصفحة تحت عينيه(٤٠).

وكانت الخطة الأولى التى أرادها يوليوس لنقش السقف لا تزيد على تصوير طائفة من الرسل ، ولكن ميكل أنجلو حمله على أن يقبل بدلها خطة أوسع وأكثر نبلا . ونتيجة لهذا قسم ميكل القبة المحدبة إلى ما يزيد على مائة لوحة بأن صور فيها عمداً تتخللها حليات ، وزاد من خداع الأبعاد الثلاثة بإضافة صور لشبان أقوياء يرمقون الأطناف أو يجلسون على تيجان العمد . وصور أنجيلو على اللوحات الكبرى الممتدة على طول قمة السقف حوادث من سفر التكوين : عملية الخلق الأولى تفصل بين الضوء والظلمة ؛ والشمس ، والقمر ، والكواكب تنشأ وتتكون بأمر الخالق الأعظم الذى صور على هيئة إنسان مهيب جليل ، صارم الوجه ، قوى الجسم ، ذى لحية وأثواب تهفهف فى الهواء . وفى لوحة أخرى تمتد اليد اليمنى لله العلى الأعلى ، وهو هنا أجمل شكلا وملامح مما هو فى الصور السابقة ، ليخلق آدم ، ويمسك بيده اليسرى ملكاً جميل الصورة . وتعد هذه اللوحة أروع ما صوره ميكل أنجيلو . وفى صورة ثالثة يُخرِج الله ، وهو الآن رب أكبر فى السن تبدو عليه سمات الأبوة ، حواء من ضلع آدم ؛ ويأكل آدم وحواء فاكهة الشجرة المحرمة ، ويطردان من الجنة . ويُعد نوح وأبناؤه قرباناً يقربانه لله ويعلو الطوفان ؛ ويحتفل نوح بعيد من الأعياد يُشرب فيه كثير من الخمر . وكل ما فى هـــذه اللوحات مأخوذ من كتاب العهد القديم ، وكله من القصص العبرى ، ذلك أن ميكل أنجيلو من أتباع الأنبياء الذين ينذرون بآخرة العالم ، وليس من المبشرين الذين ينشرون إنجيل الحب .

وصور أنجيلو فى البندريلات التى فوق كل عقد من اثنين من العقود صوراً رائعة لدانيال ، وإشعيا ، وزكريا ، ويوئيل ، وحزقيال ، وإرميا ، ويونان . أما السندريلات الأخرى فقد صور فيها المتنبآت الوثنيات

اللاتى يعتقد الناس أنهن بشرن بالمسيح : سيبيل اللوبية الرشيقة ، تمسك فى يدها كتابا مفتوحا يتحدث عن المستقبل ؛ وسيبيل القومائية المكتئبة ، الشقية ، القوية ؛ والمتنبئة الفارسية ، العالمة ، ومتنبئة دلفى ، ومتنبئة أرثريا ؛ تلك هى الرسوم الملونة التى تضارع تماثيل فيدياس ؛ فالحق أن الإنسان ليظن أن هذه كلها تماثيل لا صوراً ملونة ؛ وأن ميكل أنجيلو قد جند للعمل فى فن غريب عليه ، فأحاله إلى الفن الذى يوائمه . واحتفظ الفنان فى المثلث الكبير الذى فى نهاية السقف ، وفى مثلثين آخرين فى النهاية الأخرى بموضوعات العهد القديم ، بالحية الفظة فى البيداء ، وبانتصار دواد على جالوت ، وبشنق هامان ، وبقتل يهوديت لهلوفرينس . ثم صور أنجيلو فى آخر الأمر مناظر يوضح فيها نسب مريم والمسيح ، وكأنه فعل هذا بعد أن عاد مرة ثانية إلى التفكير يريد أن يذعن لأمر غير راغب فيه .

وليس فى هذه الصور كلها صورة تضارع فى فكرتها ، أو رسمها ، أو تلوينها ، أو طريقتها الفنية صورة مدرسة أثينة لرفائيل ؛ ولكنها إذا نظر إليها فى مجموعها كانت أعظم عمل قام به أى فنان فى تاريخ التصوير كله . ذلك أن الأثر الكلى الناشئ من تكرار التفكير وشدة العناية يفوق كثيراً الأثر الذى ينطبع فى الذهن إذا ما نظر الإنسان إلى الحجرات . ففى صورة رفائيل نحس بالكمال الفنى الذى وفق فيه صاحبه كل التوفيق ، ونرى اجتماع التفكير الدينى والمسيحى فى وداعة ورقة ؛ أما فى صورة أنجيلو فلسنا ندرك فقط الدقة العظيمة فى مراعاة الأصول الفنية التطبيقية — المنظور ، وطول الأشكال وقصرها ، واختلاف المواقف والأوضاع اختلافا يضارع سواه ؛ بل ندرك فوق هذا قوة العبقرية وأثرها فى نفوسنا ، العبقرية التى تكاد تبلغ من القدرة على الخلق ما تبلغه صورة الله جل شأنه ، التى تهب عليها الريح وهى ترفع آدم عن ظهر الأرض .

وهنا أيضاً أطلق ميكل أنجيلو العنان لعاطفته المسيطرة عليه ، فجعل

موضوع فنه وهدفه الذى يبتغيه هو الجسم الأدمى ؛ وإن كان المكان الذى يعمل فيه هو مصلى البابوات ، ولقد كان ، كما كان اليرنان الأقدمون ، أقل عناية بالوجه وما ينطق به ، منه بالجسم كله مجتمعا . وإنا لنجد فى سقف ستينى نحو خمسين من الذكور العارين وعدداً قليلا من النساء العاريات ؛ وليس فيه مناظر طبيعية ، ولا نباتا إلا فى صورة خلق النبات ، ولا نرى فيه نقوشا من الطراز العربى ؛ وفيه يصبح الجسم الآدمى ، كما هو فى مظلمات سنيوريلى فى أرڤينو ، الوسيلة الوحيدة للزخرف كما هو الوسيلة الوحيدة لتمثيل المعانى والأفكار المجردة . وكان سنيوريلى المصور الوحيد ، كما كان ياقوپو دلا كويرتشيا Jacopo della Quercia المثال الوحيد ، الذى عنى ميكل أنجيلو بالأخذ عنه والتعلم منه . وشاهد ذلك أن كل بقعة صغيرة فى السقف خلت من تصميم الصورة العامة قد شغلت بصورة إنسان عار ، لا يعنى فيها بالجمال بقدر ما يعنى بالقوة والجسم الرياضى . وليس فى هذه الصور ما يوحى بالغريزة الجنسية ، بل الذى فيها هو الكشف الدائم عن الجسم الآدمى بوصفه أعلى ما يتجسم فيه النشاط ، والحيوية ، والحياة نفسها . ولقد احتج بعض ذوى النفوس الضعيفة الحائرة كثرة ما فى بيت الله من الأجسام العارية ، ولكننا لانجد فى السجلات ما يدل على أن يوليوس اعترض عليها ؛ ذلك لأن البابا كان واسع الأفق فى تفكيره بقدر ما كان واسعا فى عدوانه ؛ وكان يدرك عظمة الفن حين تقع عليها عينه . ولعله كان يفهم أنه لم يخلد اسمه بالحروب التى انتصر فيها ، بل خلده بأن أطلق العنان للنزعة القدسية ، القوية ، العجيبة ، التى كانت تضطرب فى نفس أنجيلو فاستطاعت أن تلهو فى قبة مصلى البابا .

ومات يوليوس بعد أربعة أشهر من إتمام نقوش سقف سستينى ؛ وكان ميكل أنجيلو وقتئذ يقترب من ذكرى مولده الثامن والثلاثين ؛ وكان قد حمل لواء المثالين الإيطاليين جميعهم بتمثالى داود وپيتا ، أما بهذا

السقف فقد ضارع فن التصوير رفائيل أو بزه ؛ وكأنه لم يبق أمامه عالم آخر يفتحه ؛ وما من شك فى أن أحدا من الناس ، حتى هو نفسه ، قلما كان يظن أنه سيعيش من الزمن أكثر من خمسين سنة أخرى ، وأن أشهر صوره ، وأكثر تماثيله نضوجا ، لم تخرج إلى الوجود بعد . وقد حزن لوفاة البابا العظيم ، ولم يكن يدرى هل يولع ليو بغريزته بالفن النبيل كما كان يولع به يوليوس ؛ ولهذا أوى إلى مسكنه يترقب ماله فى ذمة المستقبل .

الباب الثامن عشر

ليــــو العاشر

١٥١٣ – ١٥٢١

الفصل الأول

الكردنال الغـــلام

إن البابا الذى خلع اسمه على عصر من أزهى العصور وأكثرها خلوداً فى تاريخ رومة ليدين بتاريخه الكنسى إلى ما كان لأبيه من دهاء سياسى وخطط سياسية بارعة ، ذلك أن سكستس الرابع كاد يقضى على لورندسو ده ميديتشى ، وكان لورندسو هذا يرجو أن يعلو سلطان أسرته وأن يكون أبناءه وحفدته آمنين على أنفسهم ومراكزهم فى فلورنس إذا كان أحد أبناء هذه الأسرة من بين أعضاء مجمع الكرادلة ، يشغل مكاناً فى الدوائر الداخلية للكنيسة . ولذلك أخذ يعد ابنه الثانى چيوڤنى للمنصب الكنسى وكاد يفعل به هذا منذ مولده . ولما بلغ الغلام العاشرة من عمره (١٤٨٢) حلق شعر يافوخه(*) ، وما لبث أن نفح بمناصب ذات أجر من غير عمل ؛ فقد عين وصياً على بعض أملاك الكنيسة ، على أن يكون له الفائض من ريعها . وفى السنة الثامنة عين رئيساً لدير فون دوس Font Douce فى فرنسا ؛ وفى سن التاسعة كانت له رياسة دير پاسنيانو Passignano ذات الإيراد الضخم ،

(*) كان هذا فى طقوس الكنيسة الكاثوليكية تمهيداً للتعيين فى المناصب الكنسية .
(المترجم)

وفى الحادية عشرة كان رئيساً لدير مانتى كسينو ذى الذكريات التاريخية ؛ وقبل أن يختار چيوڤنى للجلوس على عرش البابوية كان قد اجتمع له ستة عشر من هذه المناصب(١) . وقد عين وهو فى سن الثامنة كبيراً للموثقين البابويين ، ثم عين كردنالا فى سن الرابعة عشرة(*) .

وقد زود هذا الحبر بكل ما يتاح لأبناء الواسعى الثراء من ضروب التربية والتعليم ؛ فنشأ بين العلماء ، والشعراء ؛ ورجال الحكم ، والفلاسفة . وعين مارتشليو فتشينو Marcilio Ficino مربياً له ، وتعلم اللغة اليونانية على دمتريوس كلكنديلس Demetrius Chalconbylese ، والفلسـفة على برناردو دا بيبينا Bernardo Bibbiena الذى أصبح فيما بعد أحد كرادلته . وأشرب ، مما فى قصر والده وما حوله من مجموعات فنية ومن حديث حول الفن ، حب الجمال الذى كاد يكون له ديناً حينما نضجت سنه . ولعله قد أخذ عن والده سخاءه العظيم وعدم مبالاته بالمال ، كما أخذ عنه حياته المرحلة ، التى تكاد تكون أبيقورية ، وهاتان الصفتان هما اللتان امتازت بهما حياته وهو كردنال وكذلك وهو بابا ، وكانت لهما آثار بعيدة المدى فى العالم المسيحى . ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره التحق بالجامعة التى أنشأها والده فى پيزا ، وظل فيها ثلاث سنين يدرس الفلسفة واللاهوت ، والقانون الكنسى والمدنى . ولما بلغ السادسة عشرة سمح له علناً بأن ينضم إلى مجمع الكرادلة فى رومة ؛ وقد بعثه إليه لورندسو (١٢ مارس من ١٤٩٢) مزوداً برسالة تعد من أكثر الرسائل طرافة فى التاريخ .

من واجبك ومن واجبنا جميعاً نحن الذين يهتمون بمصلحتك أن نعتقد أن الله قد حبانا بعنايته ؛ وليس ذلك لما أفاضه على بيتنا من النعم ومظاهر التبجيل والتكريم فحسب ، بل لأنه فضلا عن هذا وأعظم منه قد أسبغ

(*) يجب أن نذكر أنه كان فى وسع الشخص أن يكون كردنالا دون أن يكون قسا ، وأن الكرادلة كانو يختارون لمقدرتهم السياسية ؛ وصلاتهم لا لصفاتهم الدينية .

علينا ، فى شخصك أنت ، أعظم ما استمتعنا به الآن من عز وكرامة .
وهذه النعمة التى أنعمها علينا ، والتى هى فى حد ذاتها من أجل النعم ، لتزيد من قدرها ما يصاحبها من الظروف ، وخاصة ما كان منها متصلا بشبابك وبمكانتنا نحن فى العالم . ولهذا فإن أول ما أعرضه عليك ، هو أنه ينبغى لك أن تسبح بحمد الله ، وأن تذكر على الدوام أن كل ما نالك من خير ليس مرده ما تتصف به من فضائل ، أو فطنة ، أو حسن تدبير ، بل إن مرده هو فضل الله عليك ، وهو دين لا تستطيع أن توفيه إلا بالتقوى والعفة ، وأن تجعل حياتك مثلا يحتذى . وإن ما يفرضه عليك أداء هذا كله من واجبات ليزداد ويعظم لأنك قد بانت عليك فى سنيك المبكرة مخايل تدل على أن العالم سيجنى منك هـذه الثمار الطيبة متى نضج عقلك وجسمك . . . فاعمل إذن على أن تخفف العبء الملقى على كرامتك المبكرة ، بالتزام النظام فى حياتك ، وبمثابرتك على دراسة العلوم التى تؤهلك لمنصبك . واشد ما سرنى إذ علمت أنك فى خلال العام المنصرم ، قد أكثرت من تناول العشاء الـ... ومن الاعتراف ، وأنك فعلت هذا من تلقاء نفسك . ولست أعتقد أن ثمة طريقة ينال بها رضاء الله خيرا من أن تعتاد أداء هذه الواجبات وأمثالها . . .

وإنى لأعلم حق العلم أنك ، وأنت تقيم الآن فى روما بؤرة المظالم والشرور جميعها ، ستزداد فى وجهك الصعاب حين تحاول أن تأخذ نفسك بالتزام هذه النصائح . نعم إن تأثير القدوة الطيبة لايزال منتشراً قائما لم تدرس معالمه ، ولكنك ستلتقى فى أكبر الظن ، بأقوام يحاولون جهدهم إفساد خلقك وإغراءك بارتكاب الإثم ؛ ذلك أنه ليس بخاف عليك أن ما بلغته من مكانة سامية فى هذه السن المبكرة قد جر عليك حسد الحاسدين ؛ وأن الذين عجزوا عن أن يحولوا بينك وبين هذه المكانة السامية لن يدخروا وسعاً فى الحط منها وذلك بإغرائك على أن تأتى من الأعمال ما تفقد به تقدير

الشعب لك ، فيدفعونك بهذا إلى الهاوية التى ترددوا هم فيها ، ولهم فى شبابك ما يغريهم ويؤكد لهم فى ظنهم أنهم لا شك ناجحون فيما يحاولون . فحصن نفسك إذن لملاقاة هذه الصعاب بكل ما تستطيع من قوة العزيمة ، لأن الفضائل لا تزال فى هذه الأيام ضعيفة الشأن بين إخوانك فى مجمع الكرادلة . ولست أنكر بطبيعة الحال أن من بينهم رجالا صالحين ، أوتوا قسطاً كبيراً من العلم والمعرفة ، يضربون بحياتهم أحسن الأمثلة لغيرهم من الناس ، وأنا أوصيك بأن تتخذ هؤلاء قدوة لك ، وأن تسلك فى حياتك مسالكهم ، فأنت إذا حذوت حذوهم وسرت على سيرتهم ، ازداد تقدير الناس لك وانتشر صيتك بقدر ما تميزك سنك ومكانتك عن غيرك من زملائك . بيد أنى أنصحك بأن تباعد ما بينك وبين ملق المتملقين ؛ واحذر الخيلاء والمظاهر الباطلة فى سلوكك وحديثك ؛ ولا تتصنع الزهد ، وحتى الجد نفسه لا تبد مسرفا فيه وأرجو أن تفهم فى مستقبل الأيام معنى هذه النصيحة وتسير عليها سيراً يفوق كل ما أستطيع الإفصاح عنه .

على أنك لست بغافل عما للأخلاق التى ينبغى لك أن تتخلق بها من شأن عظيم ، لأنك تعلم حق العلم أن العالم المسيحى على بكرة أبيه سوف يزدهر ويعمه الرخاء إذا اتصف الكرادلة بما يجب أن يتصفوا به من أخلاق طيبة ؛ ذلك أنهم إن كانوا كذلك كان البابا حتما من الصالحين فى جميع الأوقات . وطمأنينة العالم المسيحى ، كما تعلم ، إنما تعتمد على وجود البابا الصالح . فاعمل إذن أن تكون بحيث إذا كان سائر الكرادلة مثلك ، كان لنا أن نرجو نيل هذه النعمة الشاملة . وليس من السهل أن أسدى لك نصائح مفصلة دقيقة تسترشد بها فى سلوكك وحديثك ، ولهذا فحسبى أن أنصحك بأن تكون العبارات التى تستخدمها فى حديثك مع الكرادلة وغيرهم من ذوى الدرجات العلى خالية من التشامخ ، يزينها تقديرك واحترامك لمن يحدثك . . . على أن من الخير لك فى زيارتك هذه لرومة — وهى أولى

زيارتك لهذه المدينة ، أن تصغى إلى غيرك من الناس لا أن تكثر أنت من التحدث إليهم ...

واجعل عدتك وثيابك فى المناسبات الرسمية دون الدرجة الوسطى لا فوقها ، واعلم أن البيت الجميل ، والأسرة الحسنة التنظيم أفضل من الحاشية الكبيرة والمسكن الفخم ... وأن الحرير والجواهر لا تليق بمن هم فى مثل مركزك ، وإنك لتستطيع أن تظهر ذوقك بأحسن مما تظهره هذه الثياب والجواهر بأن تحصل على عدد قليل من الآثار القديمة الطريفة ، أو الكتب الجميلة الشكل ، وبأن يكون أتباعك من المتعلمين الحسنى التربية لا بالكثيرين . وادع غيرك إلى دارك أكثر مما تتلقى الدعوات إلى دور غيرك ، وإن كان عليك ألا تسرف فى هذه أو تلك . وليكن طعامك بسيطا ، ومارس الرياضة البدنية بالقدر الكافى ، لأن من يلبسون الثياب التى تلبسها سرعان ما تصيبهم الأمراض إذا لم يعنوا بأجسامهم أعظم العناية ... واعلم أن قلة الوثوق بالناس عن الحد الواجب خير من الإسراف فى الثقة بهم . وثمة قاعدة ألفت إليها نظرك وهى لدى أفضل من كل ماعداها : استيقظ من النوم مبكراً ، فإن هذا الاستيقاظ المبكر لن يفيدك صحة فى الجسم فحسب ، بل إنه سيمكنك فوق ذلك من أن تنظم أعمال اليوم وتنجزها ؛ وإذا كان مركزك يحتم عليك القيام بأعمال متعددة ، كأداة الصلوات والخدمات الدينية ؛ والدرس ، والاستماع إلى ذوى الحاجات وما إلى ذلك ، فإنك ستفيد من لهذه النصيحة أكبر فائدة . . . وسيطلب إليك فى أغلب الظن أن تتوسط لدى البابا فى ظروف معينة . ولكن عليك ألا تكثر من الإلحاف عليه ومضايقته ، لأن مزاجه يجعله أعظم ما يكون سخاء على أقل الناس إلحافا عليه برجائهم ومطالبهم . إن عليك أن تراعى هذه النصيحة لئلا تغضبه ، وألا يفوتك أن تتحدث إليه فى بعض الأوقات فى موضوعات أحب إلى النفس من هذه الشفاعات ؛

وإذا كان لا بد لك أن تطلب إليه منة ، فاطلبها بالتواضع والخضوع اللذين يسرانه ويوائمان مزاجه . استودعاك الله[٢] »

وتوفى لورندسو قبل أن يمضى بعد هذا الوقت شهر واحد ، ولم يكد چيوڤنى يصل إلى « بؤرة الفساد والظلم » . حتى عجل بالعودة إلى فلورنس ليؤيد پيرو أخاه الأكبر فى أن يرث سلطانه السياسى المزعوم . وكان من المصائب القليلة التى لاقاها چيوڤنى فى حياته أنه كان فى فلورنس حين سقط پيرو عن عرشـــه . ولم يجد هو وسيلة للنجاة من غضب المواطنين على آل ميديتشى ، ذلك الغضب الذى لم يفرقوا فيه بين أفراد هذه الأسرة ، إلا أن يتخفى فى زى راهب فرنسيسى ، وأن يشق طريقه وهو متخف فى هذا الزى بين الجماهير المعادية ، وأن يطلب الالتحاق بدير سان ماركو الذى سخا عليه أسلافه بالهبات ، ولكنه كان وقتئذ تحت سيطرة سفنرولا عدو أبيه ، ولهذا أبى الرهبان قبوله فيه ، فاختفى وقتاً ما فى إحدى ضواحى المدينة ، ثم اتخذ سبيله فوق الجبال لينضم إلى إخوته فى بولونيا ؛ وقد تجنب الذهاب إلى رومة لأنه كان يكره الإسكندر السادس ، وعاش ست سنين هارباً أو منفياً ، ولكن يلوح أنه لم يكن فى خلالها يعوزه المال . وقد زار فى هذه الأثناء مع جوليو ابن عمه (الذى أصبح فيما بعد البابا كلمنت السابع) وبعض أصدقائه ألمانيا ، وفلاندرز ، وفرنسا . ثم اصطلح آخر الأمر مع الإسكندر فاتخذ مقامه فى رومة (١٥٠٠) .

وأحبه كل من كان فى تلك المدينة . فقد كان متواضعاً ، بشوشاً سخياً فى غير تظاهر ؛ وقد بعث بهبات قيمة إلى معلميه پوليتيان وكلكنديامس ، وأخذ يجمع الكتب والتحف الفنية ؛ وحتى دخله الكبير نفسه لم يكد يفى بما يقدمه من هبات للشعراء ، والفنانين ، والموسيقيين والعلماء . وكان يستمتع بجميع فنون الحياة وطيباتها ؛ بيد أن جوتشياردينى **Guicciardini** الذى لم يكن قلبه يخلو من كره للبابوات ، يصفه بأنه « قد اشتهر بأنه إنسان

طاهر الذيل ، مبرأ من كل نقيصة خلقية »[٣] ، وقد هنأه ألدوس مانوتيوس Aldus Manutius بحياته التقية النقية »[٤] .

وبدأت الأقدار تعاكسه من جديد حين عينه يوليوس الثانى مندوباً بابوياً يحكم بولونيا وإقليم رومانيا (١٥١١) ، ورافق الجيش البابوى إلى راڤنا ، وخاض المعركة وهو أعزل يشجع الجند ويشد عزائمهم ، وأطال المكث فوق ما ينبغى فى ميدان الهزيمة ، يصلى على الموتى ، حتى قبضت عليه سرية يونانية تعمل فى خدمة الفرنسيين المنتصرين . ولما سيق أسيراً إلى ميلان ، سره أن يرى أن الجنود الفرنسيين أنفسهم قلما كان يعنيهم أمر الكرادلة المنشقين ومجلسهم الذى لا يستقر فى مكان ، وأنهم كانوا يحرصون على المجىء إليه لينالوا بركته ، ومغفرته ، ولعلهم أيضاً قد جاءوا لينالوا رفده . واستطاع أن يفر من آسريه الرفيقين به ، وأن ينضم إلى القوات البابوية — الأسبانية التى نهبت پراتو Prato واستولت على فلورنس ، واشترك مع أخيه جوليانو فى إعادة آل ميديتشى إلى سلطانهم (١٥١٢) ، ثم استدعى بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت إلى رومة ليشترك فى اختيار من يخلف يوليوس على عرش البابوية .

ولم يكن وقتئذ قد جاوز السنة السابعة والثلاثين من عمره ، وقلما كان يتوقع أنه هو نفسه سيختار بابا . وقد دخل المجمع المقدس محمولا على محفة يعانى آلام ناسور فى الشرج[٥] . واحتدم النقاش أسبوعاً اختير بعده چيوڤنى ده ميديتشى بابا (١١ مارس سنة ١٥١٣) ، ويلوح أن الرشا لم تكن من أسباب هذا الاختيار ، وتسمى باسم ليو العاشر ، ولم يكن قد رسم بعد قسيساً ، ولكن هذا النقص قد تدورك فى ١٥ مارس .

ودهش الناس جميعاً من هذا الاختيار وابتهجوا له ؛ فقد سرهم وأثلج صدورهم ، بعد دسائس الإسكندر وسيزارى بورچيا السوداء وحروب يوليوس واضطراباته هو وأحفاده ، أن يتزعم الكنيسة فى ذلك الوقت شاب

امتاز وهو لايزال فتياً بقلبه الطيب السمح ، وكياسته ودماثة خلقه ومجاملته ، ومناصرته السخية للآداب والفنون ، وأن يقودها كما يبدو فى طريق السلام . ولم يخش ألفنسو صاحب فيرارا ، الذى حاربه يوليوس بلا هوادة ، المجىء إلى رومة ، ورد إليه ليو كل ما كان له فى دوقيته من امتيازات ؛ وشكر له الأمير هذه اليد فأمسك بركاب ليو حين امتطى جواداً ليسير فى موكب التتويج فى السابع عشر من شهر مارس . وكانت هذه الحفلات التى أقيمت بمناسبة تتويجه فخمة لم يسبق لها مثيل من قبل أنفقت فيها مائة ألف دوقة[٦] . وقدم فيها المصرفى أغستينو تشيجى Agostino Chigi مركبة نقش عليها باللغة اللاتينية ذاك النقش الذى يعلن فيه أمل الشعب : « لقد حكمت من قبل ڤينوس » (أى الإسكندر) ، « وحكم بعدئذ المريخ » (يريد يوليوس) ، و « الآن تحكم پالاس Pallas .» (الحكمة) وطاف الناس بشعار أكثر من هذا إيجازاً وإحكاماً : « كان المريخ ، وتكون پالاس ، وأنا ڤينوس ، سأكون أبداً »[٧] . وابتهج الشعراء ، والمثالون ، والمصورون ، والصياغ ؛ وانبعثت فى قلوب الكتاب الإنسانيين آمال بعودة عصر أغسطس الذهبى . وقصارى القول أن أحداً لم يتربع على كرسى البابوية من قبل تحف به هذه البشائر والآمال والبهجة التى تغمر قلوب الشعب على بكرة أبيه .

وإذا جاز لنا أن نصدق الملفقين من كتاب ذلك العصر فإن ليو نفسه قد قال لأخيه وهو منشرح الصدر : « فلنستمتع بالبابوية ما دام الله قد وهبنا إياها »[٨] . ولعل هذا القول مدسوس عليه ، وهو حتى إن أصبح لا يدل على شىء من عدم الاحتشام ، بل ينم على روح جذلة ، لاتنى أن تكون كريمة كما تكون سعيدة ، وهى لا تدرى وقد واتاها الحظ السعيد أن تصف العالم المسيحى كأنه يتمخض بالثورة على الكنيسة .

الفصل الثانى

البابا السعيد

وبدأ ليو عمله بداية طيبة إلى أبعد حد ، فعفا عن الكرادلة الذين دبروا مؤتمر بيزا وميلان المعادى له ، وانتهى بذلك خطر الانقسام ، ووعد ألا يمس الضياع التى يتوفى عنها الكرادلة ، ووفى بهذا الوعد . وأعاد افتتاح مجلس لاتران ، ورحب بمندوبيه بلغته اللاتينية البليغة . وأدخل على الكنيسة بعض إصلاحات صغيرة ، وخفف الضرائب ، ولكن مرسومه الذى دعا فيه إلى الإصلاحات الكبرى (٣ مايو سنة ١٥١٤) لتى مقاومة شديدة من الموظفين الذين كانوا يخشون من أن تنقص هذه الإصلاحات من دخلهم ، ولهذا لم يبذل جهداً كبيراً فى تنفيذه(٩) وقال فى هذا : « سأتدبر الأمر ؛ لأرى كيف أستطيع أن أرضى كل إنسان »(١٠) لقد كان هذا هو طبعه ، وكان طبعه هذا سببا فيما حاق به من بلاء .

وليست الصورة التى رسمها له رفائيل (المحفوظة فى پتى) والتى أخرجها بين عامى ١٥١٧ و ١٥١٩ مشهورة شهرة صورة يوليوس ، ولكن ليو نفسه ملوم على هذا بعض اللوم ! فقد كان حين صور أقل عمقاً فى التفكير ، وأقل بطولة فى العمل ، وأقل قدراً فى قرارة نفسه . ولم تكن هذه الصفات لتكسب ظاهر وجهه وجسمه روعة وجلالا . وكانت الصورة صادقة إلى أبعد حدود الصدق . فقد أظهرته رجلا ضخما ؛ يتجاوز الحظ الأوسط فى الطول ؛ كما يتجاوزه أكثر من هذا فى وزن الجسم . وقد اختفت بدانته التى تقلل من هيبته تحت ستار ثوبه المصنوع من المخمل الأبيض والموشى بالفراء الثمين ، والحرملة الحمراء القرمزية ، له يدان ناعمتان رخوتان ؛ جردتا فى الصورة من الخواتم الكثيرة التى تزينهما فى الأوقات العادية ،

ومنظار للقراءة يساعد عينيه القصيرتى النظر ، ورأس مستدير وخدان منتفخان وشفتان كبيرتان ، وذقن مزدوج ، وأنف ضخم وأذنان عريضتان ؛ وتمتد بعض الخطوط الدالة على الحقد والضغينة من الأنف فى طرفى الفم ، وعينان ثقيلتان ، وجبهة عابسة بعض العبوس ذلك هو ليو الذى كشرت له الدبلوماسية عن نابها ، ولعله قد آلمته حركة الإصلاح التى كانت قاسية عليه ، وليس هو ليو الصياد والموسيقى المرح ، ونصير الآداب والفنون الجواد الكريم ، الرجل المثقف الذى ينهب اللذات ، والذى ابتهجت رومة بتتويجه أعظم ابتهاج . وإذا ما شئنا أن ننصفه وجب أن نضم سجل حياته إلى صورته ، ذلك أن الرجل منا رجال كثيرون عند مختلف الرجال وفى مختلف الأوقات ، وليس فى مقدور أبرع مصور أن يظهر كل هذه الصفات فى وجه إنسان ما فى لحظة واحدة .

وكانت الصفة الأساسية فى أخلاق ليو ، والتى هى وليدة حياته المحظوظة هى طيبة قلبه . فقد كان يجد كلمة طيبة يقولها لكل من يلقاه ، وكان يرى خير النواحى فى كل إنسان عدا البروتستنت (الذين لم يكن يسعه أن يبدأ يفهمهم) ، وكان يسخو على كثيرين من الناس سخاء استنزف كثيراً من أموال الكنيسة ، وكان من أسباب حركة الإصلاح الدينى . ونحن نسمع الشىء الكثير عن أدبه ، ورقة حاشيته ، وكياسته ، وبشاشته ، ومرحه حتى فى أوقات المرض او الألم (فقد أجريت له عدة جراحات لإستئصال ناسوره ولكنه كان يعود بعدها على الدوام ، وكان فى بعض الأحيان يجعل تحركه عذابا ليس بعده عذاب) . وكان يترك لغيره من الناس ، على قدر ما يستطيع ، أن يحيوا حياتهم كما يشاءون . وقد تغلبت هذه القسوة على اعتداله وحنوه الأصليين حين تبين له أن بعض الكرادلة يأتمرون به ليقتلوه . ولقد كان شديداً صارماً مجرداً من الرحمة فى بعض الأوقات ، فعل ذلك مع فرانتشيسكو ماريا دلا روفيرى رجل أربينو وجيان پاولو بجلونى رجل پروچيا[١١] .

وكان يسعد أن يكذب كما يكذب الدبلوماسى إذا أرغمته الظروف على الكذب ، وكان من حين إلى حين يتفوق على الساسة الغادرين الذين يريدون أن يوقعوه فى حبائلهم . لكنه كان فى أكثر الأحيان ذا قلب رحيم ؛ نتبين هذا حين نهى (دون جدوى) عن استعباد الهنود الأمريكيين ، وحين بذل كل ما فى وسعه ليقاوم وحشية محاكم التفتيش التى كان يلجأ إليها فرديناند الكاثوليكى[١٢] . وكان رغم نزعته الدنيوية العامة يؤدى جميع واجباته الدينية بذمة وأمانة ؛ فكان يصوم ، ولا يرى أى تناقض أساسى بين الدين والمرح ، وقد اتهم بأنه قال لبمبو يوما ما : « إن الأجيال جميعها لتعلم حق العلم كيف أفدنا من هذه الخرافة ـ خرافة المسيح » ؛ ولكن المصدر الوحيد الذى ورد فيه هـذا القول هو مؤلَّف جدلى عنيف يسمى موكب البابوات The Pageant of Popes كتبه حوالى عام ١٥٧٤ رجل إنجليزى لاشأن له يدعى جون بيل john Bale ، وحتى بايل الذى لايؤمن بدين ورسكو Rosucoe البروتستنتى يرفضان هـذه القصة ويعتقدان أنها هى نفسها خرافة[١٣] .

وكانت متعه ومسراته تختلف من الفلسفة إلى المهرجين الماجنين . وكان قد تعلم على مائدة أبيه أن يقدر الشعر ، والنحت ، والتصوير ، والموسيقى ، والخط الجميل ، وزخرفة الكتب ، والمنسوجات الرفيعة الجميلة ، والمزهريات والزجاج ، وكل أشكال الجمال مع جواز استثناء أصلها ومعيارها وهو المرأة ؛ وكانت رعايته للفنانين والشعراء جرياً منه فى رومة على التقاليد الكريمة التى كان يسير عليها أسلافه فى فلورنس ، وإن كان استمتاعه بالفنون شاملا شمولا لا يصل به إل الحد الذى يجعله هادياً مرشداً للذوق الفنى . وقد كانت طبيعته السهلة مانعة له من أن يعنى بالفاسفة عناية جدية ، وكان يعرف أن النتائج والأحكام المستخلصة من المقدمات المنطقية كلها مزعزعة غير أكيدة ، ولم يشغل باله بما وراء الطبيعة بعد أن غادر الكلية الجامعية . وكان فى أثناء

تناوله الطعام تقرأ له الكتب ، وهي عادة كتب التاريخ أو يستمع إلى الموسيقى ، وفيها كان سليم الذوق صحيح الحكم ، فقد كان ذا أذن موسيقية كما كان رخيم الصوت . وكان بلاطه يضم طائفة من الموسيقيين يغدق عليهم المال ؛ وقد استطاع المؤلف والملحن الموسيقى برنارد أكلتى Bernardo Accolti (المسمى يونيكو أريتينو Unico Aretino لأنه ولد فى أدسو ولأنه لم يكن يجاريه أحد سهولة ارتجاله الشعر والقطع الموسيقية) بفضل الأجور التى نالها من ليو أن يشترى دوقية نيبى Nepi الصغيرة ؛ وحصل منه يهودى عازف على العود على قصر ولقب كونت ؛ وعين المغنى جبريل مرينو Gabrial Merino كبير أساقفة(١٤) ووصلت جوقة المرتمين فى الفاتيكان بفضل تشجيع ليو ورعايته إلى درجة من السمو لم يسبق لها من قبل مثيل . وكان رفائيل صادقاً كل الصدق حين صور البابا وهو يقرأ كتاباً فى الموسيقى الدينية . وكان ليو يجمع الآلات الموسيقية لجمالها وحسن أنغامها ، وكان منها أرغن مزدان بقطع من المرمر يرى جستليونى أنه أجمل أرغن رآه أو سمعه .

كذلك كان ليو يحب أن يحتفظ فى بلاطه بعدد من المازحين والمهرجين ؛ وكان هذا مما يتفق مع ما اعتاده أبوه ومعاصروه من الملوك ، ولم تروع له رومة التى كانت تحب الضحاك حبا لا يزيد عليه إلا حب الثروة والجماع . وقد يبدو لنا إذا عدنا بنظرنا إلى تلك الأيام الخاليه أن مما تعافه نفوسنا أن تتردد أصداء النكات الخفيفة والقبيحة فى أرجاء البلاط البابوى بينا كانت ثورة الإصلاح الدينى الجامعة تشتعل نارها فى ألمانيا . ومما يحكى عن ليو أنه قد سره مرة أن يرى أحد المهرجين من رهبانه يبتلع حمامة دفعة واحدة ، أو أربعين بيضة متتابعة (١٥) ؛ وأنه قد قبل مسروراً من وفد برتغالى فيلا أبيض اللون — جيء به من الهند — خر راكعا ثلاث مرات حين شاهد قداسته(١٦) . وإذا جيء له بشخص يستطيع بفكاهته ، أو صورته المشوهة ، أو بلاهته أن يدخل السرور عليه ، كان هذا طريقا

مؤكدا لكسب رضاه (١٧) . ويبدو أنه كان يحس بأن الترويح عن نفسه بهذه الوسائل من حين إلى حين يشغلة عن آلامه الجسمية ، ويخفف عن نفسه عبء المتاعب النفسية ، ويطيل حياته(١٨) . وكانت له عادة تمت بصلة إلى عادات الأطفال وتقلل من حقد الحاقدين عليه . ذلك أنه كان يلعب الورق أحياناً مع الكرادلة ، ويبيح للجمهور أن يشاهد اللعب حتى إذا فرغ منه وزع قطعا من الذهب على الحاضرين .

وكان الصيد أحب ضروب التسلية إليه ، فقد كان هذا مانعا له من البدانة التي كان مستعدا لها بطبيعته ، وكانت تمكنه من الاستمتاع بالهواء الطلق ومناظر الريف بعد أن كان سجينا فى الفاتيكان . وكان له اسطبل به كثير من الجياد يخدمها مائة سائس ؛ وكان من عادته أن يفرغ فى شهر أكتوبر كله للصيد والقنص . وكان أطباؤه يحبذون هذه العادة أعظم التحبيذ ، ولكن باريس ده جراسيس Parise de Grassis كبير تشريفاته كان يشكو من أن البابا يظل منتعلا حذاءيه الثقيلين زمنا طويلا « لا يستطيع أحد معه أن يقبل قدميه » ، وكان ليو يضحك من هذا بكل قلبه(١٩) . ونحن نرى البابا أرق حاشية مما نراه فى صورة رفائيل حين نقرأ أن الفلاحين . أهل القرى كانوا يفدون عليه لتحيته حين يمر فى طرقهم ، وأنهم كانوا يقدمون له عطاياهم المتواضعة — وأن البابا كان يجزل لهم العطاء حتى كان هؤلاء لينتظرون بشوق زائد رحلات الصيد التي يقوم بها . وكان يهب بناتهم الفقيرات بائنات الزواج ، ويؤدى ديون المرضى والطاعنين فى السن ، وآباء الأسر الكبيرة(٢٠) . وكان أولئك الأقوام السذج يخاصون له الحب أكثر من الألفين من الرجال الذين تتألف منهم حاشيته فى الفاتيكان(*) ؛

(*) وكان المكان المحبب الذى ينزل فيه ليو خلال رحلات الصيد هذه هو البيت الريفى المعروف بقصر مجليانا Magliana . وكان هذا القصر قد شيد لسكستس الرابع ووسعه إنوسنت =

يبد أن بلاط ليو لم يكن مجرد بؤرة للتسلية والمرح ، بل كان إلى هذا ملتقى رجال الحكم المسئولين ، ومن بينهم ليو نفسه ، وكان مركز ذوى الأحلام ، والعلم ، والفكاهة فى رومة ، والمكان الذى يقيم فيه العلماء ، ورجال التربية ، والشعر ، والفنانون ، والموسيقيون ، ويلقون فيه أعظم الترحيب ، وكان هو الذى تصرف فيه الأعمال الكنسية الجدية ، وتقام فيه الاحتفالات الفخمة لاستقبال المبعوثين الدپلوماسيين ، وتؤدب فيه المآدب الغالية ، وتمثل فيه المسرحيات أو تقام فيه الحفلات الموسيقية ، وينشد فيه الشعر ، وتعرض فيه روائع الفن . وما من شك فى أنه كان أرقى بلاط فى العالم كله فى ذلك الوقت . والحق أن بلاط ليو قد باغ بفضل ما بذله البابوات من أيام نقولاس الخامس إلى ليو نفسه من الجهود لإصلاح قصر الفاتيكان وزخرفته ، وحشد العدد الجم من عباقرة الأدب والفن ، وأقدر السفراء فى أوربا بأجمعها ، نقول إن بلاط ليو بلغ بفضل هذا ذروة آداب النهضة وبهجتها ، ولا نقول إنه قد بلغ ذروة الفن لأنه كان قد بلغ هذه الذروة فى عهد يوليوس . ولم يشهد التاريخ قبل أيامه ثقافة بالقدر الذى شهده منها فى هذا العهد ، لا نستثنى من ذلك عصر بركليس فى أثينة أو عصر أغسطس فى رومة[٢٢] .

وعم الرخاء المدينة واتسعت رقعتها بفضل ما كان يجرى فى شرايينها الاقتصادية من ذهب ليو ، ويقول سفير الفاتيكان فى هذا إن عشرين ألف بيت قد بنيت فى رومة فى الثلاثة عشر عاما التى تلت ارتقاءه عرش

= الثامن ويوليوس الثانى ، وزينه چيوفنى دى پيترو الأميرى (المعروف باسم لو اسپانيا Lo Spagna) ليوليوس بمظلمات تمثل اپلو وربات الفن . وصمم رفائيل لمعبده (بين ١٥١٣ و ١٥٢٠) ثلاث مظلمات بقى منها اثنان حتى الآن فى متحف اللوفر . والراجح أن لو أسپانيا قد صورها من صور تمهيدية لرفائيل .

البابوية ، وقد شاد أكثرها القادمون الجدد من شمالى إيطاليا الذين قدموا إليها بعد هجرة عصر النهضة . وازدحم فيها الفلورنسيون بوجه خاص لينالوا رفد البابوية الفلورنسية . وقدر پاولو چيوفيو Paolo Giovio الذى كان يتبختر فى البلاط البابوى سكان رومة فى ذلك الوقت بخمسة وثمانين ألفا(٢٣) ، ولسنا ننكر أنها لم تكن قد بلغت بعد ما بلغته فلورنس أو البندقية من جمال ، ولكنها كانت بإجماع الآراء محور المدنية الغربية ، وقد سماها مارتشيلو ألبرينى Marcello Alberni فى عام ١٥٢٧ ، « ملتقى العالم كله »(٢٤) . ولم يغفل ليو ، وسط ملاهيه وشئونه الخارجية ، عن تنظيم استيراد الطعام وتحديد أثمانه ، وإلغاء الاحتكارات ، وابتياع بعض السلع بأجمعها للتحكم فى أثمانها(*) ، وخفض الضرائب ، ووزع العدالة بغير محاباه ، وبذل جهده لتجفيف المستنقعات البنتية Pontine Marshes وعمل على تقدم الزراعة فى الكمپانيا ، وواصل أعمال الإسكندر ويوليوس فى شق الشوارع فى رومة أو تحسينها(٣٠) . وسار على نهج أبيه فى فلورنس فعنى بالضروريات والكماليات — فاستخدم الفنانين لينظموا له المواكب المفخمة ، وشجع الاحتفالات المقنعة فى عيد المساخر ، وبلغ من أمره أن سمح بإقامة مصارعات الثيران التى جاء بها آل بورجيا فى ميدان القديس بطرس نفسه . ذلك أنه كان يرغب فى أن يشترك الشعب فى مرح العصر الذهبى الجديد وسعادته .

وسارت المدينة على نهج البابا ، وأطلقت للمرح والبهجة العنان ، فأسرع رجال الدين والشعراء ، والطفيليون ، والقوادون ، والعاهرات إلى رومة ليعبوا كأس السعادة عبا . وكان الكرادلة وقتئذ أغنى من الأشراف القدامى ، بفضل ما حباهم به البابوات ، وخاصة ليو نفسه ، من المناصب التى جاءتهم بالإيراد من جميع أنحاء العالم المسيحى اللاتينى . وبينا كان

(*) هذا هو الذى يسمونه فى عالم التجارة « ركنا Corner » . (المترجم)

أولئك الأشراف القدامى ينحدورن إلى هاوية الاضمحلال الاقتصادى والسياسى ، كان دخل بعض الكرادلة يبلغ ثلاثين ألف دوقة العام (أى نحو ٣٧٥٫٠٠٠ دولار)[٣١] . فاستطاعوا بذلك أن يسكنوا فى مساكن فخمة ، يقوم فيها على خدمتهم ثلثمائة من الخدم فى بعض الأحيان[٣٢] ، وتزدان بكل ما عرف فى ذلك الوقت من روائع الفن والترف . ولم يكونوا يرون أنهم رجال دين بقدر ما كانوا يرون أنهم رجال حكم ، ودبلوماسيون ، ومديرون ؛ لقد كانوا هم مجلس الشيوخ الرومانى وكانوا يريدون أن يحيوا كما يحيا أعضاء مجلس الشيوخ . وكانوا يسخرون من أولئك الأجانب الذين يتطلبون منهم أن يحيوا حياة التقى والعفة التى يحياها القساوسة ؛ وكانوا يزنون السلوك ، كما يزنه كثيرون من أبناء عصرهم ، بموازين الجمال لا بالموازين الأخلاقية ، فلم يكونوا يرون بأسا من خرق بعض الأوامر الإلهية إذا تجملوا فى خرقها وفعلوا ذلك بظرف وذوق سليم . وقد أحاطوا أنفسهم بالغلمان ، والموسيقيين ، والشعراء ، والكتاب الإنسانيين ، وكانوا من حين إلى حين يتناولون عشاءهم مع محاظى البلاط[٣٣] . ويأسفون أشد الأسف لأن ندواتهم كانت خالية من النساء ، فهاهو ذا الكردنال ببينا يقول « إن رومة على بكرة أبيها تنادى بأنا لا ينقصنا هنا إلا سيدة تكون هى واسطة عقد الندوة »[٣٤] . وكانوا يحسدون فيرارا ، وأربينو ، وما نتوا لما تستمتع به من هذه الناحية ، ولشد ما اغتبطوا حين جاءت إزبلا دست لتبسط أثوابها ومفاتنها النسوية على حفلاتهم التى لم تكن تضم إلا الذكور .

وبلغ الظرف ، والذوق ، ولطف الحديث ، وتقدير الفن غايته فى ذلك الوقت ، ونالت الفنون والآداب على اختلاف أنواعها أعظم التشجيع . ولسنا ننكر أنه كانت هناك حلقات مثقفة فى العواصم الصغرى ،

وأن كستجليونى كان يفضل ندوات أربينو الهادئة على حضارة رومة الزاهية ، الومضية ، الصاخبة ، التى تجتمع فيها كل الأجناس ، غير أن أربينو لم تكن إلا جزيرة صغيرة من الثقافة ، أما رومة فكانت مجرى دافقا أو بحرا عجاجا . وأقبل عليها لوثر وزارها ، وهاله ما رأى واشمأزت منها نفسه ، ثم جاءها إرزمس Erasmus وزارها وافتتن بها افتتانا بلغ حد النشوة[٣٥] . ونادى مائة شاعر وشاعر بأن العصر الذهبى قد عاد .

الفصل الثالث

العلمـــاء

فى اليوم الخامس من نوفبر عام ١٥١٣ أصدر ليو مرسوماً بضم معهدين من معاهد العلم افتقرا إلى المال : هما كاية القصر المقدس أى الفاتيكان ، وكلية المدينة ، وأصبح المعهدان من ذلك الوقت هما جامعة رومة . وخصص لهما بناء لم يلبث أن عرف باسم سابيندسا Sapienza[٣٦] . وكان هذان المعهدان قد ازدهرا فى أيام البابا اسكندر ، ولكنهما اضمحلا فى عهد يوليوس الذى استولى على أموالهما لينفقها فى الحروب ، والذى كان يفضل السيف على الكتاب . وأمد ليو الجامعة الجديدة بالمال بسخاء وظل يسخو عليها حتى تورط هو الآخر فى سباق للتدمير . فقد جاء إليها بعدد جم من العلماء الممتازين المخلصين لعلمهم ، فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى كان فى المعهد الجديد ثمانية وثمانون أستاذاً — منهم خمسة عشر فى الطب وحده يتقاضى الواحد منهم ما بين ٥٠ فلورينا و٥٣٠ (من ٨٢٥ إلى ٦٦٢٥ ؟ دولاراً) فى العام ؛ وكان ليو فى تلك السنين الأولى من ولايته يبذل كل ما فى وسعه ليجعل الكليتين المجتمعتين أعظم جامعات إيطاليا علماً وأكثرها ازدهاراً .

وكان من أفضاله أنه أنشأ فى هذه الجامعات دراسة اللغات السامية . ذلك أنه خصص فى جامعة رومة كرســيا لتعليم اللغة العبرية ، وعين تيسيو أمبروجيو Teseo Ambrogio لتدريس اللغتين السريانية ، والكلدانية فى جامعة بولونيا . ورحب ليو حين أهدى له كتاب فى نحو اللغة العبرية ألفه أجاتشيو جويداتشريو Agacio Guidacerio ؛ ولما علم أن سانتى بجنينى Sante Paginin كان يترجم العهد القديم من الأصل العبرى إلى اللغة اللاتينية ،

طلب أن يرى أنموذجاً من الترجمة ؛ فلما رآه أعجبه ، وتعهد من فوره بأن يتكفل بنفقات هذا المشروع الشاق الكبير .

وكان ليو أيضاً هو الذى أعاد دراسة اللغة اليونانية بعد أن أخذت دراستها فى الاضمحلال . وشرع فى ذلك بأن دعا إلى رومة العالم الشيخ جون لسكارس John Lascaris الذى كان يعلم اللغة اليونانية فى فلورنس ، وفرنسا ، والبندقية ، ونظم بمساعدته مجمعاً علمياً يونانياً فى رومة ، منفصلا عن الجامعة . وكتب بمبو على لسان ليو (فى ٧ أغسطس سنة ١٥١٣) خطاباً إلى ماركس موسوروس Marcus Musurus أكبر مساعدى مانوتيوس Manutius يطلب فيه إلى هذا العالم أن يحصل من بلاد اليونان على « عشرة ، أو أكثر من عشرة حسبما يرى ، من الشبان المتبحرين فى العلم ، المشهود لهم بالأخلاق الفاضلة لتؤلف منهم حلقة من الدراسات الحرة ، ولكى يتلقى عليهم الإيطاليون العلم باللسان اليونانى وحسن الانتفاع به »[٣٧] . وبعد شهر من ذلك الوقت نشر مانوتيوس طبعة أفلاطون التى أتمها موسوروس من قبل ، وأهدى الطابع العظيم هذا الكتاب إلى البابا . ورد عليه ليو بأن منح ألدوس دون غيره الحق فى أن يعيد طبع كل ما أصدره ألدوس من الكتب اليونانية أو اللاتينية حتى ذلك الوقت ، وما سيطبعه فى خلال الأعوام الخمسة عشر المقبلة التى سيظل فيها وحده صاحب هذا الحق . وأعلن فوق هذا أن كل من يعتدى على هذا يحرم من حظيرة الدين ، ويعرض نفسه للعقاب . وكان هذا الامتياز الفردى فى طباعة المؤلفات هو الوسيلة التى تمنح بها النهضة طابعاً ما حق طبع الكتاب الذى أنفق المال على إعداده . غير أن ليو أضاف إلى هذا الامتياز وصيته بأن يكون ما يطبع من كتب ألدوس معتدل الثمن ، وقد كان .

وأنشئت الكلية اليونانية فى بيت آل كولتشى Colocci على الكويرنال Quirinal ، وأقيمت هناك أيضاً مطبعة لطبع الكتب الدراسية والشروح

الطلاب . وأنشئ حوالى ذلك الوقت عينه فى بفلورنس « مجمع علمى ميديتشى » شبيه به للدراسات اليونانية ؛ وجمع ڤارينوكامرتى Varino Camerti — الذى اتخذ لنفسه اسماً لاتينياً هو فافورينوس Favorinus — بتشجيع ليو أحسن معجم يونانى — لاتينى نشر فى عالم النهضة حتى ذلك الوقت .

وكادت غيرة البابا على الآداب القديمة تكون ديناً له وعقيدة . وشاهد ذلك أنه تلقى من البنادقة « عظماً من كشف ليفى » بنفس التقوى التى يتلقى بها أثراً من آثار كبار القديسين[٣٨] ، وأنه أعلن بعد جلوسه على كرسى البابوية بقليل أنه سيكافئ بسخاء كل من يحصل له على أى مخطوط فى الأدب القديم لم ينشر بعد . ثم إنه فعل ما فعله أبوه فأرسل مبعوثيه وعماله إلى البلاد الأجنبية ليبحثوا عما عساه أن يكون فيها من المؤلفات القديمة ، وعن كل الأشياء ذات القيمة وثنية كانت أو مسيحية ، وأن يبتاعوها له ، وكان فى بعض الأحيان يوفد الوفود لهذا الغرض خاصة لا لغرض سواه ، ويزودهم بالرسائل للملوك والأمراء يطلب إليهم فيها أن يعاونوا أولئك الرسل فى البحث والتنقيب . ويبدو أن عماله كانوا فى بعض الأحيان يسرقون هذه المخطوطات إذا لم يستطيعوا شراءها ؛ ويلوح أن هذا هو ما فعلوه فى الستة الكتب الأولى من حوليات تاسيتوس التى وجدوها فى دير كورڤى Corvey بوستفاليا Westphalia ، لأن لدينا رسالة ممتعة موجهة إلى هيتمرس Heitmers عامل البابا كتبها ليو نفسه أو أمر بكتابتها بعد أن تم طبع هذه الحوليات ونشرها :

لقد بعثنا بنسخة من الكتب بعد أن روجعت وطبعت مجلدة تجليداً جميلاً إلى رئيس الدير وإلى رهبانه ، لكى يضعوها فى مكتبتهم بدلا من النسخة التى أخذت منها ، وإذا كنا نريد فوق ذلك أن يعرفوا أن هذا الاختلاس قد عاد عليهم بالخير أكثر مما عاد عليهم بالأذى ، فقد وهبنا كنيستهم غفراناً جماعياً[٣٩] .

وأعطى ليو فلپو بروالدو Filippo Beroaldo المخطوط المختلس ، وأمره

أن يصلح النص وينشره ، على أن يطبعه طبعة أنيقة ولكنها فى صورة سهلة القراءة . وكان مما ورد فى كتاب التكليف هذا :

لقد كان من عادتنا ، حتى فى السنين الأولى من حياتنا ، أن نرى أن لا شىء مما وهبه الخالق لخلقه أجل شأناً وأعظم نفعاً – لانستثنى من ذلك إلا العلم به وعبادته الحقة – من هـذه الدراسات التى هى زينة الحياة الإنسانية ومرشدها إلى الخير ، والتى يمكن فوق هذا تطبيقها على كل وضع خاص من أوضاع الحياة والانتفاع بها فيه ؛ والتى هى سلوى الإنسان فى الشدة ، ومصدر بهجته وشرفه فى الرخاء . والتى لولاها لحرم الإنسان كل ما هو جميل فى الحياة وكل ما يزدان به المجتمع . ويبدو أن المحافظة على هذه الدراسات وتوسيع نطاقها يقف على أمرين : عدد العلماء ، وتزويدهم بكفايتهم من النصوص الممتازة . فأما الأمر الأول فإنا نرجو ببركة الله ، أن نظهر رغبتنا الأكيدة فى أن نكافئ أولئك العلماء الممتازين ونكرمهم وحرصنا على هذه المكافأة وذلك التكريم أكثر مما أظهرناهما من قبل ، وإن كان ذلك الحرص وتلك الرغبة هما منذ زمن بعيد مصدر سرورنا الأكبر . . . أما الحصول على الكتب ، فإنا نحمد الله أن أتاح لنا فى ذلك أيضاً الفرصة التى نستطيع بها إسداء الخير لبنى الإنسان(٤٠)

وكان ليو يظن أن الكنيسة هى التى تعين ما يفيد بنى الإنسان من كتب الأدب ، وشاهد ذلك أنه جدد مرسوم الإسكندر الذى يفرض رقابة الكنيسة على الكتب .

وبددت بعض الكتب التى جمعها أسلاف ليو حين نهب قصر آل ميديتشى (١٤٩٤) . غير أن دير سان ماركو كان قبلئذ قد ابتاع بعض هذه الكتب ، وكان ليو وهو لا يزال كردنالا قد ابتاع الكتب التى نجت من النهب بمبلغ ٢٦٥٢ دوقة (١٥٠ر٣٣ ؟ دولاراً) ونقلها إلى قصره فى رومة . ثم أعيدت

هذه المكتبة إلى فلورنس بعد موت ليو ، وسنعرف مصيرها فيما يلى من الصفحات .

وكانت مكتبة الفاتيكان قد بلغت من الضخامة حداً تحتاج معه إلى طائفة من العلماء للعناية بها . ولما جلس ليو على كرسى البابوية كان كبير أمنائها توماسو إنغيرامى Tommaso Inghirami — وهو من أبناء الأشراف ، وشاعر ، ومحدث مشهود له بالذكاء وحسن الفكاهة والتألق فى ندوات الفكهين البارعين . ثم كان إلى ذلك ممثلا ، أطلق عليه من قبيل السخرية اسم فيدرا Fedra لنجاحه فى تمثيل دور فيدرا Phaedra فى مسرحية هپوليتس Hippolytus لسنكا . ولما مات فى حادثة من حوادث شوارع المدينة عام ١٥١٦ حل محله فى أمانة المكتبة فلبو بروالدو الذى قسم قلبه وعواطفه بين تاسيتوس والحظية العالمة إمپيريا Imperia ، وكتب شعراً لاتينياً بلغ من الجودة أن كانت له ست ترجمات إلى اللغة الفرنسية إحداها بقلم كليمان مارون Clement Maron وكان چيرولامو أليندرو Girolamo Aleandro الذى أصبح أميناً فى عام ١٥١٩ ، رجلا حاد الطبع ، غزير العلم ، عظيم المواهب ، يتكلم اللغات اللاتينية ، واليونانية ، ويتكلم العبرية بطلاقة جعلت لوثر يخطئ فى أصله فيظنه يهودياً . وقد حاول فى مجلس أجزبرج (١٥٢٠) أن يصد تيار البروتستنتية ، وكانت حماسته فى ذلك أقوى من حكمته . وقد رفعه بولس الثالث إلى مقام الكردنالية (١٥٣٥) ، ولكن أليندر توفى بعد أربع سنين من ذلك الوقت لإسرافه فى عنايته بصحته وفى تعاطى الأدوية[٤١] . وقد غضب أشد الغضب لأنه أعفى من عمله حين بلغ الثانية والستين من العمر ، وأساء إلى أصدقائه باعتراضه الشديد على تصرفات القدرة الإلهية[٤٢] .

وكثرت المكتبات الخاصة وقتئذ فى رومة ، فقد كان للإسكندر نفسه مجموعة عظيمة من الكتب أوصى بها إلى البندقية ، وكان عند الكردنال

جريمانى محسود إرزمس ثمانية آلاف مجلد مكتوبة بلغات مختلفة أوصى بها إلى كنيسة سلڤادور بمدينة البندقية حيث دمرتها النار . وكان للكردنال سادوليتو مكتبة قيمة وضعها فى سفينة ليرسلها إلى فرنسا ، فغرقت فى البحر . وكانت مكتبة بمبو غنية بما فيها من دواوين أشعار پروڤنسال والمخطوطات الأصلية مثل مخطوطات كتب پترارك ؛ وانتقلت هذه المجموعة إلى أربينو ، ومنها انتقلت إلى الفاتيكان . وحذا العلمانيون الأغنياء أمثال أجستينو تشيجى Agostino Chigi وبندو ألتوڤيتى Bindo Altoviti حذو البابوات والكرادلة فى جمع ، الكتب واستخدام الفنانين ومد يد المعونة للشعراء ورجال العلم .

وكثر هؤلاء جميعاً فى رومة على عهد ليو كثرة لم يكن لها مثيل من قبل ولا من بعد . وكان كثيرون من الكرادلة أنفسهم علماء ؛ ومنهم من أصبحوا كرادلة لأنهم كانوا قبل ذلك علماء قضوا فى خدمة الكنيسة زمناً طويلا ، ونذكر من هؤلاء إجيديو كانيزيو Egidio Canisio ، وسادوليتو ، وبيبينا . وقد اعتاد معظم الكرادلة فى رومة أن يناصروا الآداب والفنون بما يكافئون بها أصحابها على إهدائهم أعمالهم ومؤلفاتهم ، ولم يكن يفوق بيوت الكرادلة رياريو ، وجريمانى ، وبيبينا ، واللدوزى ، وبتروتشى ، وفارنيزى وسدرينى ، وسانسڤرينو ، وجنلساجا ، وكازينيو ، وجوليليوده ميديتشى لم يكن يفوق بيوت هؤلاء إلا بلاط البابوات بوصفه ملتقى أصحاب المواهب العقلية والفنية فى المدينة . وقد كان لكستجليونى الوديع الطبع الدمث الخلق الذى كسب به صداقة رفائيل المحب الودود وميكل أنجيلو الصارم العنيد ، كان لكستجليونى هذا ندوة متواضعة خاصة به .

وكان ليو بطبيعة الحال أكبر المناصرين على الإطلاق ، فلم يكن أحد فى مقدوره أن ينشئ نكتة شعرية لاتينية يخرج من عنده دون عطاء . وكان العلم فى أيامه يؤهل صاحبه ، كما كان يؤهله فى أيام نقولاس الخامس

لمنصب من المناصب الرسمية الكبيرة فى الكنيسة ، وأضيف الشعر إلى العلم فى أيام ليو . فأما أصحاب المواهب الصغرى فكانوا يصبحون كتبة ، ومختزلين ، وأما من هم أكبر من هؤلاء موهبة فكانوا يصبحون قساوسة فى الكنائس الكبرى ، وأساقفة ، وكبار موثقين ؛ وأما الممتازون منهم أمثال سادوليتو ، وبيينا ، فقد صاروا كرادلة . وترددت أصداء خطب شيشرون وبلاغته فى رومة مرة أخرى ، وكان أسلوب الرسائل يعلو ويهبط بانتظام كأنه الألحان الموسيقية ، كما كان شعر ڤرچيل وهوراس ينساب من ألف رافد ورافد إلى نهر التيبر ملتقاه الطبيعى . وقد حدد بمبو نفسه مستوى أسلوب الكتابة ، فقد كتب إلى إزبلا دست يقول : « أن يخطب الإنسان كما كان يخطب شيشرون خير له من أن يكون بابا[٤٣] » . وبز صديقه وزميله ياقوبو سادوليتو معظم الكتاب الإنسانيين بأن جمع بين الأسلوب اللاتينى البليغ والخلق الذى لا تشوبه شائبة . وكان بين كرادلة ذلك العصر كثيرون من ذوى الاستقامة والأخلاق الفاضلة ، وكانت الكثرة الغالبة من كتاب عصر ليو الإنسانيين أفضل أخلاقاً وأرق مزاجاً من أمثالهم فى الجيل الذى قبله[٤٤] ، وإن كان بعضهم قد ظلوا وثنيين فى كل شىء ما عدا عقيدتهم الرسمية ، ولقد كان من القوانين غير المسطورة ألا ينطبق سيد مهذب بكلمة نقد للكنيسة المتسامحة من الناحية الخلقية السخية فى مناصرة العلم والأدب والفن مهما تكن عقائده أو شكوكه .

وقد اجتمعت هـــذه الصفات كلها فى برناردو دوفيدسى دا بيينا Bernardo Dovizi da Bibbiena — فقد كان عالماً ، وشاعراً ، وكاتب مسرحيات ، ودبلوماسياً ، وخبيراً فى الفن ، ومحدثاً ، ووثنياً ، وقساً ، وكردنالا ؛ غير أن الصورة التى رسمها رفائيل له لم تظهر إلا جزءاً قليلا منه — عينيه الخبيثتين وأنفه الحاد ؛ ذلك أنها غطت صلعته بقبعة حمراء ،

كما غطت مرحه بوقار لم يكن من عادته . وكان خفيف الدم ، والحديث : والروح ، يفر من صروف الدهر كلها بابتسامة . ولما استخدمه لورندسو الأكبر أميناً له ومربياً لأبنائه ، اشترك مع هؤلاء الأبناء فى الهجرة التى حدثت عام ١٤٩٤ ؛ ولكنه دل على مهارته بذهابه إلى أربينو حيث فتن هذه الدائرة المتحضرة بنكاته الشعرية ، وأنفق بعض فراغه فى كتابه مسرحية بذيئة تدعى كالندرا Calandra وتمثيلها (حوالى عام ١٥٠٥) ، وهذه المسرحية هى أقدم المسرحيات الإيطالية النثرية . واستدعاه يوليوس الثانى إلى رومة ، وعمل برناردو لانتخاب ليو بابا بأقل قدر من الجلبة والاحتكاك ، فجازاه ليو على هذا بأن عينه من فوره كبير الموثقين الرسوليين ، ثم عينه فى اليوم الثانى صراف البيت البابوى ، ولم تمض ستة أشهر حتى عينه كردنالا . ولم تمنعه مناصبه السامية من أن يضع فى خدمة ليو خبرته العظيمة بالفنون وتنظيم مواكبه فى الحفلات . ومثلت مسرحيته فى حضرة البابا واستمتع بها ولم يعترض عليها . ولما أرسل قاصداً رسولياً إلى فرنسا ، شغف حبا بفرانسس الأول ، وكان لا بد من استدعائه لأنه أرق حساسية من أن يصلح للمناصب الدبلوماسية ، وزخرف له رفائيل حمامه بصورة **تاريخ فينوس وكيوبد** وهى طائفة من الصور تروى انتصار الحب ، وكلها تقريباً مرسومة على طراز صور مدينة بمبى القديم ، وتقحم المسيحية فى عالم لم يسمع قط بالمسيح ؛ وكان الكردنال نفسه هو الذى اختار هذه الزخارف . وتظاهر ليو بأنه لم يلاحظ شذوذ بيبينا الجنسى وظل وفياً له إلى آخر أيامه .

وكان ليو يحب التمثيل — يحب الملاة بجمع أشكالها ودرجاتها من أبسط الهزليات الماجنة إلى أكثر الملاهى غموضا كمسرحيات ببينا ومكيفلى . وقد افتتح فى أول سنة من ولايته دار تمثيل على الكپتول ، شهد فيها عام ١٥١٨

تمثيلا لمسرحية أريستو Ariosto المسماة سپوزيتى Suppositi وضحك من كل قلبه من النكات الملتبسة المعانى التى كانت تتفرع من حبكتها — كالعبارات التى يلقيها شاب من الشبان ليغوى بها فتاة(٤٥) . ولم يكن هذا التمثيل المطرب تمثيلا لمسالى فحسب ، بل كان يشمل فوق ذلك وضع مناظر مسرحية فنية (وكان الذى رسمها فى هذه المسرحية بالذات رفائيل نفسه) ، ورقصا فنيا ، وموسيقى بين الفصول تتكون من أغان وفرقة من العازفين على العود ، والكمان ، وأرغن صغير ، والنافخين فى القرون ، والقرب ، والقيف .

وقد كُتب فى عهد ليو كتاب من أكبر الكتب التاريخية فى عهد النهضة ، كتبه پاولو چيوڤيو . وكان پاولو هذا من أبناء كومو Como ، وكان يمارس فيها وفى ميلان وروما صناعة الطب ، ولكن الحماسة الأدبية التى انبعثت فى البلاد عندما جلس ليو على كرسى البابوية أوحت إليه بأن يخصص ساعات فراغه لكتابة تاريخ العصر الذى يعيش فيه — من غزو شارل الثامن لإيطاليا حتى ولاية ليو — وأن يكتبه باللغة اللاتينية . وسمح له بأن يقرأ القسم الأول من هذا الكتاب على ليو ، فلما سمعه قال بكرمه المعتاد إنه أفصح وأظرف ما كتب فى التاريخ منذ عهد ليڤى Livy ، وأجازه عليه بأن خصص له معاشا من فوره . ولما توفى ليو ، استخدم چيوڤيو ما أسماه « قلمه الذهبى » فى كتابة ترجمة لحياة ليو شاد فيها بنصيره الراحل كما استخدم « قلمه الحديدى » للشكوى من البابا أدريان السادس الذى لم يعبأ به . وواصل فى هذه الأثناء الكدح فى تاريخ عصره حتى وصل به آخر الأمر إلى عام ١٥٤٧ . ولما نهبت رومة فى عام ١٥٢٧ أخفى المخطوط فى إحدى الكنائس ، ولكن أحد الجنود عثر عليه ، وطلب إلى المؤلف أن يبتاع كتابه ؛ ولكن كلمنت السابع أنقذ پاولو من هذه المذلة إذ أقنع اللص بأن يقبل بدل المال يؤدى إليه فورا ، منصباً فى أسپانيا ؛ وعين

چيوڤيو فى الوقت نفسه أسقفا لنوتشيرا Nocera . وأثنى الناس على كتاب التاريخ وعلى التراجم التى أضيفت إليه لأسلوبه السلس الواضح ، ولكنهم عابوا عليه عدم العناية بتحرى الحقائق ، والتحيز الظاهر فيما يصدره من أحكام . وقد أقر چيوڤيو فى صراحة وعدم مبالاة بأنه يمدح أشخاص قصته إذا كانوا هم أو أقاربهم قد سخوا عليه ، وأنه كان يندد بهم إذا كان هؤلاء قد ضنوا عليه بالعطاء .

الفصل الرابع

الشـــعراء

لقد كان الشعراء أعظم مفاخر ذلك العصر ، وكان كل إنسان فى رومة — من البابا نفسه إلى مهرجيه — يقرض الشعر ، كما كان يقرضه كل إنسان فى اليابان فى عهد الساموراى Samurai ، من الفلاح إلى الإمبراطور ، وكان كل إنسان تقريبا يصر على أن يقرأ آخر أبيات قالها إلى البابا السمح . وكان البابا يحب المهارة فى الارتجال ، وكان هو نفسه بارعا فى هذا ؛ وكان الشعراء يتبعونه أينما ذهب بقوا فيهم وقصائدهم الطوال ، وكان هو فى العادة يجيزهم عليها بطريقة ما ، وإن كان فى بعض الأحيان يكتفى بأن يرد عليها بارتجال بعض النكت الشعرية اللاتينية . وقد أهدى له ألف كتاب ، أجاز أنجيلو كويتشى على واحد منها بأربعمائة دوقة (٥٠٠٠ ؟ دولار) ؛ لكنه حين أهدى إليه چيوڤنى أو جوريلى Giovanni Augurelli رسالة بالشعر عنوانها كريسوپيا Chrysopoeia — أى فن صنع الذهب باستخدام الكيمياء — أرسل إلى المؤلف كيسا خلوا من النقود . ولم يكن يجد متسعا من الوقت يقرأ فيه جميع الكتب التى قبل أن تهدى إليه ؛ وكان من هذه الكتب المهداة التى لم يقرأها طبعة من ديوان روتليوس ناماتانوس Rutitus Namatianus — وهو شاعر رومانى عاش فى القرن الخامس الميلادى — كان يدعو إلى مقاومة المسيحية لأنها فى رأيه سم مضعف للأعصاب ، ويطالب بالعودة إلى عبادة الآلهة الوثنية القوية المتصفة بصفات الرجولة(٤٧) . أما أريستو — الذى ربما بدا لليو أنه يجد ما يكفيه من العناية فى فيرارا — فلم يكافئه إلا بمرسوم بابوى يحرم سرقة شعره . وبَرِم أريستو من هذا وابتأس لأنه كان يرجو أن ينال مكافأة تتناسب مع طول ملحمته ؛

ولما خسر ليو أريستو قنع من فوره بشعراء أقل منه لألاء وأقصر نَفَسا ؛ وكثيراً ما كان سخاؤه يضله فيؤدى به إلى مكافأة ذوى المواهب السطحية نفس المكافأة التى يمنحها العباقرة . من ذلك أن جيدوپستومو سلفسترى Guido Postumo Sitvestri ، أحد أشراف بزارو ، كان قد قاتل بعنف ، وكتب بعنف ، ضد الإسكندر ويوليوس لاستيلائهما على پزارو وبولونيا . فلما ارتقى ليو عرش البابوية بعث إليه بقصيدة ظريفة يمتدحه فيها ويوازن بين سعادة إيطاليا فى عهد البابا الجديد ، وما كانت عليه من البؤس والاضطراب فى العهود السابقة . وقدر له البابا عمله وأجازه عليه بأن رد له ما صودر من ضياعه ، واتخذه رفيقا له فى صيده . لكن چيدو مات بعد قليل من ذلك الوقت ، ويقول بعض معاصريه إنه مات من كثرة ما كان يتناوله من الطعام على مائدة ليو(٤٨) . وأسرع أنطونيو تيبلديو Antonio Tebaldeo ، الذى كان قد نال بعض الشهرة فى قول الشعر فى ناپلى ، إلى رومة عقب انتخاب ليو ، ونال منه (كما تقول إحدى الروايات غير الموثوق بها) خمسمائة دوقة جزاء له على نكتة شعرية مشهية(٤٩) ، وسواء كانت هذه الرواية صادقة أو كاذبة فإن البابا عينـــه مشرفا على جسر سورجا Sorga وجمع المكوس ممن يعبرونه حتى « يستطيع تيبلديو بهذا أن يعيش عيشة راضية »(٥٠) . ولكن يبدو أن المال . الذى قد يعين على إنماء مواهب العلماء ، قلما يشحذ عبقرية الشعراء . فأخذ تيبلديو يكتب قصائد المدح ، وأصبح يعتمد بعد موت ليو على صدقات بمبو ، ولم يعد يبارح فراش النوم وإن كان لا يشكو من شىء إلا من فقد شهيته لشرب الخمر » كما يقول صديق له . وطالت حياته وهو مستريح مستلق على ظهره ، وتوفى فى الرابعة والسبعين من عمره . ونبغ فرانتشيسكو ماريا ملدسا Francesco Maria Molza من أهل مودينا بعض النبوغ فى الشعر قبل ارتقاء ليو ، ولكنه لما سمع بحب البابا للشعر

وسخائه على الشعراء ، ترك أهله ، وزوجته ، وأبناءه ، وهاجر إلى روما ، حيث أنساه إياهم افتتانه بسيدة رومانية . وقال فى روما قصيدة رعوية قصيرة بليغة اسمها حورية تيبرينا La ninfa Tiberina يمتدح بها فوستينا منتشينى Faustina Mancini ؛ وهجم عليه أحد المجرمين وأصابه بجرح بليغ . وغادر الرجل روما بعد وفاة ليو ، وانضم فى بولونيا إلى حاشية الكردنال إپوليتو ده ميديتشى ، الذى كان فى بلاطه ، على حد قولهم — ثلثمائة شاعر ، وموسيقى وفكِه . وكانت قصائد ملدسو الإيطالية أظرف ما قيل من الشعر فى ذلك الوقت لا تستثنى من ذلك قصائد أريستو نفسها . وكانت أغانيه تضارع أغانى بترارك فى أسلوبها ، وتفوقها فى حرارتها ، وذلك لأن ملدسو كان يتقلب على نيران الحب واحدة بعد واحدة ، وكان على الدوام يحترق بها . ومات بداء الزهرى فى عام ١٥٤٤ .

وكان حكم ليو يزدان باثنين من كبار الشعراء أحدهما ماركنطونيو فلامينو Marcantonio Flamino الذى يظهر ذلك العهد فى أضواء سارة — يظهر عطف البابا الدائم على رجال الأدب ، ويكشف عما كان يحبو به فلامينو وناڤاچيرو Navagero وفرانكستورو Francastoro وكستجليونى من صداقة لا يحسد أحدهم عليها غيره ؛ وإن كانوا الأربعة شعراء ، كما يكشف عن الحياة النظيفة التى كان يحياها أولئك الرجال فى عصر كانت فيه الإباحية الجنسية مما تتغاضى عنه كثرة الناس . وقد ولد فلامينو فى سراڤالى Serravalle من أعمال ڤنيتو Veneto ، ووالده هو چيان أنطونيو فلامينو Gianantonia Flamino وهو أيضاً شاعر . ودرب الوالد ابنه على قرض الشعر وشجعه عليه ، مخالفاً فى ذلك ألفاً من السوابق ، وبعثه وهو فى السادسة عشرة من عمره ليهدى إلى ليو قصيدة قالها الشاب يدعو فيها إلى حرب صليبية على الأتراك . ولم يكن ليو ممن يرتاحون إلى الحروب الصليبية ، ولكنه أظهر ارتياحه لشعر الشاب ، وكفل له مواصلة التعلم فى روما . وتولاه كستجليونى

بعنايته ، وجاء به إلى أربينو (١٥١٥) ، ثم بعث الوالد بابنه فيما بعد ليدرس الفلسفة في بولونيا . ثم استقر الشاعر أخيراً في فتيربو Viterbo في رعاية الكردنال الإنجليزى رجنلدبول Reginald Pole . وامتاز عن غيره بأن رفض منصبين عاليين ، منصب أمين ليو مشتركاً فى ذلك مع سودوليتو ، ومنصب أمين لمجلس ترنت ، وكان يحصل على تأييد وهبات جمة من كثير من الكرادلة رغم ارتيابهم فى أنه يعطف على حركة الإصلاح البروتستنتى . وكان طوال تجواله كله يتوق للحياة الهادئة والهواء النظيف اللذين يجدهما فى بيت أبيه الريفى القريب من إمولا . وكانت قصائده كلها تقريباً باللغة اللاتينية كما كانت كلها تقريباً قصائد قصارا فى صور أغان ، وأناشيد رعاة ، ومراث ، وترانيم ، ورسائل للأصدقاء من طراز رسائل هوراس ، ولكنه يعود فيها مرة بعد مرة إلى حبه لمرابضه الريفية القديمة :

سأبصرك الآن مرة أخرى ، وسيبتهج ناظرى (برؤية الأشجار التى غرستها يد أبى ؛ وسيفيض قلبى فرحاً حين أتذوق قليلا من النوم الهادئ فى غرفتى الصغيرة . وكان يشكو من أنه سجين فى ضوضاء رومة وصخبها ، ويحسد صديقاً له صوره بأنه يختفى فى ملجأ قروى يقرأ « كتب سقراط » و « لا يفكر مطلقاً فى التكريم التافه الذى يمنحه إياه الجمهور الحقير »(٥٢) .

وكان يحلم بالتجوال فى الوديان الخضراء مع فلاحى فرچيل ورعاة ثيوفريطس ويتخذهم له رفاقاً . وأشد أشعاره تأثيراً هى الأبيات التى كتبها إلى أبيه وهو على فراش الموت :

« لقد عشت يا أبتاه عيشة طيبة سعيدة ، لم تكن فيها بالفقير ولا بالغنى ، حصلت فيها على كفايتك من العلم والفصاحة ، وكنت على الدوام قوى الجسم ، سليم العقل ؛ بشوشاً تقياً لا يجاريك فى تقواك أحد . حتى إذا أتممت الثمانين من عمرك انتقلت إلى شواطئ الآلهة المباركة . ارحل إليها يا أبتاه ، وخذ بعد قليل ابنك معك إلى مقعدك الأعلى فى السماء » .

وكان ماركو چيرولامو ڤيدا Marco Girolamo Vida أطوع لأغراض ليو من غيره من الشعراء . وقد ولد ماركو هذا فى كريمونا ، وأتقن اللغة اللاتينية ، وبرع فيها براعة أمكنته من أن يكتب بها كتابة ظريفة القصائد التعليمية فى فن الشعر نفسه ، أو فى تربية دود القز ، أو فى لعبة الشطرنج . وقد سر ليو من هذا سروراً حمله على أن يرسل فى طلب ڤيدا ، ويثقله بالهبات ، ويرجوه أن يتوج آداب ذلك العصر بملحمة لاتينية فى حياة المسيح . وهكذا بدأ ڤيدا ملحمة الكرستيادة Christiad التى مات ليو السعيد قبل أن يراها . وحذا كلمنت السابع حذو ليو فى رعاية ڤيدا ، وحباه بمنصب أسقف ليعيش منه ، ولكن كلمنت أيضاً مات قبل أن تنشر الملحمة (١٥٣٥) . وكان ڤيدا راهباً قبل أن يبدأها ، وأسقفاً حين فرغ منها ، ولكنه لم يستطع أن يحاجز نفسه عن الإشارات المتصلة بالأساطير اليونانية والرومانية القديمة التى كانت تملأ الجو نفسه فى أيام ليو ، وإن بدت مضطربة سخيفة فى نظر الذين أخذوا ينسون أساطير اليونان والرومان ويجعلون المسيحية نفسها أساطير أدبية . فنحن نرى ڤيدا فى هذه الملحمة يقول عن الإله الأب إنه « أبو الآلهة مسخر السحاب » ، وإنه « حاكم أوليس » ؛ ولا ينفك يصف يسوع بأنه هيروس ويأتى بالفرغونات ، وربات الانتقام ، والقنطورات ، والأفاعى الكثيرة الرءوس(*) لتطالب بموت المسيح . لقد كان هذا الموضوع النبيل خليقاً ببحر من الشعر أكثر مواءمة له بدل أن يقلد الشاعر الإنياذة . وليست أجمل الأبيات فى شعر ڤيدا هى التى يخاطب بها المسيح فى الكرستيادة ، بل هى التى يخاطب بها ڤرچيل فى فنون الشعر وهى أبيات تعز على الترجمة ولكننا سنحاول نقلها فيما يأتى :

(*) كل هذه كائنات خرافية غريبة ورد ذكرها فى الأساطير اليونانية القديمة . (المترجم)

أى مجد إيطاليا ! يا أسطع الأضواء بين الشعراء ! إنا لنعبدك بما نقدمه لك من الأكاليل والبخور والأضرحة ؛ وإليك ننشد على الدوام ما أنت خليق به من التسابيح القدسية ؛ ونستعيد ذكراك بالترانيم : مرحباً بك يا أعظم الشعراء قداسة ! إن ثناءنا عليك لا يزيد قط من مجدك ، وليس هذا المجد فى حاجة إلى أصواتنا . ألا فأقبل وانظر إلى أبنائك ، وصب روحك الدفئة فى قلوبنا الطاهرة ؛ أقبل يا أبتاه ، وامزج نفسك بأرواحنا .

الفصل الخامس

صحوة إيطاليا

كان من أسباب قوة الروح الوثنية فى ذلك العصر وجود الفن القديم فيها ونجاته من الدمار ؛ وكان بجيو ، وبيندو ، وبيوس الثانى قد نددوا بتدمير المبانى الرومانية القديمة وقاوموا هذا التدمير ، ولكنه ظل مع ذلك يجرى فى مجراه ، وأكبر الظن أنه قد ازداد حين استطاعت رومة بما تدفق فيها من المال أن تشيد عمائر جديدة أكبر من عمائرها القديمة وتستخدم فيها بقايا هذه العمائر فى عمل الجير . واستخدم بولس الثانى جدار الكلوسيوم الحجرى فى بناء قصر سان ماركو ؛ وهدم سكستس الرابع معبد هرقول وحول أحد جسور نهر التيبر إلى قذائف للمدافع ، وانتزعت المواد التى بنيت بها كنيسة سانتا ماريا مجيورى ، وفسقيتان عامتان ، وقصر للبابا فى الكويرينال ، انتزعت هذه كلها من معبد الشمس . بل إن الفنانين أنفسهم كانوا همجاً مخربين دون أن يشعروا ، فهاهو ذا ميكل أنجيلو مثلا يستخدم أحد العمد فى معبد كاستروپلكس ليصنع منه قاعدة لتمثال ماركس أورلبوس الفارس ، وها هو ذا رفائيل يأخذ جزءاً من عمود آخر فى هذا المعبد نفسه ليصنع منه تمثالا ليونان (يونس) ، واقتلعت المواد اللازمة لبناء معبد سستينى من تابوت هدريان ، وأخذ الرخام الذى شيدت به كنيسة القديس بطرس كله تقريباً من المبانى القديمة ؛ وانتزعت إلى هذا الضريح الجديد نفسه أحجار القدمة(*) ؛ والدرج ، والقوصرة من هيكل أنطونيوس وفوستينا ، وأقواس النصر التى أقيمت لفابيوس مكسيموس وأغسطس ، وهيكل

(*) الجدار المحيط بالرملية التى يتجالد فيها المتجالدون . (المترجم)

رميولوس بن مكسنتيوس . وهدم البناءون الجدد أو جردوا فى أربع سنين بالضبط (من ١٥٤٦ — ١٥٤٩) هياكل كاسترويلكس ، ويوليوس قيصر ، وأغسطس(٥٥) . وكانت حجة أولئك الهدامين أنه قد بقى فى البلاد بعد هذا الهدم كفايتها من الآثار الوثنية ، وأن الخربات القديمة المهملة تشغل فراغاً عظيم القيمة ، وتحول دون إعادة بناء المدينة بنظام حسن ، وأن المواد التى يستولون عليها كانت فى معظم الأحوال تستخدم فى تشييد كنائس مسيحية لا تقل عن هذه الآثار القديمة جمالا ، وهى بطبيعة الحال أحب منها إلى الله . وكانت الأتربة التى تراكمت فوق هذه الآثار على مدى الأيام دون أن تستبين العين فعلها قد دفنت فى الوقت عينه السوق الكبرى وغيرها من الأماكن التاريخية تحت طبقات متتالية من الثرى ، والأنقاض ، والنبات ، حتى أصبحت السوق تحت مستوى ما يحيط بها من أرض المدينة بثلاث وأربعين قدماً ؛ وقد ترك موضعها حتى أصبح معظمه أرضاً للرعى سميت « حقل البقر » Campo Vaccino . ألا إن الزمان هو أكثر عوامل التخريب والتدمير .

وكان تدفق الفنانين والكتاب الإنسانيين على رومة سبباً فى إبطاء سرعة التدمير ، وفى إيجاد حركات تهدف إلى المحافظة على الآثار القديمة . وأخذ البابوات يجمعون آثار النحت الوثنية وقطعاً من الأبنية القديمة يضعونها فى متحف الفاتيكان والكپتول ، كما أخذ بجيو ، وآل ميديتشى ، وبجنيوس ليتوس ، ورجال المصارف ، والكرادلة يجمعون كل ما يستطيعون الحصول عليه من الآثار القديمة ذات القيمة ليكونوا منها لأنفسهم مجموعات خاصة . ومن أجل هذا اتخذت كثير من تحف النحت القديمة طريقها إلى قصور الأفراد وحدائقهم ؛ وبقيت فيها حتى القرن التاسع عشر ؛ ووجدت من ثم أسماء مثل فاون(*) بربرينى ، وعرش لدوڤيزى Ludovisi و هرقول فرنيزى .

(*) Faun إله الحراج عند الرومان . (المترجم)

واهتزت رومة كلها من نشوة الفرح حين كشف المنقبون (١٥٠٦) بالقرب من حمامات تيتوس عن مجموعة من التماثيل جديدة كثيرة التعقيد. وأرسل يوليوس الثانى جوليانو دا سنجاليو لفحصها، وذهب أيضاً ميكل أنچيلو لهذا الغرض، ولم يكد جوليانو يبصر التمثال حتى صاح من فوره: «هذا هو اللاكوئن الذى ذكره بلنى» واشتراه يوليوس ليضعه فى قصر بلڤدير، ووظف لمن عثر عليه ولابنه معاشاً سنوياً طول حياتهما قدره ٦٠٠ دوقة (٧,٥٠٠ ؟ دولار)؛ ذلك أن روائع النحت القديمة قد أضحت فى ذلك الوقت عظيمة القيمة. وشجعت هذه المكافآت المنقبين عن التحف الفنية؛ وحدث بعد عام من ذلك الوقت أن عثر واحد منهم على مجموعة أخرى هى **هرقول** مع **الطفل تلفوس**، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى عثر على **أوريانا النائمة**، وأضحى الحرص على كشف التحف الفنية القديمة لايقل قوة عن التحمس للكشف عن المخطوطات القديمة. وكانت هاتان العاطفتان صفتين قويتين من صفات ليو. فى أيام ولايته كشف عما يسمونه **الأنطينوس** وعن تمثالى النيل والتيبر، وقد وضع هذان التمثالان فى متحف الفاتيكان. وكان ليو يبتاع بالمال كلما استطاع من الجواهر، والحلى المنقوشة، وغيرها من روائع الفن المتفرقة التى كانت فى وقت ما ملكاً لآل ميديتشى، ويضعها كلها فى قصر الفاتيكان. وأخذ ياقوبو مدسوكى Iacopo Mazochki وفرانتشيسكو ألبرتينى بفضل مناصرته ينقلان مدى أربعة أعوام كل مايعثران عليه من نقوش على الآثار الرومانية، وواصلا بذلك ما قام به قبلهما الراهب چيوكندو وغيره من الرهبان. ثم نشرا هذه النقوش باسم **النقوش القديمة فى المدن الرومانية** (١٥٢١)، وكان نشرها حادثاً هاماً فى علم الآثار الرومانية القديمة.

وفى عام ١٥١٥ عين ليو رفائيل مشرفاً على الآثار القديمة؛ ووضع

المصور الشاب بمعونة مدسوكى ، وأندريا ڤلڤيو ،وفابيو كلفا ، وكستجليونى ؛ وغيرهم من الفنان خطة أثرية واسعة ؛ وفى عام ١٥١٨ وجه إلى ليو رسالة يستحلف فيها هذا الحبر الجليل أن يستعين بسلطان الكنيسة على حفظ جميع الآثار للرومانية القديمة . وقد تكون ألفاظ الرسالة هى ألفاظ كستجليونى ، أما روحها القوية ففيها نغمة رفائيل .

« إنا حين نفكر فى قداسة تلك الأرواح القديمة ... وحين نبصر جثة هذه المدينة الجليلة ، أم العالم وملكته ، وقد تدنست هذا ...ن الشائن ... لا يسعنا إلا نتصــور كم من الأحبار قد أجازوا تخريب المعابد ، والتماثيل ، والعقود وغيرها من المبانى القديمة ، التى تنطق بمجد من شادوها ! ... ولست أتردد فى القول إن رومة الجديدة هذه بأجمعها التى نشاهدها أمامنا الآن ، مهما بلغت من العظمة ومهما حوت من جمــال وازدانت بالقصور ، والكنائس ، وغيرها من الصروح الفخمة — لست اترد فى القول إن رومة هذه قد أمسكها الجير الذى صنع من الرخام القـــديم » ...

وتذكرنا هـــذه الرسالة بمقدار ما حدث من التدمير حتى فى خلال السنوات العشر التى قضاها رفائيل فى رومة ؛ وهى تلقى نظرة عامة على تاريخ العمارة ، وتندد بالهمجية الفجة التى كان يتسم بها الطرازان الرومنسى والقوطى (واللذين يسميان فيها القوطى التيوتونى) ، وتمجد الأنماط اليونانية — الرومانية ، وتراها نماذج الكمال وحسن الذوق ، وتقترح الرسالة أخيراً تكوين هيئة من الخبراء ، وتقسيم رومة إلى الأقسام الأربعـــة عشر التى حددها أغسطس فى الزمن القديم ، على يمسح كل قسم منها مسحا دقيقاً وأن يسجل كل ما فيه من الآثار القديمة . غير أن موت رفائيل المبكر الذى أعقبه بعد قليل موت ليو قد أخر تنفيذ هذا المشروع الجليل زمناً طويلا .

ظهر تأثير هـــذه المخلفات المكتشفة فى كل فرع من فروع الفن.

والتفكير ، وتأثر بها برونلسكو ، وألبرتى ، وبرامنتى ؛ ووصل هذا الأثر إلى الدرجة العليا حتى لم يكن الفن عند پلاديو Palladio إلا صورة أخرى من الأشكال القديمة تكاد تكون خاضعة لها كل الخضوع . وكان جبرتى ودوناتيلو قد حاولا من قبل أن يتخذا الأشكال القديمة نماذج لهما ، فلما جاء ميكل أنجيلو وصل فى تقليده الفن القديم إلى درجة الكمال فى تمثال بروتس ، ولكنه بقى فيهما عداه هو ميكل أنجيلو نفسه صاحب النفس القوية غير الخاضعة للفن القديم . وحول الأدب علوم الدين المسيحية إلى أساطير وثنية واستبدل أو ليس بالجنة ، أما فى التصوير فقد ظهر تأثير الفن القديم فى صورة موضوعات وثنية وأجسام عارية وثنية لم تخل منها لموضوعات المسيحية نفسها . وحسبنا دليلا على هذا أن رفائيل وهو نفسه محبوب البابوات قد رسم صوراً لسيكى Psyche(*) ، وڤينوس وكيوپد على جدران القصور ؛ وكانت الرسوم القديمة والزخارف العربية تعلو العمد وتمتد على الطنف والأفاريز فى ألف بناء من أبنية رومة .

وظهر انتصار الفن القديم بأجلى مظاهره فى كنيسة القديس بطرس الجديدة ؛ وقد عين ليو فيها برامنتى : رئيساً للأعمال . واحتفظ به فى هذا المنصب أطول وقت مستطاع ؛ ولكن المهندس المعمارى الطاعن فى السن أقعده داء الرثية ، ولذلك عهد إلى الراهب چيوكندو أن يساعده فى عمل الرسوم التخطيطية ؛ بيد أن چيوكندو نفسه كان يكبر برامنتى الذى كان فى السبعين من عمره ، بعشر سنين . وفى شهر يناير من عام ١٥١٤ عين ليو جولياتو داسنجلو ، وهو أيضاً فى سن السبعين ، للإشراف على العمل ؛ ولما حضرت برامنتى الوفاة حث البابا أن يعهد بالمشروع إلى رجل فى مقتبل العمر ، وذكر له اسم رفائيل بالذات . وارتأى ليو أن يحل المشكلة حلا وسطا ؛ فعين فى شهر أغسطس من عام ١٥١٤ الشاب رفائيل

(*) فى الأساطير الرومانية القديمة أميرة حسناء دبت الغيرة من جمالها فى قلب فينوس نفسها . (المترجم) .

والشيخ الراهب چيوكندو مديرين مشتركين للمشروع ، وقضى رفائيل بعض الوقت يعمل بهمة وحماسة فى العمل الذى لم يكن يتفق مع مزاجه وهو عمل المهندس المعمارى ؛ وقال إنه لن يعيش بعد ذلك الوقت إلا فى رومة يغريه بهذا « حبه فى بناء كنيسة القديس بطرس . . . أعظم بناء رآه الإنسان حتى ذلك الوقت » ؛ ثم يقول بعد ذلك بتواضعه المعروف .

« ستبلغ تكالف المشروع مليون دوقة ذهبية ، وقد أمر البابا بتخصيص ٦٠,٠٠٠ للعمل ، وهو لا يفكر فى زيادتها ؛ وقد ضم إلىّ راهبا تعوزه الخبرة تجاوز سن الثمانين ، وهو يرى أن هذا الراهب لن يعيش طويلا ، ولهذا اعتزم قداسته أن يجعلنى أفيد من علم هذا الصانع الممتاز حتى أبلغ أعظم درجة من الكفاية فى فن المعمار ، الذى يعلم الراهب من أسراره ما لا يعرفه سواه . . . . والبابا يستقبلنا ويستمع إلينا كل يوم ، ويظل وقتاً طويلا يحدثنا عن مشروع البناء .

وتوفى الراهب چيوكندو فى أول شهر يوليو من عام ١٥١٥ وفى اليوم نفسه انسحب جوليان داسنجلو من جماعة المصممين . وبذلك أصبح الرئيس الأعلى للعمل كله ، فرأى أن يستبدل بتخطيط برامنتى لقاعدة الكنيسة تخطيطا آخر على شكل صليب لاتينى غير متساوى الأذرع ، ووضع تصميما لسقف مقبب أثبت أنطونيو داسنجلوا (ابن أخى جوليانو) أنه ثقيل لا تتحمله العمد التى يقوم عليها . وفى عام ١٥١٧ عين أنطونيو مهندساً معمارياً مشتركا مع رفائيل ، ولكن الخلاف نشأ بينهما فى كل خطوة من خطوات العمل ، وكثرت فى الوقت عينه أعمال رفائيل فى التصوير ، ففقد اللذة فى المشروع . وحدث أيضاً أن أعوز المال ليو ، فحاول أن يجمع ما يستطيعه منه ببيع صكوك الغفران ، وكانت نتيجة هذا أن اصطدم بدعاة الإصلاح الدينى الألمانى (١٥١٧) . ولم يتقدم بناء كنيسة القديس بطرس إلا بعد أن عهد إلى ميكل أنچيلو بالعمل فى عام ١٥٤٦ .

الفصل السادس

ميكل أنچيلو وليو السادس

كن يوليوس الثانى قد ترك أموالاً لمنفذى وصيته ليستخدموها فى إتمام القبر الذى صممه له ميكل أنچيلو أو بالأحرى لينفذوا صورة مصغرة من هذا التصميم . وأخذ الفنان يقوم بهذا الواجب خلال السنين الثلاث الأولى من بابوية ليو ، وتلقى من منفذى الوصية فى تلك السنين ٦١٠٠ دوقة (٢٧٦ر٢٥٠٠ ؟ دولاراً) . والراجح أن معظم الأجزاء الباقية من هذا الأثر حتى الآن قد أنشئت فى ذلك الوقت هى وتمثال **قيام المسيح** القائم فى كنيسة سانتا ماريا وهو تمثال لشخص رياضى عار وسيم ستر فيما بعد حقواه بغطاء من البرنز ليتفق مع ذوق عصر من ستروه ، ويصف ميكل أنچيلو فى خطاب له كتبه فى شهر مايو من عام ١٥١٨ كيف جاء سنيورلى **Signorelli** إلى مرسمه ، واقترض منه ثمانين جويلينا (٨٠٠٠ ؟ دولار) لم يردها له أبداً ، ثم يضيف إلى ذلك قوله : « ورآنى أعمل فى تمثال من الرخام يبلغ ارتفاعه أربع أذرع ويداه مشدودتان وراء ظهره »(٥٧) . وأكبر الظن أن هذا التمثال هو أحد تماثيل **الأسرى** وهى تماثيل يراد بها تصوير المدن أو الفنون التى أسرها البابا المحارب ؛ وفى متحف اللوفر تمثال ينطبق عليه وصفها : فهو يمثل شخصاً مفتول العضلات عارياً إلا من قطعة من النسيج تستر حقويه ، ويداه مربوطتان خلف ظهره برباط بلغ من شدته أن الحبال غائرة فى لحمه . ويرى بالقرب منه أسير أجمل منه عار إلا من عصابة ضيقة حول الصدر ؛ وهنا لم يتغال الفنان فى إبراز العضلات ، والجسم يجمع بين الصحة والجمال متناسبين ويظهر فيه الفن اليونانى بأكمل مظاهره . وفى المجمع العلمى

بمدينة فلورنس تماثيل لأربعة من العبيد ، كان يقصد بها فيما يظهر أن تكون عمداً فى صورة نساء يستند عليها ما فوقها من بناء القبر . ويوجد هذا القبر الناقص الآن فى كنيسة يوليوس فى سان پيترو ببلدة ڤنكولى Vincoli ، وهو يمثل عرشاً فخماً ، ذا عمد منحوتة نحتاً ظريفاً ، وعليه صورة موسى جالساً — وهى صورة مخلوق ضخم فظيع غير متناسب الأجزاء ذى لحية وقرنين وجبهة تنم عن الغضب الشديد ، يمسك بيده ألواح الشريعة ، وإذا شئنا أن نصدق قصة بعيدة عن المعقول يرويها ڤاسارى ، فإن اليهود كانوا يشاهدون فى كل سبت وهم يدخلون الكنيسة ليعبدوا هذا التمثال ، لا على أنه من صنع البشر بل على أنه شىء إلهى »(٥٨) . ونرى ليحا عن يسار موسى وراشل عن يمينه ، وهما تمثالان يسميهما ميكل : « الحياة العاملة المفكرة » أما ما بقى من الأشكال على القبر فقد نحتها مساعده فى غير عناية . ومن هذه صورة للعذراء فوق صورة موسى ، وعند قدميها صورة يوليوس الثانى نصف متكئ ، وعلى رأسه التاج البابوى . والأثر كله عمل ناقص يمثل كدحاً غير متواصل فى سنين متفرقة ما بين ١٥٠٦ و١٥٤٥ ، وهو عمل مضطرب مرتبك ، ضخم ، غير متناسق وسخيف .

وبينما كان الفنان وأعوانه ينحتون هذه الأشكال ، لاحت لليو — ولعل ذلك كان أثناء إقامته فى فلورنس — فكرة إتمام كنيسة سان لورندسو فى تلك المدينة . وكانت هذه الكنيسة أولا ضريح آل ميديتشى ، وتضم قبور كوزيمو ، ولورندسو وكثيرين غيرهما من أفراد تلك الأسرة . وكان برونكسكو قد بنى الكنيسة ، ولكنه لم يتم واجهتها ، ولهذا طلب ليو إلى رفائيل ، وجوليانو دا سنجلو ، وباكشيو دا نيولو Baccio d'Agnolo ، وأندريا وياقوبو سانسو ڤينو أن يعرضوا عليه تصميما يضعونه لإتمام واجهتها . لكن ميكل أنجيلو بعث إلى البابا بتصميم وضعه هو ، ويظهر أنه وضعه من تلقاء نفسه ، وقبله ليو لأنه رآه أحسن من كل ما عرض عليه

ومن ثم فإنه لا يصلح أن يوجه اللوم إلى البابا ، كما وجهه إليه الكثيرون ، لأنه ألهى ميكل عن عمله فى قبر يوليوس . وبعث ليو بميكل إلى فلورنس ومنها ذهب إلى كرارا ليقطع من محاجرها أطنانا من الرخام . ولما عاد إلى فلورنس استأجر مساعدين لمعاونته فى العمل ، ثم تشاحن معهم ، وردهم على أعقابهم ، وقضى بعض الوقت يفكر ولا يعمل شيئاً فيما أتى عليه من عمل لا يستريح له ، هو عمل المهندس المعمارى . وحدث أن استولى الكردنال جويليو ابن عم ليو على بعض الرخام الذى لم يكن ينتفع به ليستخدمه فى الكنيسة ؛ فغضب لذلك ميكل ولكنه ظل يتباطأ فى العمل ، حتى إذا كان عام ١٥٢٠ أعفاه ليو أخيراً من العقد الذى وقعه ، ولم يطلب حساباً عن المال الذى دفعه مقدماً للفنان . ولما أن طلب سيستيانو دل پيمبو إلى البابا أن يعهد إلى ميكل إنچيلو بعمل آخر ، لم يستجب ليو لهذا الطلب . فقد كان يقر لميكل أنچيلو بتفوقه فى الفن ، ولكنه قال : « إنه رجل مزعج ، كما ترى ذلك أنت نفسك ، ولا أرى سبيلا إلى الاتفاق معه » : ونقل سيستيانو هذا الحديث إلى صديقه ، وأضاف إليه قوله : لقد قلت لقداسته إن أساليبه المزعجة لم تسبب أذى لأى إنسان ، وإن إخلاصك للعمل العظيم الذى وهبت نفسك له هو وحده الذى يجعلك تبدو مزعجاً لغيرك من الناس »[٥٩] .

ترى ما هذا الإزعاج الذى اشتهر به ميكل آنچيلو . إنه أولا وقبل كل شيء جهده العظيم ، وهو تلك القوة العاصفة ، المضنية التى كانت تعذب جسم ميكل أنچيلو ، ولكنها أبقت عليه مدى تسع وثمانين سنة ؛ وهى ثانياً قوة فى الإرادة ظلت تسخر هذا الجهد وتوجهه نحو هدف واحد — هو الفن — وتغفل كل ما عداه تقريباً ، والجهد الذى توجهه إرادة جامعة موحدة يكاد يكون هو التعريف الصحيح للعبقرية ، ولقد كان ذلك الجهد الذى يرى فى الحجر الذى لا شكل له تحدياً له ، ثم ينشب فيه مخالبه ، ويدقه بمطارقته ،

ويحفره بمثقبه حتى ينكشف عن شيء ذي معنى ، هو نفس القوة التي اكتسحت أمامها وهي غاضبة كل ما يحولها عن غرضها من سفاسف الحياة ، فلا تفكر في الملبس ، ولا النظافة ، ولا المجاملات السطحية ، ثم أخذت تتقدم نحو غايتها تقدماً إن لم يكن أعمى فقد كان على عينيه غماء ، يسير فوق وعود حانثة ، وصداقات خاسرة ، وصحة منهوكة ، وأخيراً فوق روح محطمة ، تترك الجسم والعقل مهشمين ، ولكنها تنجز العمل — تنجز أروع الصور ، وأروع الآثار المنحوتة ، وعدداً من أعظم المباني ، التي تمت في ذلك الزمن . ولقد صدق ميكل أنجيلو حين قال : « إذا أعانني الله فسأخرج أجمل ما شهدته إيطاليا في حياتها كلها »[٦٠] .

وكان ميكل أنجيلو أقل الناس وسامة في عصر اشتهر بجمال الجسم وفخامة الثياب . كان متوسط الطول ، عريض المنكبين ، نحيل الجسم ، كبير الرأس ، مرتفع الجبهة ، أذناه بارزتان إلى ما بعد وجنتيه ، وصدغاه بارزان إلى ما بعد الأذنين ، وجهه مستطيل قاتم ، وأنفه أفطس ، وعيناه صغيرتان حادتان ، وشعر رأسه ولحيته أشمط — هكذا كان ميكل أنجيلو في مقتبل عمره . وكان يرتدي ملابس قديمة ، ويتعلق بها حتى تصبح وكأنها جزء من جسمه ، ويبدو أنه كان يطيع نصف نصيحة أبيه : « أحرص على ألا تغتسل ، حُك جسمك ولكن لا تغتسل »[٦١] . وكان ، وهو الرجل الغني ، يعيش معيشة الفقراء ، معيشة الضغط لا معيشة الاقتصاد ، يأكل أي شيء تصل إليه يداه ، ويكتفي أحياناً بكسرة من الخبز . ولما كان في بولونيا ، كان هو والعمال الثلاثة الذين يشتغلون معه يسكنون في حجرة واحدة ، وينامون على سرير واحد . ويقول عنه كنديقي : « وكان وهو في عنفوان الصبا ينام في ثياب النهار ؛ لا يخلع منها شيئاً حتى حذاءيه الطويلين ، اللذين كان يحتذيهما على الدوام لأنه كان لديه استعداد الإصابة بتقلص

العضلات . . . . وكان فى بعض فصول السنة يظل محتذيا هذين الحذاءين زمناً بلغ من طوله أنه إذا خلعهما انسلخ جلده من جلد الحذاء »(٦٢) : ويقول ڤاسارى فى هذا : « إنه لم يكن يرغب فى أن يخلع ثيابه ، لا لسبب إلا لأنه لا يريد أن يضطر إلى لبسها مرة أخرى »(٦٣) .

وكان يفخر بكرم محتده المزعوم ، ولكنه كان يفضل الفقراء على الأغنياء ، والسذج على ذوى العقول الراجحة ، وكدح العامل على ما يتيحه الثراء من فراغ وترف . وكان يخرج عن معظم مكسبه ليعول أقاربه العاجزين ؛ وكان يحب العزلة ، لا يطيق أن يتحدث بضع كلمات إلى ذوى العقول الخاملة ؛ وكان أينما وجد يتابع أفكاره الخاصة . وكان قليل العناية بالنساء الحسان ، واقتصد الكثير من المال بالتزام العفة . . . . ولما أن أظهر أحد القساوسة أسفه لأن ميكل أنچيلو لم يتزوج ولم ينجب أبناء رد عليه ميكل أنچيلو بقوله : « إن الفن عندى أكثر من زوجة ، وهو زوجة سببت لى ما يكفينى من المتاعب ؛ أما أبنائى فهم الأعمال التى سأخلفها ، وإذا لم تكن هذه الأعمال ذات قيمة كبيرة ، فلا أقل من أنها ستبقى بعض الوقت »(٦٤) ولم يكن يطيق وجود النساء فى بيته ، وكان يفضل عليهن الذكور فى رفقته وفى فنه على السواء . وقد رسم النساء ولكنه رسمهن دائماً وهن أمهات ناضجات ، ولم يرسمهن وهن فتيات فاتنات ساحرات . ومن الغريب أنه هو وليوناردو كانا فيما يلوح لا يحسان بجمال المرأة الجثمانى ، مع أن معظم الفنانين كانوا يرونه منبع الجمال . بل الجمال نفسه مجسداً . وليس لدينا ما نستدل منه على أنه كان لائطاً ، ويبدو أن كل ما كان لديه من نشاط يمكن أن ينصرف إلى الاتصال الجنسى ، كان يستنفده عمله . ولما كان فى كرارا كان يقضى اليوم كله راكباً جواده ، يصدر التعليمات إلى قاطعى الحجارة ومعبدى الطريق ، ويقضى المساء فى مسكنه يدرس

الخطط فى ضوء المصباح ، ويحسب النفقات ، ويرتب أعمال الغد . وكانت تنتابه فترات يبدو فيها خاملا ، ثم تتملكه فجاءة حمى الإنتاج ، فلا يبالى بأى شىء حتى انتهاب رومة .

وقد حال انهماكه فى العمل بينه وبين صداقة الناس ، وإن كان له بعض الأصدقاء الأوفيـــاء ، « وقلما كان صديق أو غير صديق يطعم على مائدته »(٦٥) . وكان يقنع بصحبة خادمه الأمين فرانتشيسكو ديجلى أمادورى Franececesco degli Amadore الذى ظل خمسا وعشرين سنة يعنى به ، وظل كثيراً من السنين يشاركه فراشه . وقد اغتنى فرانتشيسكو من هبات ميكل ، ولما مات (١٥٥٥) تفطر قلب الفنان حزناً عليه . أما فى معاملة غيره من الناس فقد كان حاد الطبع سليط اللسان ، عنيفاً فى نقده ، سريعاً فى غضبه ، يرتاب فى كل الناس . وكان يصف بروچيا بأنه أبله ، وعبر عن رأيه فى صور فرانتشيا بأن قال لابن فرانتشيا الوسيم إن والده يرسم من الأشكال بالليل أحسن مما يرسمه منها بالنهار(٦٦) . وكان فرانتشيا يغار من نجاح رفائيل وحب الناس إياه ؛ ومع أن كلا الفنانين كان يحب صاحبه فإن مؤيديهما انقسموا إلى فئتين متشاحنتين ، حتى بلغ من أمرهم أن بعث ياقوبو سانسو ڤينو برسالة إلى ميكل يسبه فيها سباً قاذعاً ويقول : « لعنة الله على ذلك اليوم الذى تنطق فيه بأى خير عن أى إنســـان على ظهر الأرض(٦٧) » . ولقد مرت به أيام قلية ينطبق عليها هذا الوصف ، منها أن ميكل شاهد صورة لألفنسو دوق فيرارا من عمل تيشيان فقال إنه لم يكن يظن أن الفن يمكن أن يصنع هذا الصنع العجيب ، وإن تيشيان وحده هو الخليق بأن يسمى مصوراً(٦٨) . وكان مزاجه المرير ، وطبيعته المكتئبة هما المأساة التى لازمته طول حياته ، فكانت تمر به أوقات يشتد فيها اكتئابه حتى يشرف على الجنون ، استحوذ عليه خوف الجحيم حتى ظن أن فنه

من الخطايا ، وأخذ يتبرع بالبائنات إلى الفقيرات من الفتيات ليسترضى بذلك ربه الغضوب[٦٩] ؛ وسبب له إحساسه المرهف اضطراباً فى الأعصاب جلب عليه شقاء لم يكد يفارقه يوماً واحداً . انظر إلى ما كتبه لوالده فى عام ١٥٠٨ لا بعد : « لقد مضت الآن خمسة عشر عاماً منذ استمتعت بساعة واحدة من الطمأنينة »[٧٠] . ولم يستمتع بعدئذ بكثير من هذه الساعات وإن كان قد بقى من عمره ثمان وخمسون سنة .

الفصل السابع

رفائيل وليو العاشر : ١٥١٣ — ١٥٢٠

يرجع بعض السبب فى إهمال ليو لميكل أنچيلو إلى أن البابا كان يحب الرجال والنساء ذوى الخلق المعتدل المتزن ، كما يرجع بعضه الآخر إلى أنه لم يكن شديد الحب لفن العمارة أو إلى الضخامة فى الفن بوجه عام ، فقد كان يفضل الجوهرة النفيسة على الكنيسة الكبرى ، ويفضل الزخارف الصغرى على الآثار الضخمة . وقد شغل كردسا Caradossa ، وسانتى ده كولا سبا Santi de Cola Sabba ، ومشيلى نادرينى Michele Nardini وغيرهم من الصياغ بصنع الجواهر ، والنقش عليها ، والمدليات ، والنقود ، والآنية المقدسة . وترك وراءه بعد وفاته مجموعة من الحجارة النفيسة ، والياقوت ، والياقوت الأزرق (الصغير) ، والزمرد ، والماس ، واللؤلؤ ، وتيجان البابوات والأساقفة ، وترك من الصور ما تبلغ قيمته ٢٠٤,٦٥٥ دوقة أى أكثر ٢,٥٠٠,٠٠٠ دولار . على أننا يجب أن نذكر أن الجزء الأكبر من هذه الثروة قد ورثها من أسلافه ، وأنها كانت جزءاً من الكنوز البابوية التى لا يصيبها تخفيض قيمة العملة المتداولة .

وقد دعا نحو عشرين من المصورين إلى رومة ، ولكن رفائيل يكاد يكون هو المصور الوحيد الذى عنى به حقاً . لقد جرب ليوناردو ثم طرده لأنه كان فى رأيه مهذاراً مضيعاً لوقته ، وجاء الراهب بارتولميو إلى رومة فى عام ١٥١٤ ورسم صورة للقديس بطرس وأخرى للقديس بولس . ولكن هواء رومة وما فيها من حركة وما تثيره فى النفس من اهتياج لم توافقه ؛ فلم يلبث أن عاد إلى الهدوء الذى اعتاده فى دير فلورنس . وأحب ليو عمل سودوما ؛ ولكنه لم يكد يجرؤ على أن يترك هذا المستهتر يجول حراً فى قصر

الفاتيكان ؛ واستحوذ جوليو ده ميديتشى ابن عم ليو على سبستيانو دل بيمبو .

وكان رفائيل يتفق مع ليو فى مزاجه وذوقه جميعاً ، فقد كان كلاهما أبيقوريا ظريفا أحال المسيحية لذة ومتعة ، ونعم بالجنة على ظهر الأرض ، ولكن كلاهما كان يكدح بقدر ما كان يعبث . وقد أثقل ليو الفنان السعيد بالواجبات : إتمام الحجرات ، وتخطيط الرسوم المبدئية للأقمشة التى يزدان بها معبد سستينى ، وزخارف شرفات الفاتيكان ، وبناء كنيسة القديس بطرس ، وحفظ التحف الفنية الرومانية القديمة . وقبل رفائيل هذه المهام كلها ، وقبلها مسروراً بها راغباً فيها ؛ ووجد فوق ذلك من وقته متسعاً لرسم نحو عشرين من الصور الدينية ، وعدة مجموعات من المظلمات الوثنية ، ونحو خمسين من صور العذراء وغيرها كانت كل واحدة منها بمفردها خليقة بأن تأتيه بالثروة الطائلة والصيت العريض . واستغل ليو وداعته ولين جانبه . فكان يطلب إليه أن ينظم له احتفالاته ، وأن يرسم المناظر اللازمة لإحدى التمثيليات ، وأن يصور له فيلا كان يحبه(٧١) . ولعل الإجهاد والحب هما اللذان قصرا أجل رفائيل .

ولكنه كان فى الوقت الذى نتحدث عنه فى عنفوان القوة ونعيم الرخاء . وقد كتب فى أول يولية سنة ١٥١٤ رسالة إلى عمه « العزيز سيمون . . . الذى أعزه كما أعز أبى » ، وكان سيمون هذا قد لامه لإصراره على البقاء عزباً ، وكانت رسالته إلى عمه هذا تنم عن ثقته بنفسه واغتباطه بهذه الثقة قال :

أما عن الزوجة ، فلا بد أن أخبرك أنى أحمد الله كل يوم على أنى لم أتزوج بمن قدرت لى أن أتزوجها ، أو بغيرها من النساء . . . ولقد كنت فى هذه المسألة بالذات أعقل منك . . . ولست أشك فى أنك سترى الآن أننى بحالى التى أنا عليها خير مما كنت أكونه لو تزوجت . . . إن لى مالا فى رومة يبلغ ٣٠٠٠ دوقة ، ودخلا مؤكداً لا يقل عن خمسين دوقة أخرى . وقد وظف لى قداسة البابا مرتباً قدره ٣٠٠ دوقة نظير إشرافى

على إعادة بناء كنيسة القديس بطرس ، ولن ينقطع عنى هذا المرتب طول حياتى . . . . وهم يعطوننى فوق هذا كل ما أطلبه نظير عملى . ولقد شرعت فى زخرفة ردهة كبيرة لقداسة البابا سأتقاضى من أجلها ١٢٠٠ كرون ذهبى . ومن هذا ترى حتما يا عمى العزيز أننى أعمل ما يشرف أسرتى وبلدى[٧٢]

ولما بلغ الواحدة والثلاثين من عمره أدرك أنه دخل « الرجولة » فربى لحية سوداء لعله أراد أن يستر بها شبابه ؛ وعاش فى رغد ، بل قل فى أبهة فى قصر شاده برامنتى وابتاعه رفائيل بثلاثة آلاف دوقة ، وارتدى من الثياب ما يرتديه شباب الأسر الشريفة ؛ وكان إذا زار قصر الفاتيكان صحبته حاشية كحاشية الأمراء من تلاميذه وعملائه . وأنبه على هذا ميكل أنجيلو بأن قال له : « إنك تسير ومن خلفك حاشية كأنك قائد جيش » ، فرد عليه رفائيل بقوله : « وأنت تسير وحدك كالجلاد »[٧٣] . وكان لايزال وقتئذ فتى طيب القلب ، مبرءاً من الحسد ، ولكنه شديد الحرص على أن يسمو على غيره من الناس ، ولم يكن من التواضع بالقدر الذى كان عليه من قبل (وأنى له أن يكون كذلك) ولكنه كان على الدوام يقدم العون لغيره ، ويهدى أصدقاءه روائع فنه ، ولقد بلغ من أمره أن كان معيناً ونصيراً للفنانين الأقل منه حظاً وموهبة . ولكن فكاهته كانت لاذعة فى بعض الأحيان ؛ مثال ذلك أن كردنالين زارا مرسمه فى يوم من الأيام ، فأخذا يتسليان بذكر عيوب فى صوره — فقالا مثلا إن وجوه الرسل مسرفة فى الاحمرار — فرد عليهم بقوله : « لاتعجبوا من هذا ، ياصاحبى العظمة ، فلقد رسمتها بهذا الشكل عامداً ، أليس من حقنا أن نظن أن أصحابها ستعلوهم حمرة الخجل فى السماء حين يرون الكنيسة يحكمها رجال من أمثالكم ؟ »[٧٤] . على أنه مع ذلك كان يقبل ما يصحح له من أغلاط من غير أن يغضب ، كما حدث فى تصميم بناء كنيسة القديس بطرس . وكان فى وسعه أن يثنى

على طائفة من الفنانين بتقليد روائع فنهم ، دون أن يفقد مع ذلك استقلاله وما يمتاز به من موهبة الابتكار ، ولم يكن فى حاجة إلى الوحدة يرجع فيها إلى نفسه .

على أن أخلاقه لم تسم كما سمت آدابه ؛ ولم يكن فى مقدوره أن يصور النساء بتلك الصور الجذابة لو لم يكن قد افتتن بمحاسنهن ، وقد كتب أغانى فى الحب على ظهر رسومه ؛ واتخذ له طائفة من العشيقات واحدة بعد واحدة ؛ ولكن يبدو أنه ما من أحد — بما فى ذلك البابا نفسه — يظن أن من كان مثالا عظيما مثله لا يحق له أن يستمتع بمثل هذه المتع . وهاهو ذا ڤاسارى ، بعد أن وصف شذوذ رفائيل الجنسى لايرى فيما يبدو أى تعارض فى أن يقول بعد صفحتين من هذا الوصف إن « الذين يحاكونه فى حياته الفاضلة سيثابون على ذلك فى الجنة »(٧٥) . ولما أن سأل كستجيلونى رفائيل أين يجد نماذج النساء الحسان اللاتى يصورهن ، أجابه بأنه يخلقهن خلقاً فى خياله بأن يجمع عناصر الجمال المختلفة التى تمتاز بها مختلف النساء(٧٦) ؛ ومن ثم كان فى حاجة إلى أمثلة منهن متعددة . ومع هذا فإن فى أخلاقه وفى أعماله طابعاً صحيحاً يرفع من قدر الحياة ، ووحدة وطمأنينة وصفاء فى سيرته وسط ما كان يحيط به من نزاع ، وفرقة وحسداً ، ومثالب كانت تسود ذلك العصر . ولم يكن يعبأ بالشئون السياسية التى يحترق باظاها ليو وإيطاليا كلها ، ولعله كان يشعر بأن الخصومات التى تتكرر من حين إلى حين بين الأحزاب والدول الطامعة فى السلطان ، وفى الامتيازات ، إن هى إلا الزبد الذى يعلو أمواج التاريخ ، والذى لابد أن يذهب جفاء ، وأن ليس لشىء ما قيمة ونفع إلا الإخلاص للكمال ، والجمال ، والحق .

وترك رفائيل البحث عن الحقيقة لمن كانوا أكثر منه جرأة وحماسة ، وقنع بخدمة الجمال دون غيره ؛ فواصل فى السنة الأولى من حكم ليو نقش حجرة إليودورو Stanza d'Eliodoro . فقد شاءت الظروف أن يختار

يوليوس منظر الالتقاء التاريخي بين أتلا Atilla وليو الأول (٤٥٢) ، ليكون النقش الثاني من أهم النقوش الجدارية في حجرته ، وليجعله رمزاً لطرد البرابرة من إيطاليا . وكان رفائيل في تصويره قد جعل ملامح ليو الأول هي بعينها ملامح يوليوس الثاني ، ولكن حدث وقتئذ أن اعتلى عرش البابوية ليو العاشر. فما كان من رفائيل إلا أن عدل رسمه فجعل ليو هو ليو . وكان أكثر من هذه المجموعة الكبيرة نجاحاً صورة أصغر منها رسمها رفائيل في عقد فوق نافذة في هذه الحجرة نفسها ؛ وهنا اقترح البابا الجديد أن يكون موضوع الصورة نجاة بطرس من السجن على يدي أحد من الملائكة ؛ ولعله أراد بهذا أن يخلد ذكرى نجاته من الفرنسيين في ميلان . واستعان رفائيل بكل ماوهبه الفن من قدرة التأليف والتكوين ليبعث الوحدة والحياة في الصورة التي قسمتها النافذة إلى ثلاثة مناظر : منظر الحراس النائمين إلى اليسار ، وملك يوقظ بطرس في أعلى النافذة ، وملك إلى اليمين يقود الرسول الحائر الذي يداعب النعاس أجفانه إلى الحرية . وإن ما يشع في حجرة السجن من تألق الملك يسطع على دروع الجند ويغشى أبصارهم ؛ والهلال الذي ينعكس نوره على السحب فيجعلها ناصعة البياض ، إن هذا وذاك ليجعلان هذه الصورة نموذجاً فنياً لدراسة الضوء .

وكان الفنان الشاب ظمئا إلى تطبيق للفن جديد . وكان برامنتي قد أخذ صديقه في السر ، دون إذن من ميكل أنچيلو ، ليشاهد المظلمات التي في قبة سستيني قبل تمامها . وتأثر رفائيل بمنظرها أشد التأثر ، ولعله أحس ، بما لا يزال يصحب كبرياءه من تواضع ، بأنه ماثل في حضرة فنان أعظم منه عبقرية وإن كان أقل منه رقة ولطافة . وترك رفائيل هذه المؤثرات الجديدة تحركه في موضوعات المظلمات التي صورها على سقف حجرة هليدورس وفي أشكال هذه المظلمات : فقد مثل فيها الله يظهر إلى نوح ؛ وإبراهيم يضحي بولده ، وحلم يعقوب ، والأجمة المحترقة . وتظهر أيضاً

فى صورة النبى إشعيا التى رسمها لكنيسة القديس أوغسطين .

وشرع فى عام ١٥١٤ ينقش الحجرة التى عرفت باسم *حجرة حريق المدينة* Stanza dell' Incendio del Borgo ، ويريد بالمدينة الجزء المحيط بالفاتيكان من رومة . وتفصيل هذا أن إحدى قصص العصور الوسطى تروى أن البابا ليو الثالث أطفأ حريقاً كان ينذر بالتهام هذا الجزء من المدينة ، ولم يكلفه هذا أكثر من أن يرسم بيده فى الهواء شكل الصليب . وأكبر الظن أن رفائيل لم يرسم أكثر من الصورة التمهيدية لهذا الرسم الجدارى ، ثم عهد إلى تلميذه جيان فرانتشيسكو پنى Gianfrancesco Penni بإتمامها وتلوينها . وهى مع هذا صورة قوية فى تأليفها ، ومن طراز رفائيل الممتاز الذى يروى فيه حادثات الأيام . وقد مزج رفائيل فى هذه الصورة القصة الرمانية القديمة بالقصة المسيحية ، فصور إلى اليمين إينياس وسيما مفتول العضلات يحمل أباه إنكيسز Anchises الشيخ ذا العضلات القوية لينجيه من اللهب ، وهناك أيضاً صورة أخرى متقنة الرسم إلى أبعد حد تمثل رجلا عارياً يتعلق فى أعلى جدار البناء المحترق ، ويتأهب لإلقاء نفسه على الأرض ؛ ويظهر فى هذه الصور الثلاث العارية تأثير ميكل أنجيلو فى رفائيل . لكن ثمة صوراً أكثر اتفاقاً مع نزعة رفائيل نفسه ، منها صورة أم مرتاعة تطل من فوق الجدار لتسلم طفلها إلى رجل يقف فوق الأرض على أطراف أصابع قدميه . وترى بين عمد فخمة جماعات من النساء يلتمسن معونة البابا ، فيأمر من إحدى الشرفات النار أن تخمد . ولا يزال رفائيل فى هذه الصورة فى عنفوان مجده .

ورسم رفائيل الرسوم التمهيدية لبقية الصور التى فى هذه الحجرة ؛ ولعل تلاميذه قد ساعدوه حتى فى هذه الصور الباقية نفسها . ومن الرسوم التمهيدية رسم پيرينو دل ڤاجا Perino del Vaga فوق النافذة صورة *قسم ليو الثالث* وهو يبرئ نفسه أمام شارلمان (٨٠٠) ؛ وصور جوليو رومانو وهو تلميذ

آخر أعظم من التلميذ السابق على الجدار المجاور لباب الحجرة **واقعة أسفيا** التى رد فيها ليو الرابع (وهو يظهر فى الصورة شديد الشبه بليو العاشر) الغزاة المسلمين (٨٤٩) . وجويليو رومانو هو الفنان الوحيد من أهل رومة الذى علا نجمه فى فن النهضة . وصور أولئك التلاميذ النابهون فى أماكن أخرى صوراً لملوك أحسنوا إلى الكنيسة ، وجعلوا هذه الصور مثالية لا واقعية . وفى الصورة الأخيرة صورة **تتويج شارلمان** يصبح ليو العاشر هو ليو الثالث بعينه ، ويصور فرانسس الأول كأنه شارلمان يحقق (بالنيابة عن شارلمان) أمله فى أن يكون إمبراطوراً . والحقيقة أن هذه الصور تمثل التقاء ليو بفرانسس فى بولونيا فى العام السابق (١٥١٦) .

ورسم رفائيل رسوما تخطيطية مبدئية للحجرة الرابعة وهى المعروفة بردهة قسطنطين Sala Constantino ، وقد رسمت هذه الصورة ولونت بعد وفاته برعاية البابا كلمنت السابع . وكان ليو فى هذه الأثناء يستحثه على أن يبدأ بزخرفة الشرفات المكشوفة التى بناها برامنتى لكى تحيط بفناء القديس دماسوس St. Damasus بالفاتيكان . وكان رفائيل نفسه هو الذى أكمل تشييد هذه الشرفات ، ثم صمم وقتئذ (١٥١٧ — ١٥١٩) لسقف واحدة منها اثنين وخمسين مظلماً تروى قصص الكتاب المقدس من خلق العالم إلى يوم الحساب . وقد عهد بالتصوير نفسه إلى جويليو رومانو ، وجيان فرانتشيسكو پنى ، وپرينو دل ڤاجا ، وپليدورو كلدارا داكر ڤجيو Polidoro Caldara da Caravaggio ، وغيرهم ؛ بينما قام چيوڤنى دا يوديني Giovanni de Udine بزخرفة العمد المربوعة ، والأجزاء الداخلية من العقود بصور رائعة ونقوش عربية الطراز فى الجص وبالألوان. وقد استخدمت أحياناً فى مظلمات الشرفات هذه موضوعات مما عولج فى سقف سستينى ، ولكنها أخف منها يداً ، وأقل منها تصنعاً ، وأكبر مرحاً؛ لا تهدف إلى الفخامة أو التعالى بل تصور حادثات لطيفة كصورة آدم وحواء

وأبنائهما يستمتعون بفاكهة الجنة ، وصورة إبراهيم يستقبل الملائكة الثلاثة ، وإسحق يعانق رفقة ، ويعقوب وراحيل عند البئر ، ويوسف وزوجة فرعون ، والتقاط موسى ، وداود وباتشيع ، وعبادة الرعاة . ولا حاجة إلى القول بأن هذه الصور الصغيرة لا يمكن أن تضارع صور ميكل أنجيلو فهذه فى عالم غير عالم تلك ومن صنف غير صنفها — لأنها تمثل عالما ذا رشاقه نسوية ، لا عالما ذا قوة عضلية ؛ وهى شاهد على رفائيل المرح فى الخمس السنين الأخيرة من حياته ؛ على حين أن سقف سستينى إنما يمثل ميكل أنجيلو فى عنفوان قوته .

ولعل ليو قد دبّ فى قلبه شىء من الغيرة من جمال هذا السقف ، ومما أفاءه على حكم يوليوس من مجد ، فلم يكد يعتلى العرش حتى فكر فى تخليد عهده بنقش جدران معبد سستينى بصور الطنافس المزركشة . ولم يكن فى إيطاليا من النساجين من يضارعون نساجى فلاندرز ، وظن ليو أنه لم يكن فى فلاندرز من المصورين من يضارعون رفائيل . ولهذا عهد إلى هذا الفنان (١٥١٥) ، أن يرسم عشر صور تمهيدية تمثل مناظر من أعمال الرسل . وقد ابتاع روبنز (١٦٣٠) ستا من هذه الصور فى بركسل لتشارلس الأول ملك إنجلترا ، وهى الآن محفوظة فى متحف ڤكتوريا وألبرت بلندن ، وتعد من أعظم ما رسم من الصور فى أى عصر من العصور . وقد أغدق عليها رفائيل كل ما لديه من علم فى التأليف ، والتشريح ، والتأثير المسرحى ؛ وقلما يوجد فى ميدان التصوير كله قطع تفوق صورة *معجزة جر السمك* ، أو *عهد المسيح إلى بطرس* ، أو *موت أنانياس* ، أو *بطرس يداوى الأعرج* ، أو *بولس يعظ فى أثينة* — وإن كان شكل بولس الجميل فى هذه الصورة الأخيرة مسروق من مظلمات مساتشيو فى فاورنس .

وأرسلت الرسوم التمهيدية العشرة إلى بركسل ، حيث أشرف برنارت

ڤان أورلى Bernaert van Orley ، الذى تتلمذ على رفائيل فى رومة ، على نقل هذه الرسوم على الحرير والصوف . وتمت سبع من هذه الطنافس فى فترة قصيرة لا تتجاوز ثلاث سنين ، وتم صنع العشر كلها قبل عام ١٥٢٠ ؛ وفى السادس والعشرين من ديسمبر عام ١٥١٩ علقت سبع منها على جدران سستينى ودعى لمشاهدتها الصفوة المختارة من أهل رومة . وذهل الحاضرون من جمالها وروعتها ، فقال باريس ده جراسيس Paris de Grassis فى يومياته : « وذهل كل من فى الكنيسة حين وقعت أعينهم على هذه الستر ، وأجمعوا كلهم بلا استثناء على أنه ليس فى العالم كله ما هو أجمل منها »(٧٧) . وقد أنفق على كل واحـــدة منها ألفا دوقة (٢٥,٠٠٠ ؟ دولار) ، وكانت نفقاتها جميعاً من أسباب إقفار خزائن ليو وإغرائه على بيع صكوك الغفران والمناصب الكنسية(*) . وما من شك فى أن ليو قد أحس وقتئذ بأنه التقى هو ورفائيل مع يوليوس وميكل أنجيلو فى معركة فنية فى كنيسة واحدة وأنهما قد انتصرا فى هذه المعركة .

وإن ما يتصف به رفائيل من خصب فى الإنتاج وهو فى سن السابعة والثلاثين أعظم من خصب ميكل أنجيلو فى سن التاسعة والثمانين — نقول إن ما يتصف به من خصب فى هذه السن ليجعل من الصعب علينا أن ننصفه حين نصف روائع أعماله الفنية وصفاً موجزاً شاملا ، وذلك لأن كل عمل من أعماله تقريباً كان آية خليقة بأن تخلد . لقد رسم صوراً فى الفسيفساء ، والخشب ، والجواهر ، وعلى المدليات ، والفخار ، والآنية البرنزية ،

(*) رهنت هذه الطنافس عند موت ليو ليخفف ثمنها من الضائقة المالية التى حلت بالبابوية ؛ ثم أصابها تلف شديد فى أثناء انتهاب رومة ، فمزقت إحداها إرباً ، وبيعت اثنتان منها إلى القسطنطينية ، ثم ردت كلها إلى معبد سستينى فى عام ١٥٥٤ ؛ وصارت تعرض فى كل عام فى عيد الجسد الطاهر على الشعب فى ميدان القديس بطرس . وقد أمر لويس الرابع عشر أن ترسم لها صورة بالرتت . اغتصبها الفرنسيون فى عام ١٧٩٨ ، وأعيدت مرة ثانية إلى الفاتيكان فى عام ١٨٠٨ . وهى معروضة هناك الآن فى قاعة خاصة بها تدعى ردهة الطنافس .

والنقوش المحفورة البارزة ، وصناديق العطور ، وعلى التماثيل ، والقصور . واضطرب ميكل أنجيلو حين سمع أن رفائيل صنع نموذجاً لتمثال يونس راكباً حوتاً ، وأن المثال الفلورنسي لورندستو لتي Lorenzetto Lotti نحت من هذه النماذج تمثالا رخاميا له . ولكن النتيجة أعادت إليه سكينته لأن رفائيل بعمله هذا قد خرج من ميدانه الخاص وهو ميدان التصوير الملون ، ولم يكن فى خروجه هذا حكيما . لكنه كان أكثر توفيقاً فى ميدان العمارة لأن صديقه برامنتى كان يرشده فى هذا الميدان . ولما عهد إليه حوالى عام ١٥١٤ العمل فى كنيسة القديس بطرس ، طلب إلى صديقه فابيو كلفو Fabio Calvo أن يترجم له كتاب فتروفيوس Vitruvius إلى اللغة الإيطالية ، وشغف منذ ذلك الحين حباً بالطرز المعمارية الرومانية القديمة . وسر ليو من استمراره فى العمل فى شرفة برامنتى سروراً جعله يعينه مديراً لجميع المصالح المعمارية والفنية فى الفاتيكان . وشاد رفائيل بعض القصور الممتازة فى رومة ، واشترك فى تخطيط ڤلا ماداما Villa Madama للكردنال جويليو ده ميديتشى . على أن هذا العمل يرجع معظم الفضل فيه إلى جويليو رومانو المهندس المعمارى والمصور ، وإلى چيوڤنى دا أودينى Giovanni da Udine الذى قام بزخرفته. ولم يبق من آيات رفائيل المعمارية إلا قصر بندلفينى Palazzo Pandolfini الذى بنى بعد موته على أساس رسومه التخطيطية ، ولا يزال هذا القصر معدوداً من أجمل القصور فى فلورنس . وسخر رفائيل بعدئذ مواهبه لخدمة صديقه المصرفى تشيجى Chigi وكان ذلك منه تضحية تعلى من قدره . وقد شاد لهذا الصديق معبداً فى كنيسة سانتا ماريا دل پوپولو ، وبنى لجياده اسطبلات (الاسطبلات الشجيانية Stalle Chigiani ١٥١٤) تليق لأن تكون قصوراً . وإذا شئنا أن نفهم رفائيل ، وروما فى عهد ليو ، حق الفهم ، وجب علينا أن نتريث قليلا لنلقى نظرة على ذلك الرجل العظيم تشيجى .

الفصل الثامن

أجستينو تشـيجى

يمثل أجستينو تشيجى طائفة جديدة من أهل رومة : طائفة أغنياء التجار أو رجال المصارف ، وأصلهم عادة من غير أهلها علا شأنهم على شأن نبلاء الرومان الأقدمين ، ولم يكن يعلو عليهم فى سخائهم على الفنانين والكتاب إلا سخاء الكرادلة والبابوات . وكان مولده فى سينا ، وكأنما طَعِم الدهاء فى الشئون المالية مع طعامه اليومى . وقبل أن يبلغ الثالثة والأربعين من عمره أصبح أكبر مقرضى المال الإيطاليين إلى الجمهوريات والممالك مسيحية كانت أو غير مسيحية . وكان يمول التجارة المتبادلة بين أكثر من عشرة بلاد من بينها تركيا ، وحصل بعقد من يوليوس الثانى على احتكار الشب والملح(٧٨) . وفى عام ١٥١١ أتاح ليو ليوس سبباً جديداً من أسباب الحرب على فيرارا — ذلك أن الدوق ألفنسو قد جرؤ على أن يبيع الملح بثمن أقل مما يستطيع أجستينو أن يتقاضاه(٧٩) . وكان لشركته فروع فى كل مدينة إيطالية كبيرة ، كما كان لها فروع فى القسطنطينية ، والإسكندرية ، والقاهرة ، وليون فى فرنسا ، ولندن ، وأمستردام ، وكانت مائة سفينة وسفينة تمخر عباب أليم رافعة رايته ، كما كان عشرون ألف رجل عمالا مأجورين عنده . وكان بضعة ملوك وأمراء يبعثون إليه بالهدايا ، وكان أحسن جواد عنده هدية من سلطان تركيا ، ولما زار البندقية (وكان قد أقرضها ١٢٥,٠٠٠ دوقة) وضع مقعده بجوار مقعد الدوج نفسه(٨٠) . ولما سأله ليو العاشر عن مقدار ثروته أجابه أن الرد على ذلك مستحيل ، ولعل الباعث له على هذا الجواب هو التهرب من الضرائب ، على أن دخله السنوى كان يقدر بنحو ٧٠,٠٠٠ دوقة (٨٧٥,٠٠٠ ؟ دولار) . وكانت صحافه الفضية

وجواهره تعدل ما عند نبلاء رومة كلهم مجتمعين . وكان سريره محفوراً في العاج ومرصعاً بالذهب والحجارة الكريمة ، وكانت أدوات حمامه من الفضة المصمتة(٨١) . وكان له اثنا عشر من القصور والبيوت الريفية ذات الحدائق ، أجملها كلها بيت تشيجى الريفى القائم على الضفة الغربية لنهر التيبر . وكان الذى خططه هو بلدسارى پروتشى ، وزينه بالصور پروتشى ورفائيل ، وسودوما ، وجويليو رومانو ، وسيستيانو دل پيمبو ؛ وقد وصفه الرومان حين تم بأنه أفخم قصور رومة بأجمعها .

وكان لموائد تشيجى من الشهرة ما يضارع شهرة موائد لوكلس Lucullus فى أيام قيصر. ولما أتم رفائيل بناء اسطبلاته وقبل أن توضع فيها جياد أجمل من الرجال ، استقبل فيها أجستينو البابا ليو وأربعة عشر من الكرادلة فى عام ١٥١٨ ، وأقام لهم فيها مأدبة كان يتباهى بأنها كلفته ألفى دوقة (٢٥,٠٠٠ ؟ دولار) . وقد سرقت فى أثناء هذه الحفلة الممتازة صحاف فضية كبيرة ، وأكبر الظن أن الذين سرقوها خدم فى حاشية بعض المدعوين . وأمر تشيجى ألا يجرى أى تفتيش ، وأظهر دهشته فى لطف ومجاملة من قلة ما سرق(٨٢) . ولما انتهت المأدبة ، ورفعت الطنفسة الحريرية ، وطنافس الجدران ، والأثاث الدقيق ، ملأت الاسطبلات بمائة جواد .

وأقام المصرفى الثرى بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت حفلة عشاء أخرى ، وأقامها هذه المرة فى شرفة القصر الريفى المطلة على نهر التيبر ، وكانت الصحاف الفضية ، بعد الفراغ من كل صنف من الطعام ، تلقى فى النهر على مشهد من المدعوين ، حتى يتأكدوا من أن أية صفحة منها لن تستعمل أكثر من مرة واحدة . ولما انتهت المأدبة استخرج خدم تشيجى الصحاف من النهر بشبكة كانت قد وضعت سراً فى مجراه تحت نافذة الشرفة(٨٣) . وحدث فى مأدبة عشاء أقيمت فى قاعة القصر الريفى فى ٢٨ أغسطس ١٥١٩ أن قدم الطعام لكل مدعو وفيهم البابا ليو واثنا عشر كردنالا — فى صحاف من

الفضة أو الذهب نقش عليها شعاره ، وتاجه ، ودرعه ، وأطعم كل واحد منهم نوعاً خاصاً من السمك ، واللحم ، والخضر ، والفاكهة والمشهيات ، والنبيذ المستورد حديثاً من بلده أو منطقته لهذا الغرض خاصة .

وحاول تشيجى أن يكفر عن هذا التظاهر الوضيع بالثراء ، بمناصرته الأدب والفن مناصرة سخية كريمة — من ذلك أنه أدى إلى العالم كرنيليو بنينيو Corneiio Benigno من ڤيتربو Viterbo نفقات طبع أشعار پندار ، وأنه أنشأ فى بيته مطبعة لطبع تلك المؤلفات ؛ وكانت الحروف اليونانية التى عملت لتلك المطبعة تفوق فى جمالها الحروف التى استخدمها ألدوس مانوتيوس فى نشر قصائده قبل ذلك بعامين . وكان هذا أول نص يونانى طبع فى رومة (١٥١٥) . وبعد عام من ذلك الوقت أصدرت المطبعة طبعة صحيحة من ثيوقريطس . وكان أجستينو نفسه واسع المعرفة ، ولكنه كان يفخر بأن من أصدقائه بمبو ؛ وچيوڤيو ، وأرتينو نفسه . وقد أغدق أرتينو هذا المال بسخاء ، وكان يتباهى بإنفاق هذا المال . وكان أكثر ما يحبه بعد المال وعشيقته هو جميع أنواع الجمال التى يستطيع الفن أن يصورها . وكان ينافس ليو فيما يعهد به من الأعمال إلى الفنانين ، وقد فاقه كثيراً فى تفسيره الوثنى للنهضة ، وجمع فى قصوره فى المدينة وضواحيها مقادير من التحف الفنية تكفى لإنشاء متحف من المتاحف . ويبدو أنه كان يعتقد أن قصره ليس بيتاً فحسب ، بل هو إلى ذلك معرض عام للفن يسمح للجماهير أن تدخله من حين إلى حين :

وحدث فى ذلك القصر الذى أقيمت فيه مأدبة العشاء السالفة الذكر فى ٢٥ أغسطس سنة ١٥١٩ ، أن تزوج تشيجى بعشيقته الوفية التى ظل يعيش معها طوال الست السنين السابقة ، وقام بمراسم الزواج البابا ليو نفسه . لكنه توفى بعد ثمانية أشهر من ذلك الوقت بعد أيام قليلة من موت رفائيل .

وقسم الجزء الأكبر من ثروته التى قدرت بثمانمائة ألف دوقة (١٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار) بين أبنائه . وعاش لورندسو أكبر هؤلاء الأبناء عيشة البذخ والفساد ، وحكم عليه بالجنون فى عام ١٥٥٣ . أما بيت تشيجى الريفى الواقع على ضفة التيبر فقد بيع إلى الكردنال ألسندرو فرنيزى الثانى بثمن زهيد حوالى عام ١٥٨٠ ، وأطلق عليه من ذلك الحين اسم الفارنيزينا Farnesina .

الفصل التاسع

رفائيل : خاتمة المطاف

وكان رفائيل قد قبل أن يقوم للمصرفى المرح الظريف بأعمال فنية منذ عام ١٥١٠ ، وفى عام ١٥١٤ رسم له صوراً جصية ملونة فى كنيسة سانتا ماريا دلا پاتشى Santa Maria della Pace . وكان المكان الذى خصص لهذه الصور ضيقا غير منتظم ؛ ولكن رفائيل جعله يبدو صالحاً للرسم بأن وزع عليه صوراً لأربع عرافات — توماثية ، وفارسية وفريچية ، وتيبورتية ، وهن متنبئات وثنيات سلبتهن قواهن فى هذا الرسم الملائكة المحيطة بهن . وصورهن رشيقة لأن رفائيل كان يصعب عليه أن يصور شيئاً خالياً من الرشاقة . ويظن ڤاسارى أنهن أجمل ما أنتجه الفنان الشاب ، والصور جميعها ما عدا صورة العرافة التيبورتية محاكاة ضعيفة لعرافات أنچيلو . أما صورة هذه الكاهنة الأخيرة الهزيلة الجسم التى أوهنها الكبر ، وروعها المستقبل البشع الذى تتنبأ به ، فهى صورة ذات قوة مبتكرة مسرحية . وتقول قصة لا يمكن الرجوع بها إلى ما قبل القرن السابع عشر ، إن شيئاً من سوء التفاهم حدث بين رفائيل والقائم على أموال تشيجى خاصاً بالأجر الذى يتقاضاه الفنان عن هذه الصور . وكان رفائيل قد أخذ منه خمسمائة دوقة ، ولكنه طلب المزيد من الأجر بعد أن أتمها ، وظن خازن أموال تشيجى أن الخمسمائة من الدوقات التى أخذها رفائيل هى كل ما يحق له أن يأخذه . وعرض رفائيل أن يعين الخازن فناناً خبيراً ليقدر قيمة الرسوم ؛ فاختار الخازن ميكل أنچيلو لهذا الغرض ووافق رفائيل على هذا الاختيار . وحكم ميكل أنچيلو ، رغم ما يزعم الناس وجوده بينه وبين رفائيل من غيرة ، أن كل رأس فى الصورة يساوى مائة دوقة . ولما جاء الخازن

المذهول بهذا الحكم إلى تشيجى أمره المصرفى بأن يؤدى إلى رفائيل أربعمائة دوقة أخرى وحذره قائلا : «واستعمل معه الرفق حتى يرضى بهذا القدر ، لأنه إن اضطرنى إلى أداء أجر الأثواب التى تلبسها العرافات أفاست لا محالة » (٨٤) .

وكان من واجب تشيجى أن يصطنع الحذر ، لأن رفائيل كان فى ذلك العام نفسه يرسم مظلما أنيقاً فى قصر تشيجى الريفى — هو مظلم غلاطية . وقد أخذ قصته من جيوسترا Giostra تأليف بولتيان ، ومضمون القصة إن پوليفيموس Polyphemus السيكلوب(*) Cyclops الأعور يحاول إغراء الحورية غلاطية بأغانيه ومزماره ، ولكنها تبتعد عنه فى ازدراء — كأنها تقول : من هى التى ترضى أن تتزوج فناناً ؟ — ثم تسلم الزم إلى دلفينين يجذبان سفينتها الصدفية الشكل إلى البحر . وتقف إلى جانب غلاطية حورية ممتلئة الجسم مرحة يمسك بها تريتون قوى ، وفى السحب عدد من آلهة الحب (كيوپد) يطلقون سهاماً كثيرة يؤيدون بها الحب القائم بينهما . وتتجلى النهضة الوثنية فى هـــذه الصورة بأجلى مظاهرها ، ويغتبط رفائيل إذ يصـــور النساء كما يجب أن يكن حسب ما يصورهن خياله الساطع .

وفى عام ١٥١٦ نقش حمام الكردنال بيبينا بمظلمات تمجد ڤينوس وانتصار الحب . وفى عام ١٥١٧ نقش سقف القاعدة الوسطى فى قصر تشيجى الريفى وزواياه بصور أكثر من الصور السابقة تبذلا . فقد هداه خياله المرح فى هذه المرة إلى قصة استمدها من كتاب التناسخ لأپوليوس Apuleius . وخلاصة هذه القصة أن ســـيكى Psyche ابنة أحد الملوك تستثير بجمالها حسد ڤينوس ، فتأمر هذه الإلهة الحقود ابنها كيوپد أن يوحى إلى سيكى بأن تحب أحقر رجل فى الوجود . ويهبط كيوپد إلى

(*) أحد الجبابرة فى الأساطير اليونانية . (المترجم)

الأرض ليؤدى رسالته ، ولكنه لا يكاد يمس سيكى حتى يهيم بها حباً . ويزورها فى ظلمة الليل ، ويأمرها أن تكبت فى نفسها غريزة حب الاستطلاع فلا تسأله من هو. غير أنها لا يسعها إلا أن تنهض من فراشها ذات ليلة ، وتضىء مصباحاً ، فتتبين أنها تنام مع أجمل الأرباب كلهم . ولكنها فى اضطرابها تسقط منها نقطة من الزيت على كتف إله الحب ، فيستيقظ من نومه ويؤنبها لفرط تشوفها ، ويتركها وهو غاضب غير عالم أنه إذا حرمت المرأة من غريزة حب الاستطلاع فى مثل هذه الأحوال أدى هذا إلى فساد أخلاق المجتمع . وتخرج سيكى هائمة على وجهها فى الأرض محزونة يائسة وتضع ڤينوس كيوپد فى السجن لأنه عصى أمه ، وتشكو إلى چوپتر من ضعف النظام السماوى ، فيرسل چوپتر عطارد ليأتيه بسيكى وتصبح بعدئذ أمه مغواة عند ڤينوس . ويهرب كيوپد من سجنه ويرجو چوپتر أن يهبه سيكى . ويقع الإله فى حيرة إذ يجد نفسه وسط مطالب متعارضة فيدعو أرباب أولمپس للنظر فى هذا الأمر . وينحاز هو إلى كيوپد مدفوعاً إلى هذا بما جبل عليه من التأثر بمفاتن الذكور أما الآلهة الآخرون ذوو القلوب الرقيقة فيطالبون إطلاق سراح سيكى ، ورفعها إلى مقام الإلهات ، وإعطائها لكيوپد ؛ ويحتفلون فى المنظر الأخير بزواج كيوپد وسيكى ويقيمون لهذه المناسبة وليمة يطعمون فيها طعام الآلهة . ويؤكد رواة القصة أنها كلها رموز واستعارات ، وأن سيكى تمثل النفس البشرية ، التى تدخل الجنة بعد أن يطهرها العذاب . لكن رفائيل وتشيجى لم يريا فى هذه القصة أية رموز دينية ، وإنما هى فرصة أتيحت لهما ليتأملا كمال الأجسام البشرية فى الذكور والإناث على السواء . لكننا نرى مع ذلك فى نزعة رفائيل الشهوانية رقة وطرفاً يفلان سلاح نقد المتزمتين . ويبدو أن ليو المتسامح الدمث المرح لم يجد فى هذه الرسوم ما يأخذه على الرجلين . وليس لرفائيل فى هذه الصور إلا الأشكال والتآليف . أما فيما عدا هذا فإن جوليو رومانو

وفرانتشيسكو پنى هما اللذان صورا المناظر الملونة بعد أن خططها رفائيل ، ثم أضاف إليها چيوڤنى دا أودينى أكاليل جذابة مغرية مثقلة بالأزهار والثمار . وهكذا نرى مدرسة رفائيل الفنية قد أصبحت منطقة انتقال لايكاد يوجد أدنى شك فى أن ثمارها النهائية ستكون صورة من صور الجمال .

ولم تمتزج الوثنية والمسيحية امتزاجاً ممتعاً كامتزاجهما فى صور رفائيل . فهذا الفتى ذو النزعة الدنيوية الذى كان يعيش كما يعيش الأمراء . ويحب كثيراً من النساء حباً عابراً موقتاً ، والذى كان يعبث على السقف (إذا جاز هذا التعبير) بالذكور العراة والنساء العاريات ، نقول إن هذا الفنى نفسه رسم فى تلك السنين (١٥١٣ — ١٥٢٠) عدداً من أكثر الصور جاذبية فى التاريخ كله . وكان رغم شهوانيته الظاهرة المكشوفة يعود دائماً إلى العذراء موضوعه المحبب ، فقد رسم لها خمسين صورة ، يساعده فيها أحياناً أحد تلاميذه كما فى صورة مادنا دل أمپاناتا Modonna dell' Impannata (العذراء المؤفخرة)(*) ؛ ولكنه كان فى معظم الأحيان يعمل فى هذا الطراز من الصور بيده هو ؛ وفى قلبه مسحة من تقى أمبريا Umbria القديم .

وفى هذه السنة التى نتحدث عنها (١٥١٥) رسم **عذراء سستينى** لدير سان سستو San Sisto القائم فى پياتشندسا(**) ، وهى فى الواقع مجموعة من الأشكال فى شكل هرم كامل يحتوى على صورة الشهيد القديس سكستس الطاعن فى السن ، والقديسة بربارا المتحاشمة المفرطة قليلا فى الجمال وفى

(*) الدأفخر من الأوفخارسانة وهو المذهب القائل إن المسيح يتجسد فى القربان الربانى من غير أن يصيبه تغير فى الجوهر . (المترجم)

(**) وقد اشتريت هذه الصورة فى عام ١٧٥٣ لفردريك أغسطس الثانى ملك سكسونيا بمبلغ ٦٠،٠٠٠ ثالر Thaler (أى نحو ٤٥٠،٠٠٠ ؟ دولار) ، وظلت مائتى عام تقريباً أشهر كنوز معرض درسدن Dresden . وقد اغتصب الروس المنتصرون من ألمانيا هذه الصورة مع صورة « الليلة المقدسة » لكريچيو ، وصورة ڤينوس لجيورچيونى ونحو ٩٢٠،٠٠٠ تحفة فنية أخرى بعد الحرب العالمية الثانية (٨٥) .

فخامة الملبس ؛ وثوب العذراء الأخضر اللون فوق مسة من الاحمرار ، تهفهفه ريح السماء ، وصورة المسيح الطفل الذى يبدو إنساناً يحق فى سذاجته وشعره الأشعث ؛ ووجه العذراء الوردى الساذج تعلوه مسحة من الحزن والدهشة (كأن لافرترينا التى ربما كانت نموذج هذه الصورة قد أدركت أنها غير أهل لهذا الوضع) ، والسجف التى يزيحها الملكان وراء العذراء لتسير بينهما إلى الجنة : هذه هى أحب الصور إلى العالم المسيحى كله ، وأحب ما رسمته يد رفائيل إلى العالم أجمع ، ولا تكاد تقل عن هذه ظرفاً ودقة رغم التزامها الشكل التقليدى صـــورة **الأسرة المقدسة تحت شجرة البلوط** (المحفوظة فى پرادو Prado) ، وهى التى تسمى أيضاً **لا پيرلا** La Perla (عذراء اللؤلؤة) . وفى صورة **عذراء سيديا أو سجيولا** Seggiola(الموجودة فى پتى) نرى النزعة الدينية أقل منها فى الصورة السابقة والنزعة البشرية أكثر ظهوراً . فالعذراء أم إيطالية صغيرة السن مرحة ذات عواطف هادئة تضم طفلها السمين ويبدو على محياها الحب الممتزج بغريزة الملكية والرعاية ، وهو يلتصق فى وجل بجسمها ، كأنه قد سمع بإحدى الأساطير التى تروى قصة قتل الأطفال البريئين ، إن صورة للعذراء بهذا الشكل تغفر له كثيراً من صور فرنارين .

والصور التى رسمها رفائيل للمسيح قليلة إذا قورنت بغيرها من الصور . ذلك أن روحه المرحة كانت تأبى أن تفكر فى تصوير العذاب والألم ، أو لعله كان يدرك كما يدرك ليوناردو استحالة تصوير الموضوعات الإلهية . وكان من هذه الصور القليلة صورة **المسيح حامل الصليب** التى رسمها فى عام ١٥١٧ لدير سانتا ماريا دلو اسپازيو Santa Maria dello Spasino فى مدينة بالرم ، والتى سميت من أجل ذلك لو اسپازيمو دى تشيتشيليا La Spasimo di Cicilia وأكبر الظن أن پنى كان يساعده فى رسمها . ويقول ڤاسارى إنه كان لهذه

الصورة تاريخ ملىء بالمغامرات : فقد هبت عاصفة على السفينة التى كانت تحملها إلى صقلية فحطمتها ؛ وطفت الصورة الموضوعة فى قفص على سطح الماء ووصلت سالمة إلى جنوى ؛ لأن « الرياح والأمواج الثائرة نفسها قد أكبرت وأجلت هذه الصورة الرائعة » . كما يقول ڤاسارى . ونقلت الصورة سفينة أخرى وأقيمت فى بالرم حيث « أضحت أوسع شهرة من جبال ڤلكان »[٨٦] . وفى القرن السابع عشر أدر بها فليپ الرابع ملك أسپانيا فنقلت سراً إلى مدريد . وليس المسيح فى هذه الصورة إلا رجلا مغلوباً منهوك القوى لا يلوح عليه أنه يحمل رسالة ارتضاها وقام بأدائها . لكن رفائيل وفق أكثر من هذا فى الإيحاء بالألوهية فى صورة أخرى هى صورة رؤيا حزقيال وإن كان يستعير آلهة الأجل فى هذه الصورة من صورة خلق آدم لميكل أنجيلو .

ومن الصور التى رسمت فى هذه الفترة أيضاً صورة القديسة تشيتشيليا التى لا تكاد تقل شهرة عن صورة عذراء سستينى . وكان سبب رسمها أن سيدة من بولونيا أعلنت فى خريف عام ١٥١٣ أنها سمعت أصواتاً سماوية تأمرها بأن تقيم معبداً للقديسة تشيتشيليا فى كنيسة سان چيوڤنى دل منتى San Giovanni del Monte . وتعهد أحد أقاربها بأن يبنى المعبد ، وطلب إلى عمه الكردنال لورنسو پتشى Lorenzo Pucci أن يطلب إلى رفائيل صورة قياسية للمذبح نظير ألف اسكودى Scudi ذهبى . وأناب رفائيل عنه چيوڤنى دا أودينى فى رسم الآلات الموسيقية ، وأتم هو الصورة فى عام ١٥١٦ وأرسلها إلى بولونيا مع رسالة رقيقة إلى فرانتشيا كما أشرنا إلى ذلك من قبل . ولا حاجة بنا إلى أن نعتقد أن فرانتشيا قد ذهل بجمال هذه الصورة ذهولا أحس معه بما فيها من روعة ، وشعر بأن ما ينبعث من نغمات من آلاتها الموسيقية يكاد يكون نغمات سماوية ، وأدرك جمال صورة القديس

بولس فى « حلم اليقظة » ، والقديس يوحنا فى نشوة لا تكاد تقل عن نشوة البنات ، وتشيتشيليا الجميلة ، ومجدلين الأجمل منها – والتى خلع عليها هنا طهراً ساحراً – والأضـــواء الحية والظلال الملقاة على الأثواب وعلى قدمى مجدلين .

وفى هذه الفترة أيضاً رسمت صورة أخرى رائعة منها صورة **بلدسارى كستجليونى** (متحف اللوفر) وهى إحدى الصور التى عمل فيها رفائيل بذمة وضمير حى ، وهى قوية الإغراء ، ولا تزيد عليها فى قيمتها من صور رفائيل إلا صورة يوليوس الثانى . وفيها تقع عين الإنسان أولا على غطاء الرأس الزَّغبى ، ثم يستلفته بعدئذ ثوب الفراء ، واللحية الكثة ، فيخيل إليه أن الرجل أحد شعراء المسلمين أو فلاسفتهم . أو حاخام إسرائيل صوره رمبرانت Rembrandt ، ويشاهد بعد ذلك العينين الرقيقتين ، والفم ، واليدين المقبوضتين ، وكلها تكشف عن وزير إزبلا الشاكل ذى العقل الرحيم ، والعاطفة الجائشة ، وقد انتقل إلى بلاط ليو . وخليق بالإنسان أن يطيل التأمل فى هذه الصورة قبل أن يقرأ كتاب « **حامل الرسائل** The Courier » . وتظهر صورة **بيبينا** Bibbiena الكردنال فى آخر سنى حياته وقد مل رؤية صور ڤينوس وارتضى المسيحية .

ولسنا نستطيع الجزم بأن صورة **لا دنا فيلاتا** La donna Velata من صنع رفائيل ، ولكنا نكاد نجزم بأنها هى التى يقول ڤاسارى إنها صورة عشيقة رفائيل ؛ فملامحها هى الملامح التى استعان بها على رسم صورة مجدلين وصورة تشيتشيليا نفسها فى صورة **القديسة تشيتشيليا** التى سبق الكلام عليها ، ولعلها أيضاً الملامح التى نشاهـــدها فى **عذ اوستينى** – وهى هنا سمراء متحاشمة ، يتدلى من رأسها قناع طويل ، وحول جيدها عقد من الجواهر ،

وتلتف على جسمها أثواب فضفاضة تستهوى العين . وأكبر الظن أن صورة **فرنرينا** La Fornarina المحفوظة فى المعرض البرغيزى Borghese هى أيضاً من صنع رفائيل ، ولكنها لا تمثل عشيقته فى وضوح كما كان يظن الخبراء الأقدمون . ومعنى كلمة فرنريتا **الخبازة** أو زوجة الخباز أو ابنته ، ولكن هذا الاسم وأمثاله كحداد أو نجار لا يعنى حتماً أن صاحبه ينتسب إلى هذه المهنة . وليست هذه السيدة فاتنة ساحرة إلى حد كبير ، ذلك أن المرء لا يجد فيها النظرة المتواضعة التى تجعل هذه الإيحاءات غير المتواضعة أكثر فتنة وسحرا(*) . ويبدو أن من غير المعقول أن تكون صورة **السيدة ذات القناع** المتواضعة هى صورة لنفس هذه السيدة التى توزع المتع السريعة فى جرأة على طالبيها ؛ ولكنا لسنا بحاجة إلى البحث فى هذا فقد كان لرفائيل أكثر من عشيقة .

بيد أنه كان أكثر وفاء لعشيقته مما ينتظره الإنسان من الفنانين الذين يتأثرون بالجمال أكثر مما يتأثرون بالعقل . وشاهد ذلك أنه لما حثه الكردنال ببينا على أن يتزوج ماريا ببينا ابنة أخيه لم يقبل رفائيل إلحاحه إلا وهو كاره (١٥١٤) مع أنه كان مديناً للكردنال بأعمال درت عليه المال الكثير ، ثم أخذ يتملص من إتمام الزواج شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة ، وتقول الرواية المأثورة إن ماريا أثر فيها هذا الإرجاء فماتت حزينة كسيرة القلب(٨٧) . ويشير ڤاسارى إلى أن رفائيل كان يرجئ هذا الزواج أملا منه بأنه سيصبح كردنالا ؛ والزواج عقبة كبرى فى سبيل هذا المنصب السامى ؛ أما العشيقة فإنها من العقبات التى يمكن التغلب عليها . ويبدو أن الفنان كان يجعل عشيقته قريبة منه يسهل عليه الوصول إليها حينما كان يقوم بعمله . ولما أن وجد تشيجى أن المسافة بين قصره الريفى الذى كان رفائيل يصور فيه تاريخ سيكى

(*) وفى معرض أبيزى خبازة أخرى أجمل من هذه من صنع بيابو دل پيو .

ومسكن عشيقته تضيع على الفنان كثيراً من وقته ، جاء المصرفى بالسيدة وأسكنها فى شقة من هذا القصر ؛ ويقول ڤاسارى إن « ذلك هو السبب فى إتمام العمل »(٨٨) . ولسنا نعرف هل هذه هى السيدة التى انغمس معها رفائيل فى « الدعارة الطليقة غير المألوفة » هى التى يعزو إليها ڤاسارى سبب موته(٨٩) .

وكانت آخر صورة له إحدى تفسيراته السامية لقصة الإنجيل . ذلك أن الكردنال جوبليو ده ميديتشى كلف رفائيل وسبستيانو دل پيمبو فى عام ١٥١٧ أن ينقشوا ستار مذبح لكنيسة نربونة التى عينه فرانسيس الأول أسقفاً لها ، وكان سبستيانو يحس من زمن بعيد أن موهبته الفنية لا تقل عن موهبة رفائيل إن لم تسم عليها ، وإن لم يكن مثله معترفاً له بهذه الموهبة . وها هى ذى الفرصة قد لاحت له لإثبات موهبته . واختار لموضوعه « ارتفاع المجذوم الأبرص » واستعان بميكل أنچيلو فى رسم الصورة الأولية . واستثارت المنافسة رفائيل فسما إلى فوزه النهائى ، واختار لموضوعه رواية متى لحادث جبل تابور :

« وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم ، وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور . وإذا موسى وإيليا قد ظهرا لهم يتكلمان معه . . . . ولما جاءوا إلى الجمع تقدم إليه رجل جاثيا له وقائلا يا سيد ارحم ابنى فإنه يصرع ويتألم شديداً ، ويقع كثيراً فى النار وكثيراً فى الماء ، وأحضرته إلى تلاميذك فلم يقدروا أن يشفوه »(٩٠)

وأخذ رفائيل هذين المنظرين كليهما ووحدهما ، وتعسف كثيراً فى وحدة الزمان والمكان . فالمسيح يظهر فوق قلة الجبل يسبح فى الهواء . وقد تبدل وجهه من فرط النشوة ، وظهرت ثيابه بيضاء ناصعة لسقوط الضوء عليها من السماء . وعلى أحد جانبيه موسى وعلى الجانب الآخر إيليا ،

ومن تحتهم الرسل الأربعة المحببون يرقدون فوق هضبة . وعند سفح الجبل يظهر أب يائس يدفع إلى الأمام ابنه المسلوب العقل ، وتركع الأم هى وامرأة أخرى ، وكلتاهما رائعة الجمال ، إلى جانب الغلام وتطلبان إلى الرسل التسعة المجتمعين إلى اليسار علاجا للغلام . ويفزع أحد أولئك الرسل وهو منكب على كتاب يقرؤه ، ويشير رسول آخر إلى المسيح الذى بدلته النشوة ، ويقول إنه هو وحده االذى يستطيع أن يعالج الغلام . وقد اعتاد النقاد أن يثنوا على الجزء الأعلى من الصورة ويصفوا المجموعة السفلى منها بالخشونة والعنف ؛ وهذه المجموعة هى التى رسمها جويليو رومانو ؛ ولكن الحقيقة أن مقدمتها الســفلى تحتوى صورتين من أجمل الصور هما صورة القارئ الفزع ، والمرأة الرائعة ذات الكتف العارية والأكواب المتلألئة الساطعة .

وبدأ رفائيل العمل فى صورة *تجلى المسيح* عام ١٥١٧ ولكنه توفى قبل الفراغ منها . ولسنا نعرف ما فى قصة ڤاسارى من الصدق لأنه كتبها بعد ثلاثين عاماً من وقوع الحادث . وإلى القارئ هذه القصة :

« لقد أطلق رفائيل العنان لملذاته الخفية إلى أقصى حد ؛ وحدث بعد ليلة حمراء صاخبة أنه عاد إلى بيته وقد انتابته حمى شديدة ، واعتقد الأطباء أن قد أصابه برد شديد ؛ ولم يعترف هو بسبب اضطرابه ، فحجمه الأطباء خطأ منهم وقلة دراية ، وبذلك أضعفوا جسمه وهو فى أشد الحاجة إلى ما يعيد إليه قوته ، فما كان منه إلا أن كتب وصيته ، بعد أن أخرج عشيقته من بيته ، كما يفعل المسيحى الصادق ، وترك لها من المال ما تستطيع به أن تعيش عيشة شريفة ، ثم قسم ما عنده بين تلاميذه جويليو رومانو الذى كان وثره بحبه على الدوام ، وچيوڤينى فرانتشيسكو پنى من أهل فلورنس ، وقس من أربينو ، وأحد أقاربه . . . . وبعد أن اعترف وتاب وأناب

اختتم حياته فى مثل اليوم الذى ولد فيه وهو يوم الجمعة الحزينة ، ولما يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره (٦ أبريل سنة ١٥٢٠)[٩١] » .

ورفض القس الذى جاء ليتلقى اعترافه أن يدخل حجرة المريض قبل أن تخرج عشيقة رفائيل من بيته ؛ ولعل سبب ذلك الرفض هو شعور القس بأن استمرار وجودها فى البيت قد يوحى بأن رفائيل تعوزه الندامة التى لا بد منها قبل أن تغفر له ذنوبه . ولهذا منعت حتى من الاشتراك فى تشييع الجنازة ، فانتابها الحزن والكمد حتى كادت تصاب بالجنون لولا أن أقنعها الكردنال ببينا بأن تترهب . وسار جميع الفنانين فى رومة فى جنازة الشاب الراحل حتى وورى الثرى ، وحزن ليو على فقـــدان مصوره المحبوب ؛ وأخرج أمين سر البابا وشاعره ، وهو بمبو Bembo الذى تنقصه البلاغة الممتازة فى اللغتين اللاتينية والإيطالية ، أخرج بمبو هذا كل ما أوتى من فصاحة وكتب قبرية لرفائيل فى البنثيون لم يزد فيها على أن قال : Ille Hec est Raphael

« إن الذى هنا هو رفائيـــل » وكفاه هذا ؛

وبعد فقد كان رفائيل بإجماع معاصريه أعظم المصورين فى عصره . نعم إنه لم يخرج شيئاً يضارع فى سموه سقف سستينى ، ولكن ميكل أنچيلو لم يخرج قط شيئاً يضارع فى جماله الكلى صور العذراء الخمسين التى أخرجها رفائيل . ولقد كان ميكل أنچيلو أعظم الفنانين لأنه كان عظيما فى ميادين ثلاثة ، وكان أعمق من سائر الفنانين فى تفكيره وفى فنه . ولمـــا أن قال عن رفائيل : « إنه مثل لما نستطيع الدراسة العميقة أن تثمره »[٩٢] كان يعنى فى أكبر الظن أن رفائيل قد نال بفضل المحاكاة كل الصفات الممتازة التى يتصف بها كثيرون من المصورين ، وإنه صاغها بفضل ما وهب من الجد والمثابرة حتى أصبحت طرازاً بلغ ذروة الكمال . على أن ميكل أنچيلو لم يشعر أن رفائيل قد أوتى تلك القوة العاصفة المبدعة

التى تطرح المحاكاة وتشق لنفسها طريقا خاصا بها ، تجتازه بقوة تكاد تصل إلى حد العنف ، وتصل به إلى ما تريد . ويبدو أن رفائيل قد بلغ من السعادة حداً يمنعه أن يكون عبقرياً بالمعنى التقليدى لهذا اللفظ ؛ وهو المعنى الذى يجعل العبقرية تشرف على الجنون . ولقد تخلص رفائيل من صراعه الداخلى حتى لم تعد تظهر عليه إلا قلة من أعراض الروح أو القوة الشيطانية التى تحرك أعظم النفوس ، فتدفعها إلى الإبداع والمآسى ؛ ولهذا كان عمل رفائيل ثمرة الحذق الكامل المصقول لا الشعور العميق أو العقيدة . وقد كيف نفسه لحاجات يوليوس وأهوائه فى أول الأمر ، ثم لحاجات ليو وأهوائه من بعده ، ومن بعدهما لتشيجى ، ولكنه ظل على الدوام الشاب الذى لا يعرف الختل والخداع ، والذى يتقلب وهو مغتبط بين صور العذارى وبين العشيقات ؛ وكانت هذه هى وسيلته المرحة للتوفيق بين الوثنية والمسيحية .

وإذا فهمنا من لفظ الفنان معناه التطبيقى الآلى كان رفائيل أبرع الفنانين لايعلو عليه واحد منهم . ذلك أن أحداً لم يضارعه قط فى ترتيب عناصر الصورة ، ولا فى انسجام أجزائها ، أو الانسياب الهادئ لخطوطها . وكانت حياته كلها مكرسة لإتقان الشكل ، ولهذا كان ينزع إلى البقاء على ظاهر الأشياء ، فنحن لانراه يسبر غور ما فى الحياة أو العقيدة من أسرار خفية أو متناقضات . وكان دهاء ليوناردو ، وإحساس ميكل أنجيلو بمآسى الحياة عديمى المعنى بالنسبة له ، وكان حسبه بهجة الحياة ومتعتها ، وخلق الجمال وتملكه ، ووفاء الصديق والحبيب . وكان رسكن Ruskin صادقاً حين قال إنه كانت تظهر من حين إلى حين فى النحت القوطى ، وفى التصوير بإيطاليا وفلاندرز « قبل عصر رفائيل » بساطة ، وإخلاص وسمو فى الإيمان والأمل ، يتعمقان النفس أكثر مما تتعمقها صور العذراء وڤينوس الجميلة التى أبدعها رفائيل . ومع هذا فإن صورتى **يوليوس الثانى** وعذراء [

اللؤلؤة لا يمكن وصفهما بأنهما من الصور السطحية غير ذات العمق الكبير ؛ ذلك أنهما تصلان إلى لب مطامع الذكور وحنان الاناث ، فصورة يوليوس أعظم وأعمق من صورة موناليزا ؛

وليوناردو يبعث فى نفوسنا الحيرة ، وميكل أنچيلو يبعث فيها الخوف ، أما رفائيل فيبسط علينا السلام ، وهو لا يلقى أسئلة ، ولا يثير شكوكاً ، ولا يستثير مخاوف ، بل يعرض علينا جمال الحياة كأنه شراب الآلهة ، وهو لا يقر بوجود صراع بين العقل والشعور ، أو بين الجسم والروح ؛ بل كل شيء فيه توافق وتناسق بين الأضداد ، تتألف منه موسيقى فيثاغورية ؛ وفنه يسمو بكل ما يمسه فيجعل منه مثلا أعلى ، سواء كان هذا ديناً ، أو امرأة ، أو موسيقى ، أو فلسفة ، أو تاريخاً ، أو حتى حرباً ، وإذ كان هو سعيداً محظوظاً فقد كان يشع على كل ما حوله كل ما أوتى من نعمة وصفاء نفس . ومكانه فى سلم العبقريات التعسفى يلى أعظم عظماء العباقرة مباشرة ، ولكنه فى زمرتهم : دانتى وجيته ، وكيتس ؛ وبيتهوفن ، وباخ ، وموزار ، وميكل أنچيلو ، وليوناردو ، ورفائيل .

الفصل العاشر

ليو السـياسى

وكان من دواعى الأسف أن ليو اضطر وهو بين كل هذا الفن والأدب أن يخوض بحر السياسة الخضم. ولكن عذره فى هذا أنه رئيس دولة، وأنه يعيش، وأن الدول التى وراء الألب كان رأسها جميعاً زعماء ذوو مطامع، ولها جيوش جرارة، وقواد أشداء ؛ ولم يكن يستبعد أن يتفق لويس الثانى عشر ملك فرنسا، وفرديناند الكاثوليكى، فى أى وقت من الأوقات على اقتسام إيطاليا كما اتفقا من قبل على اقتسام مملكة نابلى. وأراد ليو أن يواجه هذا التهديد، وأن يقوى فى الوقت ذاته البابوية ويعلى شأن أسرته، فعمل على أن يضم فلورنس (التى كان يحكمها وقتئذ على يد جوليانو أخيه ولورندسو ابن أخيه) وميلان، وپياتشندسا، وپارما، ومودينا، وفيرارا، وأربينو فى اتحـاد قوى جديد يحكمه أفراد من آل ميديتشي الموالين له ؛ وأن يجمع بين هذه الولايات وبين ولايات الكنيسة الموجودة وقتئذ، لتكون حاجزاً يصد المغيرين من الشمال، وأن يحصل بزواج أحد أعضاء أسرته إن استطاع على عرش نابلى بعد خلوه من شاغله. فإذا تم له بهذه الطريقة توحيد إيطاليا وتقويتها، أمكنه أن يقود أوروبا فى حرب صليبية أخرى ضد الأتراك الذين لا يفتئون يهددونها بالغزو. ورحب مكيڤلى، وهو الرجل الذى لم يكن يميل إلى المسيحية ولا إلى البابوات، بهذه الخطة، أو أنه فى القليل رحب بما يتصل منها بتوحيد إيطاليا وحمايتها، وكانت هذه هى الفكرة الأساسية فى كتاب **الأمير**.

وسعى ليو لتحقيق هذه الأغراض بما كان تحت تصرفه من الموارد

العسكرية المحدودة ، فالجأ إلى جميع الأساليب السياسية والدبلوماسية التى كان يلجأ إليها أمراء زمانه . نعم إنه لم يكن من اليسير على رئيس الكنيسة أن يكذب ، ويحنث بالوعد ، ويسرق ويقتل ؛ ولكن الملوك كلهم كانوا مجتمعين على أن هذه الأساليب لاغنى عنها لحفظ كيان الدولة ؛ واندفع ليو ، وهو الميديتشى أولا والبابا بعدئذ ، فى هذه الخطة بالقدر الذى تسمح له به بدانته ، وناسوره ، وصيده ، وسخاؤه وأمواله . وندد به كل الملوك لأنه لم يسلك مسلك القديسين ، وقال فى ذلك جوتشياردينى : « إن ليو قد خيب الآمال المعقودة عليه وقت تتويجه ، فقد بدا أنه ذو بصيرة نفاذة ، ولكنه أقل صلاحاً مما كان يتصوره جميع الناس »[٩٣] . وظل أعداؤه وقتاً طويلا يظنون أن دهاءه المكيڤلى إنما يرجع إلى نفوذ جويليو ابن عمه (الذى أصبح فيما بعد كلمنت السابع) أو إلى الكردنال بيبينا ، لكن تطور الحوادث فيما بعد أوضح أنهم لابد لهم أن يحسبوا حساب ليو نفسه ، وأن ليوهذا ليس أسداً بل ثعلباً ، وأنه لين زلق ، ماكر لايسبر غوره ، نهاز زائغ ؛ يخاف فى بعض الأحيان ويتردد فى أغلبها ؛ ولكنه إذا جد الجد قادر على اتخاذ القرار الحاسم ، ماض فى عزيمته ؛ عنيد فى خططه السياسية .

وسنرجئ الحديث عن علاقاته بالدول الواقعة شمال جبال الألب إلى فصل آخر من هذا الكتاب ، ونقصر بحثنا هنا على الشئون الإيطالية ، فنتحدث عنها بإيجاز لأن فنون عهد ليو أبقى على الزمن من سياسته . لقد كان يمتاز كثيراً عن أسلافه ، لأن فلورنس التى قاومت من قبل الإسكندر ويوليوس كانت وقتئذ جزءاً من دولته ، ولأنه أفاء على أهلها كثيراً من نعمه . ولما أن زار المدينة التى حكمها أسلافه أقامت له أكثر من عشر أقواس فنية ترحيباً به . ومن هذه القاعدة ومن رومة نفسها استخدم رجاله الدبلوماسيين ومن يدينون له بالفضل ، كما استخدم جنوده ، فى توسيع رقعة دولته ؛ واستولى أولا على مودينا فى عام ١٥١٤ ، ولما أن تأهب فرانسس الأول

فى عام ١٥١٥ لغزو إيطاليا والاستيلاء على ميلان ، حشد ليو لمقاومته جيشاً وعقد حلفاً إيطالياً ، وأمر دوق أربينو ، بوصفه تابعاً للكرسى البابوى وقائداً فى خدمة الكنيسة ، أن ينضم إليه فى بولونيا على رأس أكبر قوة يستطيع حشدها . ولكن الدوق رفض المجىء رفضاً صريحاً ، وإن كان ليو قد حباه من وقت قصير بما يلزمه من المال لأداء رواتب جنوده . وظن البابا ، وله بعض الحق فى أن يظن ، أنه قد تفاهم فى السر مع فرنسا(٩٤) ؛ فلم يكد يتخلص من مشاكله الخارجية ، حتى استدعى فرانتشيسكو إلى رومة ؛ فلم يسع الدوق إلى أن يفر إلى مانتوا . فحرمه ليو من حظيرة الدين وأصم أذنيه عن سماع تضرع إلزبتا جنلساجا وإزبلا دستا وتوسلاتهما ، وكانت أولاهما عمة الأمير الطائش وثانيتهما أم زوجته . واستولت جنود البابا على أربينو دون أن تلقى مقاومة ، وأعلن خلع فرانتشيسكو ، كما نودى بلورندسو ابن أخى ليو دوقاً على أربينو (١٥١٦) . لكن أهل المدينة ثاروا بعد عام من ذلك الوقت وطردوا لورندسو ، وحشد فرانتشيسكو جيشاً استعاد به دوقيته ؛ ولاقى ليو أشد الصعاب فى جمع المال والجنود لاستعادتها لنفسه ، ونجح بعد ذلك فى حرب دامت ثمانية أشهر ، ولكن نفقات الحرب أفقرت خزانته البابوية ، وأحفظت قلوب الإيطاليين على ليو وأسرته الطامعة المغتصبة .

وانتهز فرانسس الأول هذه الفرصة لكسب صداقة البابا . وعرض أن يتزوج لورندسو دوق أربينو الذى عاد إلى عرشه من مادلين ده لا فور دوفرنى Madeleine de La Four d'Auvergne التى كان لها دخل كبير لا يقل عن عشرة آلاف كرون (١٢٥,٠٠٠ ؟ دولار) فى العام . ووافق ليو على هذا العرض ، وسافر لورندسو إلى فرنسا (١٥١٨) ، كأنه صدى صوت بورجيا ، وعاد بمادلين وبابنتها . وماتت مادلين بعد عام من ذلك الوقت أثناء وضعها بنتاً هى كترينا Caterina التى صارت فيما بعد كترين

ده ميديتشى ملكة فرنسا ؛ ثم مات لورندسو بعد ذلك بقليل ، ويقال إن سبب موته مرض سرى أصيب به وهو فى فرنسا(٩٥) . وحينئذ أعلن ليو أن أربينو ولاية بابوية وأرسل مندوباً من قبله ليحكمها .

وكان لابد له أثناء هذه الارتباكات أن يعانى الأمرين من مسألتين تقضان مضجعه وتشهدان بضعفه السياسى وكره الشعب إياه كرهاً مطرد النماء . أما أولاهما فهى أن قائداً من قواده هو چيان باولو بجليونى حاكم پروچيا برضاء البابا كان قد انضم هو وپروچيا نفسها إلى فرانتشيسكو ماريا ؛ فما كان من ليو إلا أن خدع چيان پاولو فأغراه بالمجىء إلى رومة بعد أن أمنه على نفسه بالمجىء والعودة ، فلما جاء أمر به فقتل (١٥٢٠) . وكان بجليونى هذا قد اشترك فى مؤامرة تهدف إلى اغتيال البابا يتزعمها ألفنسو پتروتشى وغيره من الكرادلة (١٥١٧) . وكان أولئك الكرادلة قد أثقلوا على كرمه بمطالب لا يستطيع مع سخائه العظيم أن يجيبهم إليها ؛ كما أن پروتشى كان فوق ذلك غاضباً مغتاظاً لأن أخاه أبعد عن حكم سينا ، ولأن البابا قد غض النظر عن هذا العمل فلم يتدخل لمصلحته . ولهذا فكر أولا فى قتل ليو بيده ، ولكنه أشير عليه بدلا من هذا أن يرشو طبيب ليو ليدس السم للبابا وهو يعالجه من ناسوره . وكشفت المؤامرة ، وقتل الطبيب وپتروتشى ، وسجن عدد من الكرادلة الذين اشتركوا فيها ، وعزلوا من مناصبهم ، ثم أطلق سراح بعضهم بعد أن أدوا غرامات باهظة .

وكانت حاجة ليو إلى المال تنغص عليه وقتئذ حكمه الذى كان من قبل موقفاً سعيداً . ذلك أن عطاياه للأقارب والأصدقاء ، والفنانين ، والكتاب ، والموسيقيين ، ونفقات بلاطه الذى لم يكن له من قبل مثيل ، ومطالب كنيسة القديس بطرس الجديدة التى لا حد لها ، ونفقات حرب أربينو والاستعداد إلى حرب صليبية ، كل هذا كان يقود خزينة البابا إلى هاوية الافلاس . ولم يكن إيراده العادى البالغ ٤٢٠,٠٠٠ دوقة (٢,٢٥٠,٠٠٠ ؟

دولار) فى العام والذى يستمده من الأجور ، والمرتب الأول لموظفى الكنيسة ، والعشور ، لم يكن هذا الإيراد العادى يكفى هذه النفقات . على أن هذا الإيراد نفسه كان يصعب دائماً تحصيله من أوربا التى لم تكن راضية عن انسياب هذه الأموال الكنسية إلى رومة . وأراد ليو أن يملأ خزانته بالمال فأنشأ فى عام ١٣٥٣ مناصب جديدة يبيعها لطالبيها وبلغ مجموع المال الذى جمع ممن عينوا فى هذه المناصب ٨٨٩,٠٠٠ دوقة (١١,١١٢,٥٠٠ ؟ دولار) . على أننا يجب ألا نغالى فى استنكار هذا العمل ؛ ذلك أن معظم هذه المناصب لا يؤدى من يشغلها عملا ، وإن تطلبت شيئاً قليلا منه فقد كان من المستطاع أن يعهد به إلى من ينوبون عن أصحابها ؛ وكانت الأموال التى يقدمها شاغلوها فى واقع الأمر قروضاً للبابوية ، وكان متوسط راتبها البالغ عشرة فى المائة كل عام من المال الأصلى المدفوع عنها بمثابة فائدة لهذه القروض . فكان ليو فى الحقيقة يبيع ما نسميه فى أيامنا هذه سندات حكومية[٩٦] ، وكان من حقه بلا ريب أن يقول إنه يؤدى عنها فوائد أكثر مما تؤديه أية حكومة عن أوراقها المالية فى هذه الأيام . على أنه لم يبع هذه المناصب الإسمية وحدها ، بل باع أيضاً أعلى المناصب الكنسية كوظيفة رئيس التشريفات البابوية[٩٧] . وفى شهر يولية من عام ١٥١٧ رشح واحداً وثلاثين كردنالا جديداً ، كثيرون منهم ذوو كفايات عظيمة ، ولكن الكثرة الغالبة منهم قد اختير أفرادها لقدرتهم على أداء ثمن ما يستمتعون به فيها من الجاه والسلطان . ولنضرب لذلك مثلا الكردنال پندستى — الطبيب ، والعالم ، والمؤلف — الذى أدى ثمناً لمنصبه ٣٠,٠٠٠ دوقة . وبلغ مجموع دخل ليو فى هذه المرة بجرة قلم نصف مليون دوقة[٩٨] . وروعت لذلك إيطاليا نفسها وهى التى فسدت عقليتها فى هذه الناحية فلم تعد تفرق بين ما هو خير منها وما هو شر ؛ وكانت قصة هذا العمل بعد أن وصلت إلى ألمانيا مما زاد من حدة غضب لوثر وثورته . (أكتوبر ١٥١٧) . وكان

من جراء هذا أنه لما فتح السلطان سليم بلاد مصر فى تلك السنة الحاسمة فى التاريخ وضمها إلى أملاك الأتراك العثمانيين ، ونادى البابا بحرب صليبية ، لم يلب أحد نداءه . ودفع البابا تهوره الأعمى إلى أن يبعث بعماله فى جميع أنحاء البلاد المسيحية يعرضون صكوك غفران واسعة المدى إلى درجة غير عادية على من يتوبون ، ويعترفون ، ويتبرعون بنفقات الحرب الصليبية .

وكان فى بعض الأحيان يقترض المال من مصارف رومة بفائدة تبلغ أربعين فى المائة . وكان أصحاب هذه المصارف يتقاضون منه هذا السعر المرتفع لأن إهماله فى إدارة الشئون المالية البابوية لا بد أن يؤدى فى رأيهم إلى الإفلاس . ورهن البابا ضماناً لبعض هذه القروض صحافه الفضية ، وطنافس جدران قصره ، وجواهره . وقلما كان يفكر فى مراعاة الاقتصاد فى الإنفاق ، فإذا ما اقتصد كان ذلك بالشح على مجمعه العلمى اليونانى ، وجامعة رومة ، فلم يكد يحل عام ١٥١٧ حتى أغلق المجمع لحاجته إلى المال . ومع هذا فقد واصل البابا خيراته بلا حساب ، فكان يرسل الأموال الطائلة إلى الأديرة ، والمستشفيات ، والمعاهد الخيرية فى جميع أنحاء العالم المسيحى ، ويغدق المال وألقاب الشرف على آل ميديتشى ، ويولم الولائم الفخمة إلى أضيافه يقدم لهم فيها الأطعمة الشهية النادرة على حين أنه هو نفسه كان يراعى جانب الاعتدال فى طعامه وشرابه(٩٩) . وقد بلغ مجموع ما أنفقه خلال جلوسه على كرسى البابوية ٤,٥٠٠,٠٠٠ دوقة (٥٦,٢٥٠,٠٠٠ ؟ دولار) ، ومات وعليه فوق ذلك دين يبلغ ٤٠٠,٠٠٠ دوقة . وقد هجاه أهل رومة بقصيدة تفصح عن رأيهم فيه فقالوا : « لقد التهم ليو ثلاث بابوات : أموال يوليوس الثانى ، وإيراد ليو ، ودخل من خلفه من البابوات »(١٠٠) . ولما مات عانت رومة أزمة من شر ما حدث فى التاريخ كله من أزمات .

وكانت آخر سنة فى حياته سنة اشتعلت فيها نار الحرب . ذلك أنه قد بدا

له ، بعد أن استرد أربينو وپروچيا ، أن لا بد له من السيطرة على فيرارا ونهر اليو لضمان سلامة الولايات البابوية ، وتمكينها من صد فرنسا عند ميلان . وكان الدوق ألفنسو قد خلق هو نفسه سبب الحرب بإرساله الجنود والسلاح إلى فرانتشيسكو ماريا ليستخدمها ضد البابا ، وحارب ألفنسو بشجاعته المألوفة مع أنه كان مريضاً منهوك القوى بعد أن ظل جيلا كاملا يناصب البابا العداء حتى أنجاه موت ليو من سوء المصير .

وانتاب المرض البابا أيضاً فى أغسطس عام ١٥٢١ ؛ وكان بعض سببه الآلام الناشئة من ناسوره ، وبعضه الآخر متاعب الحرب وما تسببه من قلق واضطراب بال . وشفى من مرضه ، ولكنه عاوده فى شهر أكتوبر من ذلك العام نفسه . واسترد صحته فى نوفمبر بالقدر الذى أمكن معه نقله إلى قصره الريفى فى مجليانا ؛ وفيه ترامت إليه الأنباء أن الجيش البابوى — الإمبراطورى قد استولى على ميلان من الفرنسيين . وعاد الخامس والعشرين من ذلك الشهر إلى رومة واستقبل فيها ذلك الاستقبال الرائع الصاخب الذى لا يستقبل به إلى الغزاة الفاتحون . وأجهد نفسه فى السير على قدميه فى ذلك اليوم ، وتصبب عرقه حتى ابتلت منه ملابسه ، فلما كان صباح اليوم التالى لزم الفراش مصاباً بالحمى ، وسرعان ما زادت حالته سوءاً وأدرك أن منيته قد اقتربت . وفى أول يوم من ديسمبر جاءته الأنباء بأن الجيوش البابوية استولت على بياتشندسا وپارما فعلا وجهه البشر ؛ وكان قد أعان فى يوم من الأيام أنه يسره أن يضحى بحياته ثمناً لضم هاتين المدينتين إلى ولايات الكنيسة . ومات فى منتصف ليلة ١ — ٢ من ديسمبر سنة ١٥٢١ قبل أن يتم السنة الخامسة والأربعين من العمر بعشرة أيام . ونقل كثيرون من الخدم ، وبعض أفراد آل ميديتشى من الفاتيكان كل ما يستطيعون الاستيلاء عليه من الكنوز . وظن جوتشياردينى ، وچيوفيو ، وكستجليونى أنه مات مسموماً ؛ وأن ذلك ربما كان بتحريض ألفنسو أو فرانتشيسكو ماريا .

ولكن يلوح أنه مات بحمى الملاريا كما مات بها الإسكندر السادس[١٠١] .

وابتهج ألفنسو حين بلغه النبأ ، وضرب مدلاة جديدة كتب عليها « من أنياب الأسد » : وعاد فرانتشيسكو ماريا إلى أربينو وجلس مرة أخرى على عرشه ، واستولى رجال المال على ما استطاعوا الاستيلاء عليه . وكان مصرف بتّي قد أقرض ليو ٢٠٠,٠٠٠ دوقه ، ومصرف جدى Gaddi قد أقرضه ٣٢,٠٠٠ ، ومصرف ريكاسولى Ricasoli ١٠,٠٠٠ ؛ وفوق هذا فإن الكردنال پتشي أقرضه ١٥٠,٠٠٠ والكردنال سلڤياتى ٨٠,٠٠٠[١٠٢] وكان من حق البابوات أن يستولوا قبل غيرهم على كل ما أنقذ من أملاك البابا ؛ ولكن ليو مات وهو شر من المفلس . واشترك غير هؤلاء فى التشنيع على البابا واتهامه بسوء الإدارة المالية ، ولكن رومة كلها تقريباً حزنت عليه ، وكانت تعده أكرم من رأته من المحسنين فى تاريخها كله . وأدرك الفنانون ، والشعراء ، والعلماء ، أن يوم سعدهم قد مضى ، وإن لم يكونوا قد فكروا بعد فى مدى خسارتهم ، وفى ذلك يقول پاولو چيوڤيو : « إن المعارف ، والفن ، ورفاهية الشعب بأكمله ، ومباهج الحياة ، — وملاك القول إن كل ما هو خير — قد وورى التراب مع ليو »[١٠٣] .

وبعد فقد كان ليو رجلا صالحاً قضت عليه فضائله . وقد أثنى إرزمس على رحمته وإنسانيته ، وشهامته ، وعلمه الغزير ، ومناصرته الفنون ، ووصف عهد ليو بأنه الذهب[١٠٤] . ولكن ليو كان قد اعتاد التصرف فى الذهب حتى فقد عنده قيمته . فقد نشأ فى القصور . فتعلم الترف كما تعلم التمن ، ولم يشتغل قط ليكسب المال ، وإن كان قد واجه الأخطار بجنان ثابت ، ولما وضعت موارد البابوية تحت إشرافه انزلقت من بين أصابعه لقلة عنايته بشأنها ؛ بينما كان ينعم بالسعادة التى ينعم بها من يتلقاها أو يعد العدة لحرب لا تبقى ولا تذر . وسار ليو على الخطة التى سلكها الإسكندر ويوليوس ، وورث ما قاما به من جلائل الأعمال ؛ ورفع الولايات البابوية

إلى درجة من القوة لم تشهدها من قبل ، ولكنه خسر ألمانيا بتبذيره وتشدده في جمع المال . وكان في وسعه أن يشاهد جمال وعاء من أوعية الزهر ، ولكنه لا يستطيع رؤية الإصلاح الديني البروتستنتي بتشكيل وراء الألب ، وأصم أذنه عن سماع مئات النذر التي كانت ترسل إليه ، بل ظل يطلب المزيد من الذهب من أمة ثائرة عليه ، فكان بذلك سبب مجد الكنيسة ونكبتها معاً .

وكان أكرم أنصار العلم والأدب ، ولكنه لم يكن أكثرهم استنارة ، ولم يزدهر قط أدب عظيم في أيامه رغم سخائه على الأدباء . فقد كان أريستو ومكيفلي فوق مداركه وإن كان في وسعه أن يقدر بمبو Bembo وپولتيان . ولم يكن تذوقه للفن سامياً أكيداً كما كان تذوق يوليوس له ؛ ولم يكن هو الذي ندين له بكنيسة القديس بطرس أو بـ *مدرسة أثينة* . وكان مسرفاً في حبه جمال الشكل مقلا في إدراك المعاني التي يكشف عنها الفن العظيم الذي يغشى الشكل الجميل . وقد انهمك رفائيل بكثرة العمل ، وكان سبباً في انهيار صحة ليوناردو ، ولم يستطع كما استطاع يوليوس ، أن يجد سبيله إلى عبقرية ميكل أنچيلو بعد أن يجتاز إليها مزاج هذا الفنان الحاد . وكان مفرطاً في حب النعيم إفراطاً يحول بينه وبين العظمة . ويؤسفنا أن يكون هذا هو حكمنا عليه لأنه كان خليقاً بحبنا .

وسُمي العصر الذي كان يعيش فيه باسمه ، ولعله كان خليقاً بأن يسمى به ؛ ذلك بأنه وإن طبع بطابع العصر ولم يطبع العصر نفسه بطابعه ، كان هو الذي جاء من فلورنس إلى رومة بما خلفه آل ميديتشي من الثروة وحسن الذوق ، وما شاهده في بيت أبيه من مناصرة للعلم والأدب والفن خليقة بالملوك والأمراء ؛ وبفضل هذه الثروة والرعاية البابوية وجد الحافز القوي الذي رفع الأدب والفن إلى ما بلغاه من جمال الأسلوب والشكل . وكان هو مثلا احتذاه غيره من الرجال ، فأخذوا يبحثون عن المواهب ويمدونها بالعون ، ويضربون بدورهم لأوربا الشمالية مثلا في تقدير القيم العالية ومستوى

رفيعاً تجعله نصب عينها . وقد عمل أكثر مما عمله غيره من البابوات لحماية بقايا الآداب الرومانية القديمة ، وشجع الكتاب على محاكاتها . وقد ارتضى متع الحياة الوثنية ولكنه بقى فى مسلكه الخاص عفيفاً فى عصر أطلق لشهواته العنان . وساعد بفضل تأييده للكتاب الإنسانيين فى رومة على غرس بذور الآداب والأشكال القديمة فى فرنسا ، وأصبحت رومة برعايته قلب الثقافة الأوربية النابض ، يهرع إليها الفنانون ليصوروا ، أو يحفروا ، أويشيدوا ؛ والعلماء ليدرسوا ؛ والشعراء لينشدوا ؛ ...ون ليتلألأوا ؛ وفى ذلك يقول إرزمس : «علىّ قبل أن أنساك يارومة أن أغرق فى نهر النسيان(*) ألا ما أعظم ما فيك من حرية ثمينة ، وما حوته خزائنك من كتب قيمة ، وما أغزر ما فى صدور علمائك من معارف ، وما فيك من صلات اجتماعية نافعة ! وهل يستطيع الإنسان أن يجد فى غيرك من المدائن مثل ما يجد فيك من مجتمع أدبى راق ، أو تعدد فى المواهب مجتمعة كلها فى مكان واحد ؟ »(١٠٥) . وأنى يستطيع الإنسان أن يجد مرة أخرى وفى مدينة واحدة ، وفى عقد واحد من السنين ، مثل هذا الحشد العظيم من الأعلام : كستجليونى ، الظريف ، وبمبو المهذب ، ولسكارس العالم ، والراهب جيوكندو ، ورفائيل ؛ وآل سانسوڤينو ، وسنجلى ، وسبستيانو وميكل أنجيلو :

(*) نهر فى الجحيم فى الأساطير اليونانية القديمة . (المترجم)

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع المجملة ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويليها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية فى الكتاب المقدس .

CHAPTER XIV

1. Postor, I, 117; Creighton, I, 566-6.
2. In Pastor, I, 124.
3. Coulron, *Medieval Panorama*, 486.
4. Pastor, VII, 339; Creighton, I, 161.
5. Lea, H.C., *History of Auricular Confession*, III, 65.
6. Creighton, I, 147.
7. Ibid., 168
8. Gierke, *Political Theories of the Middle Age*, 52, 59; Hearnshaw *Midieval Contributions to Civilization*, 67.
9. Emerton, E, *Defensor Pacis of Marsiglio of Padua*, 70-2.
10. Postor, I, 184.
11. Niem in Milman, VII, 235n
12. Creighton, I, 273.
13. Milman, VII, 460.
14. Figgis, J. N.. *From Gerson to Grotius*, 41.
15. In Ogg. F. A., *Source Book of Midieval History*, 391.
16. Creighton, I, 297.
17. *Cambridge Medieval History*, VIII 8n.
18. Crighton, IV, 8.
19. In Pastor, I, 240.
20. Creighton, II, 272; Pastor I, 284.
21. Creighton. IV, 41.
22. Ogg, 393-7.
23. Pastor, II, 215.
24. *Cambridge Medieval History*, IV, 62 of; Pastor, II, 258.
25. Creighton, IV, 71.

CHAPTER XV

1. Gibbon, *Decline and Fall*, VI, 558.
2. Luciani, *Golden Days of the Renaissance*, 78-80
3. Burckhardt 105.
4. Roscoe, *Leo X*, I, 435.
5. Cf. Pastor VII, 104.
6. Pastor, I, 16?.
7. Pastor, II, 180; Hare, *Walks in Rome*, 167
8. In Creighton, IIIn.
9. Pastor, II, 14; Symonds, *Revivol*, 222 5
10. Ibid , 226.
11. Pastor, II, 193.
12. Pastor, II, 200.
13. Burckardt, 188.
14. Pastor, II, 198.
15. Sismondi, 613.
16. Vasari, II, 81, *Bernardino Rossellino*.
17. Lea, *Auricular Confession* III, 202.

18. Pastor, III, 102.
19. Creighton, II, 308f.
20. Pastor, II, 27-2f.
21. Ibid., 313.
21a. La Tour, P. imbart, de, *Les origines de la Réforme*, II, 7, 14.
22. Creighton II, 245.
23. Ibid., 246.
24. Ibid., 247.
25. Platina *in vitas summornm pontificiun* in Whitcomb. *Source Book*, 69.
26. Creigpton, 483.
27. Ibid.
28. burckhardr, 305.
29. Creighton. II. 483.
30. Sellery. 289.
31. Platida in Whitcomb. 65.
32. Creighton. II, 488.
33. Platina, I. c.
34. Ibid., 99.
35. Vasiliev, *History of the Byzantine Empire*, II, 442.
36. Pastor, III, 324.
37. Ibid., 236.
38. Creighton, IV. 209.
39. Thompon. J. W., 207.
40. Pastor. JV. 41-5; Villari, *Machivelli*, I, 106 7; Burckhardt, 280, 505.
41. Ferrara, O, *The Borgia Pope* 95.
42. Pastor IV, 238-44; Creighton, III.
43. Ibid., 75.
44. Symonds, *Despots* 388.
45. Ibid., 398n.
46. Cf. Creighton, III, 115, 285; Pastor, IV, 416.
47. Soriano in Symonds, *Despots* 394n; Pastor, IV, 428.
48. Symonds, *Despots*, 394.
49. Pastor. V, 236-8.
50. Vesucci in *Cambridge* Modern *History*, I, 222.
51. Creighton III, 120.
52. Ibid, 154-5; Pastor, V, 351.
53. Ibid., 352-4; Creighton. IV. 318.
54. Creighton, III, 126.
55. Ibid.
56. Burckhardt 108; Pastor, V, 354.
57. Pastor, V, 317; Creighton, III, 176.
57a. La Tour, II, 13.
58. Pastor, V, 361-2.
59. Creighton, IV, 297-8.
60. erighton, III. 126.
61. Ibid., 135.
62. In Taine, *Italy · Rome and Maples*, 171.
63. Creighton, III, 153; *Combridge Modern History*, I, 225.

CHAPTER XVI

1. Ferrara, *Borgia Pope*, 55-62; Pastor, II, 541-2.
2. Creighton, III, 162
3. Pastor. II, 455.
4. Beuf, *Cesare Borgia*, 19, Gregorovius, *Lucrezia*, 10.
5. Ibid, 18, 20.
6. Roscoe, *Leo* X, I, 24.
7. Gregorovius, *Lucrezea*, 352.
8. Id, IV, 324.
9. *Cambridge Modern History*, I, 225; Ferra, 66; Creighton, III, 159.
10. Ferrara. 51; Pastor. V., 366; Gregorgvius, 17
11. Creighton, III, 160n.
12. *Cambridge Modern History*, I, 226.
13. Pastor, V, 385.
14. Sacerdote, G., *Cesare Borgia*, 94.
15. In Creighton, III, 47.
16. *Cambridge Modern History*, I, 234.

17. Vasari, II, 116, *Pinturicchio*.
18 Ferrara, 310
18a. La Tour, II, 89.
19. Pastor, V, 396; Burckharpt, 109.
20. Portigliotti, 28f.
21. Guicciardini, I, 19-20.
22. Creighton, III, 168.
23. Ibid., 194-5, quoting the letters as given in Burckhard's *Diorium*,
24. Ceighton, III, 196; Pastor, V, 429; *Cambridge Modern History*, I, 229
24a. Guicciardini, I, 209.
25. Cerighton, III, 206; *Combridge Modern Bistory*, I, 231.
26. Ibip , 230
27. Pastor, V, 381.
28. Ferrara, 168.
29. Roscoe, *Leo* X, I, 394.
30. Guicciardini, I, 29.
31. Gregorovius, 75.
32. Creighton, III, 175; Gregorovius, 39, 62; Portigliotti, 47.
33. Ferrara, 164.
34. Creighton, III, 176; Gregorovius, 65.
35. Portigliotti, 45, 48, 61.
36. Burckhard, *Diarium*, iii, 227, in Creighton, IV, 49n.
37. Boccacclo, Ferrarese ambassador, in Symond, *Despots*, 417; Portigliotti, 56.
38. Gregorovius, 75.
39. Lea, *Auricular Confession*, III, 211f.
40. Guicciardini, III, 26; Pastor, VI, 153-4.
41. Guicciardini, III, 26; Creighton, IV, 13-4.
42. Portigliotti, 66.
43. In Villari, *Mochiavelli*, I, 321.
44. Portigliotti, 66.
45. Ferrara, 318.
46. Villari, l c.
47. Cf. Ferrara, ch. xxi.
48. Ibid., 309.
49. Ferrara, 246; Sacerdote, 198f.
50. Ibid., 221.
51. Ibid., 202.
52. Ferrara, 246; Pastor, V, 512, and Roscoe, Leo X, I, 154 acquit Caesar Borgia; Gregorovius, *Lucrezia*, 109; Beuf, 76-8; and Symonds, *Despots*, 425 accuse him; Creighton, III, 258, concludes that "it is impossible to pronounce any certain opinion."
53. Pastor, V. sol.
54. Gregorovius, 220; Burckhardt, 110.
55. Beut, 41.
56. Grcegorovius 57.
57. Beui, 97.
58. Cartwrioght, *Isabella*, I, 278.
59. Beuf. 7; Sacerdote, 207.
60. Ferrara, 291.
61. Barckhardt 112; Creighton. IV, 3-4.
62. Id , III, 6n; Ferrara, 203.
63. Richard Garnett in *Cambridge Modern History*, I, 238.
64. In Beuf, 155
65. Ferrara, 308.
66. Beuf, 194.
67. Ibid., 223.
68. Crighton, IV, 27.
69. Ibid.
70. Ibid., 29; Sacerdote, 806.
71. Guiccia dini, III, 137; Machiavelli, *Relation of the Murder of Vitellezzo* in Appendix to *History of Florence*, pp. 401-6.

72. Beuf 292.
73. Ibid.
74. Ibid and 296.
75. Creighton IV, 36.
76. Ibid, 40.
77. Beuf, 290.
78. Beuf, 252-8.
79. Beuf 131.
80. Beuf, 66, 177; Guicciardini, III, 126.
81. Portigliotti, 83.
82. Villari, *Machiavelli*, I, 328.
83. Burckhardr, 116.
84. Pastor., VI, 158.
85. Beuf, 305-7.
86. Ferrara, 326.
87. Burckhard, 116. Villari, *Machiavelli*, I, 323.
88. Cartwright, *Isabella*, I, 327.
89. Creighton IV, 30-40, *Cambridge Modern History* I, 242; Beuf, 307.
90. Symonds, *Despots* 426.
91. Burckhard *Diarium* ed. Celani, II, 303, in Portigliotti, 54.
92. Ferrara, 337; Gregorovius, *Lucrezia*, 178.
93. Ferrara, 337.
94. Gregorovius, 177; Ferra, Creighton, IV, son, accepts the tale.
95. Gregorovius, 189.
96. Ferrara, 252.
97. Ibid., 251.
98. Gregorovius, 108, 330.
99. Creighton, III, 264.
100 There are different account of Alffonso's death; the text follows the despatches of the Venetian ambassador Capello as given in Creighton, IV, 257-62. Pastor (VI. 77) suggests that Alfonso was slain by his own bodyguard.
101. Cf. Gregrovius. *Lucrezia*, 175.
102. Carwright, *Isabella*, I, 205.
103. Creighton, IV, 21; Pastor, 300; Gregorovius, 175.
104. Ibid., 167.
105. Ibid., 213.
106. Ibid., 222; Frieplander, *L.*, *Roman Life and Manners*, II, 176.
107. Gregorovius, 246-8.
108. Ibid., 290.
109. *Cambridge Modern History*, I, 241; Pastor, VI. 132; Sacerdote, 683; Villar, *Machiavelli*, I, 327; Lanciani, 76; Ferrara, 400; Roscoe, *Leo* X, I, 469; Beuf 318. Portigliotti, 129-37, defends the poison theory.
110. Ldnciani, 76.
111. Portigliotti, 127.
112. Gregorovius, 289.
113. Guicciardini III, 228.
114. Machiavelli, *Prince*, ch. xviii.
115. Pastor, VI, 187.
116. Roscoe, *Leo* X, 195.
117. Creighton, IV, 44-50.
118. *Cambridge Modern History*, I,
119. Creighton, IV, 57.
120. Pastor, VI, 208.
121. Gregorovius, *Lucrezia*, 310.
122. Ibid., 31.
123. Roscoe, *Leo* X, 195.

CHAPTER XVII

1. Pastor, V, 369.
2. Paris de Grassis in Roscoe, *Leo* X, I, 300.
3. Pastor, l.c.
4. Villari, *Machiovelli*, I, 367.
5. Pastor, VI, 215.
6. Ibid., 223.
7. Beuf, 364.

8. Machiaveli, *Discourses*, i, 27.
9. Creighton, IV, 117.
10. Ibid., 123.
11. Ibid., 124.
12. Ibid., 127.
13. Guisciardini V, 90.
14. Creighton, IV, 163n.
15. Ibid., 130n.
16. Guicciardini, VI, 111.
17. Müntz, *Raphael*, 293.
18. Symonds, *Michelangelo*, 92-4.
19. Pastor, VI, 469f.
20. New York *World*, May 12. 1928.
21. Nietzsche, Letter to Brandes, in Huneker, *Egoists*, 251.
22. Vasari, ed., Blashfield and Hopkins, IV, 37n, *Michelangeto*.
23. Ibid., 38.
24. In Symonds, *Michelangelo*, 7.
25. Cellini, *Autobiography*, i, 13.
26. Symonds, *Mich.*, 134
27. Ibid., 44.
28. Ibid., 45.
29. Maulde, 313.
30. Symonds, *Mich.*, 58.
31. Vasari, IV, 59.
32. Symonds, 70.
33. Ibid , 100.
34. Cellini.' i, 12.
35. Condivi in Symonds, III.
36. Symonds, 125.
37. Vasari, IV, 89.
38. Condivi in Symonds, 139.
39 Faure, E., *Spirit of Forms*, 139.
40. Vassari, IV, 91.

CHAPTER XVIII

1. Montalembert, *Monks of the West*, I, 81.
. Roscoe, *Lorenzo*, 285.
3. Guicciardini, VI, 114.
4. Roscoe, *Leo* X, I, 344.
5. Guicciardini, VII, 68.
6. Ibid., VI, 117.
7. Crieghton, IV, 182.
8. *Cambridge Modern History*, II, 14 ; Gregorovius, *History, of City of Rome*, VIIIa, 294; Creighton, IV, 181n. All these rest on the *Relazione* of Marino Giorgio, the Venetian ambassador, and on Prato's *Storia Milanese* ; probable but inconclusive, since, since Ciorgio did not take up residence in Rome till 1515.
9. Postor, VIII, 391.
10. Ibid.
11. Ibid., 84,
12. Roscoe, *Leo* X, II, 259.
13. Ibid., 388 ; Pastor, VIII, 79.
14. Muntz, *Raphael*, 409.
15. Taine' *Italy : Rome and Naples*, 185.
16. Pastor, VIII 74.
17. Roscoe, II, 391.
18. Burckhardt, 185.
19. Pastor, VIII, 160, 162.
20. Ibid., 163-4
21. Lanciani, *Golden Days of the Renaissance in Rome*, 321.
22. Burckhardt, 387.
23. Gregorovius VIIIa, 407.
24. Lanciani, 58.
30. Roscoe, II, 87; Pastor, VIII, 127.
31. Gregorovius, VIIIa, 202.
32. Lanciani, 108.
33. Pastor, VIII, 121.
34. Cartwright, *Isabello*, II, 116.
35. Gregorovius, VIIIa, 209, 311.
36. Rashdall, H., *Universities of Europe in the M. A.*, II, 39.

37. Roscoe, I, 342.
38. Huizinga, *Waning of the Middle Age*, 62.
39. Pastor, VIII, 268.
40. Roscoe, I, 357.
41. Ibid., 287.
42. Ibid.
43. Maulde, 432.
44. Roscoe, II, 173.
45. Müntz, *Rapbael*, 405; Symands, *Italian Literature*, II, 147.
46. Roscoe, II, 299-302; Postor, VIII, 238.
47. Ibid., 270.
48. Roscoe, II, 176.
49. Ibid., 110; Pastor, VIII, 184.
50. Roscoe, II, 110.
51. In Symonds, *Revival*, 499.
52. Ibid., 500.
53. Ibid., 503.
54. Ibid, 476.
55. Lanciani, *Ancient Rome*, 1954f.
56. In Postor VIII, 362.
57. Symonds, *Michelangelo*, 195.
59. Pastor, VIII, 435.
60. Symods, 219.
61. Ibid., 51.
62, Ibid., 52.
63. Vasari, IV, 213.
64., Ibid., 218.
65. Ibid., 212.
66. Symonds, *Eine Arts*, 268.
67. Symonds, *Michel.*, 203.
68. Ibid, 529.
69. 535.
70. 149.
71. Müntz, *Raphael*, 421.
72. Ibid., 422.
73. 420.
74. Ibid.
75. Vasari, II.247-9. *Raphael.*
76. Wmckelmann, *History of Anciant Art*, II, 316.
77. Müntz, *Raphael*, 462.
78. Roscoe, *Leo*, *X*, I. 347.
79. Lanciani, *Golden Days*, 279-80
80. Friedländer, II, 136; Pastor, VIII.
81. Friedländer. I.c.
82. Ibid., 157.
83. Lanciani *Golden Days* 302.
84. Müntz, *Raphael*, 401.
85. *Time* Magazine April 30, 1951,
86. Vasari, II, 238.
87. Lanciani, 230.
88. Vasari, II, 241.
89. Ibid, 247.
90. Matt. 17 : 1-3, 14f.
91. Vasari, II, 247.
92 In Mantegna *L'oeuvre*, Introd., x.
93. Guicciardini, VII, 287; VIII, 11.
94. Ibid., VI, 412.
95. Ibid., VII, 120; Roscoe, *Leo* X, II, 200.
96. Cf. Ranke, *History of the Popes*, I, 309.
97. Pastor VIII, 81, 151.
98. Thrompson, J. W., 423.
99. Pastor, VIII, 81, 151.
100. Ibid., 102.
101. 63-5.
102. Thompson, 423.
103. Pastor, VIII, 460.
104. Young, *Medici*, 296.
105. Pastor, VIII, 190.

الفهـــرس

الـــكتاب الرابع – النهضة فى رومة

الموضوع الصفحة

الباب الرابع عشر – أزمة الكنيسة

الباب الخامس عشر – النهضة تستحوذ على إيطاليا

الباب السادس عشر – آل بورچيا

الباب السابع عشر – يوليوس الثانى

الباب الثامن عشر — ليو العاشر

فهرس الصور